جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

مناهج الدعوة

GDWH5103

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2010

المحتويات

الدرس الأول	: بيان معنى المنهج، واستعمالاته في القرآن والسنة	٧-٢٤
الدرس الثاني	: تابع: بيان معنى المنهج، واستعمالاته في القرآن والسنة	٢٥-٤٠
الدرس الثالث	: المنهج الاستنباطي	٤١-٥٩
الدرس الرابع	: المنهج الاستقرائي	٦١-٨٠
الدرس الخامس	: المنهج الجدلي (١)	٨١-٩٨
الدرس السادس	: المنهج الجدلي (٢)	٩٩-١١٦
الدرس السابع	: المنهج الجدلي (٣)	١١٧-١٣٣
الدرس الثامن	: المنهج الجدلي (٤)	١٣٥-١٥٠
الدرس التاسع	: المنهج التاريخي	١٥١-١٦٨
الدرس العاشر	: المنهج المقارن	١٦٩-١٨٨
الدرس الحادي عشر	: منهج التزكية	١٨٩-٢٠٥
الدرس الثاني عشر	: منهج النقد الذاتي	٢٠٧-٢٢٤
الدرس الثالث عشر	: المنهج التجديدي	٢٢٥-٢٤٤
الدرس الرابع عشر	: المنهج العاطفي	٢٤٥-٢٦٢
الدرس الخامس عشر	: المنهج العقلي	٢٦٣-٢٧٩

الدرس السادس عشر	:	المنهج الفردي (١)	٢٨١-٢٩٨
الدرس السابع عشر	:	المنهج الفردي (٢)	٢٩٩-٣١٥
الدرس الثامن عشر	:	المنهج الفردي (٣)	٣١٧-٣٣٣
الدرس التاسع عشر	:	المنهج الجماعي	٣٣٥-٣٥٣
الدرس العشرون	:	منهج التربية	٣٥٥-٣٧٤
الدرس الحادي والعشرون	:	تابع: منهج التربية	٣٧٥-٣٩٢
قائمة المراجع العامة	:		٣٩٣-٣٩٦

بيان معنى المنهج، واستعمالاته في القرآن والسنة

عناصر الدرس

العنصر الأول :	معنى المناهج في اللغة	٩
العنصر الثاني :	المناهج والتخطيط، وإسلامنا والتخطيط	١٣
العنصر الثالث :	معنى المنهج في القرآن الكريم	٢٢

معنــــى المنــــاهج في اللغــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم وسار على نهجهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.

المناهج لغةً:

المناهج جمع: منهج، ويدور لفظ المنهج في اللغة حول معنى الطريق البين الواضح، أو الخطة المرسومة لشيءٍ معين لتحقيقه.

أ) فيقال للنهج: الطريق الواضح، واستنهج الطريقَ سَارَ نهجًا، والمنهاج يُراد بهما الطريق الواضح، ونهج الطريق أي: وَضَحَ واستبان.

ب) ونهج الطريق أو نهج الأمر، أي: وضح واستبان، ويقال: نهج فلان الطريق والأمر، أي: وضحه وأبانه.

ج) وفي (القاموس) النهج الطريق، كالمنهج، والمنهاج، وأنهج: أي وضَّحَ، واستنهج الطريق أي: صار نهجًا، كأنهج فلان سبيل فلان أي: سلك مسلكه.

د) وفي (لسان العرب) طريقٌ نَهَج، أي: بيِّنٌ واضح، وهو النهج والمنهاج كالمنهج وفي التنزيل: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وأنهج الطريق، أي: وضح واستبان وصار نهجًا واضحًا، والمنهاج الطريق الواضح، وفي حديث ابن عباس: "لم يمت رسول الله ﷺ حتى تركم على طريق ناهجة"، ونهجت الطريق: وضحته وبنته.

ويُقال: اعمل على ما نهجته لك، ونهجتُ الطريق أي: سلكته، فمن خلال تعريف معاجم اللغة لمعنى المنهج، والمراد به في شتى التصاريف؛ يمكننا أن نقول:

"إن المنهج في اللغة يعني: الطريق البين الواضح، والطريقة والخطة المرسومة لاتباعها، والسير عليها، والنظام الموضوع والمحدد للسير عليه، واتباعه لتحقيق هدف معين، والوصول إلى غاية محددة.

ومن الطبيعي أن تكون المناهج والشرائع متعددة؛ لأنها أحكام، وأوامر ونواهٍ، وخطط ونظم، وطرق من جهة، ولتعلقها بجانب العباد الذين تختلف أحوالهم وأوضاعهم زمانًا ومكانًا من جهة أخرى، خلافًا للملة؛ فإنها لا تتعدد، وذلك لتعلقها بجانب الله ﷻالواحد الأحد، ودلالة اللغة على الطريق تعني وضوح الخطة، واشتمال الطريق على كل ما تحتاج الحركة خلاله، فهو طريق شامل لخطة متكاملة؛ ولذلك كانت الخطة الكاملة ضرورة في أيِّ نظامٍ تامٍّ، وتُعرف هذه الخطة بالمنهج، يُقال: منهج التعليم، ومنهج الحكم، ومنهج القضاء، وهكذا.

ولذلك عرف العلماء المنهج بأنه الخطة الشاملة الموضوعة لتحديد أطر أي نظام، فمنهج الحكم إطار يحدد مسئوليات الراعي والرعية، وطرق التعامل وكيفية الاختيار والمسائلة، وهكذا فكل شئون الحكم تخضع للإطار الموضوع والمنهج المحدد لها، فكأن المنهج هو الدستور، وهو المبدأ والأساس، ومنهج الدعوة يعني: الأطر الموضوعة المحددة لمسار حركة الدعوة بكل جزئياتها.

إن المنهج نظرية متكاملة تتناول كافة جوانب عملية الدعوة، وبها تتحدد مهام كل جانب وطريقة قيامه بدوره في الدعوة إلى الله تعالى، إن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على عدةِ جوانبَ هي:

أولًا: مضمون فكري هو الإسلام بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق.

ثانيًا: أسلوب يحتوي على الفكرة، ويتحرك بها، ويوصلها لمن يستقبلها من الناس، فقد يكون الأسلوب قولًا أو عملًا، أو حالة معبرة، أو غير ذلك.

ثالثًا: أدواتٌ تحمل الأسلوبَ بمضمونِهِ ومحتوَاهُ.

رابعًا: شخصية عاقلة تجمع الأجزاء المذكورة في صورة حسنة؛ لتصل بها إلى المدعويين رجاء إيمانهم وهدايتهم.

خامسًا: أناس يتوجه إليهم الدعاة بالفكرة واضحةً مقنعةً، بأسلوب مناسب وأدوات ملائمة؛ رجاء تحقيق ما تريده الدعوة منهم.

إن هذه الجوانب هي علوم للدعوة إلى الله، ويجب أن يهتم العلماء بها لوضع القواعد وإعداد الدراسات التي يحتاجها كل علم منها، ومنهج الدعوة هو الخطة الكلية والنظام العام الذي يحدد الإطار لكل هذه الجوانب، ولسائر هذه العلوم لتترابط وتتكامل.

إن منهج الدعوة بصورةٍ عامةٍ هو النظام الذي يجمع كافةَ جزئيات عملية للدعوة، وينسق بينها لتتكامل، وتتحقق للدعوة ما يراد منها على وجه صحيح، وعلماء التفسير والمحدثون يذهبون في معنى المنهج إلى ما ذكرناه، ويرون: أن المنهج هو الطريق الواضح البين.

يقول الدكتور رشاد علي: "والمنهج في المفهوم العلمي العام هو الإطار الكلي المنظم لكل أنواع التفكير الانعكاسي وأساليب الاستقصاء والفحص، والتفكير الانعكاسي هو عملية شاملة تحكم موضوعها من أول الإحساس به، وتحديد وصيانة، ووضع فروضه، وتفسير هذه الفروض للوصول إلى النتائج المطلوبة.

ويُقصد بأساليب الاستقصاء والبحث: الوقوف على كل افتراضة متصورة في الموضوع وتحليلها، وبهذا المفهوم العام للمنهج يتضح أن المراد منه الخطة الشاملة للتعامل العلمي مع أي مسألة، وأي قضية.

إن المنهج خطة كاملة، ونظرية تامة تحدد الدعوة ومسارها، وطرق الإقناع بها، وأسلوب الخطاب لها، وتحقيق أهدافِها في كافة جوانب الحياة؛ وعلى هذا فمنهج الدعوة كمصطلحٍ أو كعلم خاص يشتمل على نظريةٍ شاملةٍ للدعوة بكل جوانبها، وحينئذ لا يصح إطلاق مسمى المنهج على الأسلوب أو على الوسيلة، أو على الموضوع أو غير ذلك، إلا على وجه المجاز من باب تسمية الجزء باسم الكل، ومع وجود قرينة تمنع من إرادة حقيقة المفهوم ومنهج الدعوة رباني كله، ويمكن أخذه من تعاليم الله تعالى من كافة جوانبه؛ لأن الجوانب الثابتة كموضوع الدعوة وغايتها ثابتة مفصلة في أغلبها.

أما الجوانب غير الثابتة كالوسائل والأساليب، وصفات القائم بالدعوة وأحوال المدعوين؛ فإن تعاليمَ اللهِ تَعَالَى تضع الأسس والشروط، مع ترك التفاصيل للاجتهادِ والبحث.

ومنهج الدعوة ليس هو الحركة بالدعوة فقط؛ لأن الحركة تعني الصورة العملية التي تظهر حين يقوم الرسل والدعاة بتبليغ دين الله للناس، والمنهج أعم من ذلك، وعلى أساس التسليم بهذا الفهم نجد أنفسنا أمام عدد من علوم تبليغ الإسلام، ولكل منها تعريفٌ يوضحها، ويحدد المراد منها، وكلها تندرج في أن أصول كل منها تعني دراسة الأسس والمبادئ التي تؤدي إلى قيام الدعاة والوسائل والأساليب بدورهم في نشر الإسلام وإيصاله للناس على وجهٍ مشروع.

المفهوم الحديث للفظ المنهج:

اتضح لنا أن المعنى المراد من اللفظ يكاد يكون واحدًا، وهو أنه الطريق الواضح البين، أو الخطة المرسومة لتحقيق غاية معينة، وللوصول إلى هدف محدد، وفي الاستعمال العصري لكلمةِ منهج لا يختلف المرادُ عن هذا المفهوم، فيطلق لفظ المنهج في الاصطلاح الحديث، ويراد به الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في

العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة، فهو الطريقة التي يتبعها الباحث في دراسته للمشكلة لاكتشاف الحقيقة، والعلم الذي يبحث في هذه الطرق هو علم المناهج.

وعلى أساس هذا المفهوم فإن الداعي تصادفُهُ مشكلةٌ من المشكلات مثل انتشار معصيةٍ من المعاصي، فيرسم لها منهجًا له خطواته في معرفة الأصل في ظهورها ليعالجها دعويًّا، وهذا ما يُعرف بتحديد الداء والدواء، فالداء هو المعصية وتحديد سببه، ثم رسم خطة العلاج، وهو منهج الإصلاح والتبليغ.

ويرى البعض: أن لفظ منهج هو ترجمة للكلمة الإنجليزية "method" والتي ترجع أصلًا إلى اليونانية التي استخدمت كاصطلاح يدل على نشاط معين، إلا أن المعنى الأصلي يدل على الطريق أو المنهج المؤدي إلى غرض معين، واختيار المنهج يكون على أساس الإفادة منه، والوصول إلى الغاية المطلوبة، وليست هناك طريقة يمكن أن تكون ناجحة إلا إذا أدت إلى نتائج سليمة وحقيقية أي: أن المنهج، أو الطريق لا ينبغي اعتباره هدفًا في حدِّ ذاتِهِ، ولكنَّهُ مجرد خطة لتحقيق الهدف، أو الغرض، فهذا المفهوم يحدد لنا أن ما يوضع من منهج، أو خطة دعوية معينة لا تعتبر ناجحة إلا إذا حققت الهدف من التخطيط، وإلا فيعيد الخطة من جديد.

المناهج والتخطيط، إسلامنا والتخطيط

المناهج والتخطيط:

وعالم اليوم لا يستمد قوته من عضلاته المفتولة، ولا من قدر الحديد الذي يملكه، وإن كان هذا وذاك بعض عناصر القوة، ولكنه يستمد قوته بالدرجة الأولى من قوة مناهجه وتخطيطه، ثم يستمدها ثانيًا من دقة التنفيذ الملتزم بمنهج العلم، وأخيرًا تأتي القوة المادية وقوة العضلات، ذاك ما أفضى إليه التطور

الحضاري عبر القرون، وهو مُشَاهَدٌ ملموس لا يحتاج إلى دليلٍ أو برهان؛ ومن ثم فقد عرف العالم التخطيط الاستراتيجي لتحديد الأهداف، ومعرفة الاتجاه، أو المسار، وعرف التخطيط الطويل الأجل والتخطيط القصير الأجل، وعرف أنه هذا وذاك يقوم على عنصرين أصليين، تحقيق الأهداف، القدرات القيادية، ومن ثم بُذلت الجهود والأموال للتخطيط تعليمًا وتدريبًا وتنفيذًا، وبُذلت معها الجهود لإفراز القيادات، والبحث عنها، واحتضانها وتوجيهها، وعُرفت معاهد للتخطيط، وأخرى لتخريج القادة كما جرت دورات للتدريب على التخطيط، وأخرى للتدريب القيادي، وبلغوا في ذلك شأوًا بعيدًا.

إسلامنا والتخطيط:

وليس الأمر بعيدًا عن إسلامنا، لقد سبق الإسلام إلى وضع المناهج وسبق إلى التخطيط، فالقرآن ذاته منهج، وداخله مناهج والسنة ذاتها منهج، وداخلها مناهج، والسيرة منهج ومراحلها المختلفة مناهج، والتخطيط هو ما أسماه رب العالمين تدبيرًا، وقد سبق التدبير الرباني كل تدبير، ليكون تعليمًا وتدريبًا على التخطيط، فضلًا عما فيه من علمٍ وعملٍ متعلقٌ بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، فمن أسمائه سبحانه الحكيم ومن صفاته الحكمة، فمن أسمائه سبحانه العليم ومن صفاته العلم، فمن أسمائه سبحانه المهيمن ومن صفاته الهيمنة.

والتوجيه الرباني لصاحب الدعوة ﷺ: ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ [العلق: ١]، وبعدها ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وبعدها: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤] ثم: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ﴾ [الحج: ٣٩] وبعدها: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٠] وبعدها: ﴿ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦]،

كلٌّ ماذا يُسمى، وماذا نتعلم منه، وإذا قال رسول الله ﷺ لمن يؤمِّرُهُ على الجيوش: ((اتقوا الله واستوصوا بمن معكم خيرًا، ثم اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا)).

ورسول ﷺ يرسل إلى اليمن معاذ بن جبل > فيقول: ((إنك تأتي قومًا أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ فإذا عرفوا الله فأخبروهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة)، أليس ذلك منهج للدعوة؟!

وعندما يكلف ﷺ معاذ بن جبل بالقضاء على أرض اليمن يسأله: ((بم تقضي؟ فيقول: بكتاب الله، فيقول له فإن لم تجد؟ فيقول: فبسنة رسول الله، فيقول له: فإن لم تجد؟ فيقول: اجتهد رأيي ولا آلوا، فيقول: الحمد لله الذي وفَّقَ رسولَ رسولِ الله لما يرضي الله ورسوله). أليس ذلك منهج للحكم؟!

وأخيرًا يتحدث رسول الله ﷺ عن الخير والشر مع حذيفة بن اليمان، فيقول حذيفة >: ((كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله كنا في جاهلية وشر، فأتانا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، فقلت: فهل بعد هذا الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم قذفوه فيها، قلت: صِفْهُم لنا يا رسول الله، قال: هم من جلدتنا، ويتكلمون بلساننا، قلت: فماذا تأمرني إن أدركني هذا الشر؟ قال: أن تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن جماعة ولا إمام؟ قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة)) أليس في هذا تخطيط، ألا يحوي هذا منهجًا في مواجهة دعاة جهنم؟!.

وبعد فإذا أمرنا ربنا ﴿ وَأَعِدُّواْ ﴾ [الأنفال: ٦٠] وقرنها بأقصى استطاعة لنا ﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾ وقرن الاستطاعة بالقوة طليقة من كل قيد ﴿ مِّن قُوَّةٍ ﴾ ، وجاء بعدها بالمقيد ﴿ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ ، وحدد لنا الغاية من وراء ذلك ﴿ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ألا يعدد هذا أمرًا لنا بالتخطيط، وأمرًا لنا بإعداد المناهج والتخطيط وإعداد المناهج بالتأكيد جزء من الإعداد، بل إنه لا يصح إعداد من غير تخطيط، ولا مناهج، إنه يغدو ارتجالًا لا إعدادًا، وإذا كان للدولة تخطيط ومناهج، فالدعوة كذلك تخطيط ومناهج، ولها من وراء ذلك أهداف ولها كذلك أساليب، ولهذه وتلك خصائص وسِمَات، ولهذه وتلك نتائج وآثار، ولا نغادر هذا التمهيد حتى يتبين الفارق بين مصطلحات ثلاثة:

أولًا: مناهج الدعوة.

ثانيًا: أساليب الدعوة.

ثالثًا: وسائل الدعوة.

أما المناهج: فهي كما تبين في اللغة الطريق، ويسميه البعض السنة، وهو عندنا الخطة، أو التخطيط اللازم لشيء ما، فمنهج البحث خطته، ومناهج الدعوة خطتها أو تخطيطها.

أما الأساليب: فجمع أسلوب، وهو الفن، فأساليب الدعوة هي فنون الدعوة الحكمة الموعظة القدوة القوة... إلى آخره.

أما الوسائل: فهي القنوات أو أدوات التوصيل لهذه الأساليب، واضح الصلة أنها أولًا صلة الدعوة التي تجمع الجميع، فكل هذه المناهج الأساليب الوسائل

هي لخدمة الدعوة ؛ فالدعوةُ هدفٌ من أجله كانت المناهج ، ومن أجله كانت الأساليب ، ومن أجله كانت الوسائل ، وبالترتيبِ التصاعدي تقف في القاع الوسائل فهي مجرد أدوات ، وإن كان لنا بل علينا أن نستغل كل أنواع الأدوات لتوصيل الدعوة ، وتأتي بعدها الأساليب ، وهي الشكل الذي يتم به الأداء ، موعظة ، جدلًا ، قدوة ، قوة ، وتأتي في القمة المناهج التي من خلالها نخطط للدعوة مسترشدين بمبادئ القرآن وبما جاء في السنة وبسيرة رسول الله ﷺ والمنهج كما يتضمن الإطار الذي تعمل فيه الدعوة إلى الله فإنه قد يَتضمَّنُ أسلوب أو الأساليب المختلفة.

كذلك قد يتضمن الوسائل الملائمة لتوصيل الدعوة ، ويرتبط الأسلوب مع المنهج كما ترتبط الوسيلة مع المنهج ، ويرتبط الأسلوب المناسب مع الوسيلة المناسبة مع الظرف المناسب ، وهكذا تتشابك الثلاثة المنهج والأسلوب والوسيلة كذلك ، وتختلف المناهج والأساليب والوسائل تبعًا للمرحلة التي تمر بها الدعوة.

فمرحلة التبليغ والنشر غير مرحلة التربية والتكوين ، وغير مرحلة المواجهة والتنفيذ ، فالمنهج الصالح للمرحلة الأولى قد لا يصلح للثانية ، وهو لا يصلح للثالثة ، والأسلوب قد يصلح لمرحلة أو أكثر والوسيلة كذلك قد تصلح لمرحلة أو أكثر ، بعد أن اتضح لنا أن المراد بالمنهج هو الطريق الواضح البين والخطة المرسومة والخطوات التي يجب اتباعها للوصول إلى غاية معينة ، وتحقيق نتيجة محددة وأنه نظام يوضع لتحقيق هدف من الأهداف ، ولا يعتبر المنهج ناجحًا إلا إذا حقق المراد منه ، وبعد أن اتضح لنا المراد بلفظ الدعوة ، وأن لها إطلاقات واستعمالات فتطلق ويراد بها الحس والطلب ، وهذا يعني التبليغ والنشر وتُطلق ويراد بها المدعو إليه نفسه وعندئذ تعني الدين الذي يدعو إليه الدعاة ويحثون على اتباعه ، فالمراد بها الإسلام نفسه ، ويتضح الفرق بين المعنيين من سياق الكلام.

فإذا قلت مثلًا دعوتي لك إلى اتباع الإسلام واجب علي، فإن لفظ دعوة يراد به حثك على اتباع الإسلام وتبليغ إياه لك واجب، وإذا قلت: الإسلام دعوتي، أي: أن ما أدعو إليه هو الإسلام والتوحيد دعوتي، أي: ما أدعو إليه، وهذه كلها دعوة بمعنى الدين.

المراد بالمنهج: بحسب ما يُضاف إليه من معنى الدعوة، إذا أضيف لفظ الدعوة إلى منهج يكون منهج الدعوة فيقصد هنا أمران:

الأمر الأول: منهج الدين في بناء المجتمع.

الأمر الثاني: منهج التبليغ عند الدعاة.

لقد أنزل الله تعالى دينه على رسوله ﷺ في القرآن الكريم، ووضحه النبي ﷺ وشرحه بسنته الشريفة، وقد شمل أوامر الدين ونواهيه وإرشاداته وتوجيهاته إلى كل حاجات البشر إلى يوم القيامة، ولا يقصر التشريع عن الوفاء بأي مطلب من مطالب البشر، أو الفصل في القضايا والأحداث المتتابعة والمتجددة بمرور الزمن، فقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ومصدر التشريع الأصليان الكتاب والسنة محفوظان وموجودان والمصادر التبعية كالاجتهاد والقياس والاستحسان وغيرها تزخر بها كتب أصول الفقه، وباب الاجتهاد مفتوح أمام المؤهلين لذلك لاستنباط أحكام، لما تجدد من القضايا، ولذلك فإن الله جعل السعادة في اتباع ما أنزل لتنظيم حياة البشر وعلاقاتهم في سائر مجالات الحياة وميادينها، فقال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٥].

فالسعادة والاستقرار مبنيان على أساس امتثال ما أنزل الله من أصول وضوابط، وقواعد، ونظم لتنظيم مجالات التعامل الإنساني، فقد أنزل الله من القواعد والنظم ما يسعد عباده باتباعه، فالإسلام بكل محتوياته هو منهج الله تعالى، والخطة التي أمر بها، والطريق البين الواضح الذي حدده الله وبينه لإصلاح الحياة بكل ما فيها ومن فيها، والخلق صنعته، وهو وحده يعلم ما يصونهم، وما يصلحهم، فحدد لهم طريق الإصلاح: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

ولذا فقد وضع الإسلام مناهج لتنظيم مجالات الحياة المختلفة أفرادًا ومجتمعات فوضع منهجًا لبناء الإنسان عقديًّا منهج بناء العقيدة، كما وضع منهجًا للعبادة، وحدد لكل منها معالم وخطوات وضوابط لا يحيد عنها الإنسان، ولا يخالفها، وإلا لما تحقق الهدف من المنهج، ولما وصل الإنسان إلى الغاية التي كان من أجلها وُضع المنهج، وهو إقرار التوحيد، وتحقيق العبودية لله تعالى.

ومن مناهج الإسلام في بناء المجتمع وتنظيم علاقة أفراده ببعضهم لتحقيق غاية سامية، وهي توفير السعادة، والأمن، والاستقرار للمجتمع:

أولًا: منهج الإسلام في المجال الاقتصادي: النظام المالي.

ثانيًا: منهج الإسلام في المجال السياسي: نظام الحكم.

ثالثًا: منهج الإسلام في المجال الحربي: النظام العسكري.

وقد تكفل ببيان خطوات هذه المناهج مراجع الفقه الإسلامي، وكتب النظم الإسلامية التي بينت كل نظام على حده وفق ما رسمه الشرع من خطوات لاتباعه، وتحقيق الغاية والهدف من وضعه، فالنظم الإسلامية هي مناهج الله تعالى لعباده لتنظيم علاقاتهم في حياتهم، وتحديد علاقتهم بربهم وخالقهم، مثال للتوضيح منهج العبادة ونظامها غايته تحقيق العبودية والإذعان لله ﷻ فخطوات هذا المنهج، وذلك النظام كالآتي:

أولًا: الصلاة: بكل شروطها وضوابطها خطوة من خطوات المنهج

ثانيًا: الزكاة: بكل الشروط المتعلقة بها وتفصيلاتها خطوة ثانية من خطواته.

ثالثًا: الصيام: بكل ما فيه من ضوابط وأخلاقيات خطوة من خطواته.

رابعًا: حج البيت لمن استطاع إليه بكل شروطه خطوة أخيرة من خطواته.

فحتى نصل إلى الغاية من وضع هذا المنهج، ومن تحقيق العبودية لله لا بد من الإتيان هذه الخطوات كاملة غير ناقصة، ولكل من هذه الخطوات طرق في التطبيق معلومة امتلأت بها كتب الفقه، ومتى تحقق هذا المنهج، ونُفذت جميع خطواته يكون المسلم قد أدى معنى العبادة.

ومثال آخر وهو منهج بناء الإنسان عقديًّا، أي: منهج العقيدة، وله خطوات واضحة:

أولا: الإيمان بالله وتوحيده توحيدًا خالصًا.

ثانيًا: الإيمان بالرسل وبرسالة سيدنا محمد ﷺ، وأنه خاتم النبيين ورسالته خاتمة الرسالات مصدقة لما قبلها.

ثالثًا: الإيمان بالكتب السماوية، وأن القرآن آخرها، وقد هيمن عليها وصدقها.

رابعًا: الإيمان بالملائكة على النحو الذي أخبر به عنهم القرآن والسنة.

خامسًا: الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحشر، وحساب، وجنة ونار وصراط، وميزان على النحو الذي أخبرنا به القرآن والسنة.

سادسًا: الإيمان بالقدر خيره وشره.

وهذه الحقائق كلها خطوات منهج البناء العقدي، وقد استعمل القرآن مختلف الأساليب لإثباتها وبيانها، وإلزام العقل، والقلب بالإذعان لها والتسليم بها.

مثال ثالث منهج الإسلام في تنظيم المجال الاقتصادي وخطواته على النحو التالي :

أولًا : بيَّنَ مكانةَ المال من الإنسان وعلاقته به.

ثانيًا : حدد مصادر الكسب الحلال.

ثالثًا : نهى عن المصادر المحرمة.

رابعًا : حدد مصارف المال، بأن تكون مشروعة وغير محرمة.

خامسًا : حفظ المال من التبذير والضياع، فنهى عن الإسراف والتقتير، فدعا إلى الاعتدال في الإنفاق.

سادسًا : أداء حق الزكاة من المال إذا بلغ نصابًا.

وبهذا المنهج الواضح والطريق البين يتحقق التوازن المطلوب، والغاية التي يهدف إليها تشريع النظام، وهذا المنهج الذي وضع لإقامة نظام مالي سليم روعي فيه حق الفرد والمجتمع، ولم يقع في أخطاء النظام الرأسمالي، أو النظام الشيوعي فقط ظلم كل منهما جانبًا لحساب جانبًا آخر متجاهلًا الفطرة الإنسانية، وغريزة حب التملك : ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر: ٢٠].

ومثال آخر: منهج الرسول ﷺ في بناء الدولة، وذلك بعد هجرته إلى يثرب، وتحقق شروط إقامة الدولة من وجود الوطن والسيادة عليه، والمواطنين، وهم المسلمون من المهاجرين والأنصار وحاكم، وهو النبي ﷺ ودستور حكم وهو القرآن، وما أنزل الله على رسوله ﷺ فخطوات البناء -منهج البناء- هي :

أولًا : بناء المسجد، وفيه إشارة إلى جمع الناس على دين الله.

ثانيًا : إعداد الجيش بعد تشريع القتال.

ثالثًا: المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ربط أواصر المجتمع.

رابعًا: المعاهدات مع اليهود، تحديد العلاقة مع غير المسلمين من المقيمين في نفس الوطن، وعلى نفس الأرض.

خامسًا: تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وهو تحديد جهة العبادة وتوحيدها.

وكل تشريعات الإسلام تخضع للقياس على الأمثلة السابقة، فنظام الجهاد يعني: المنهج الذي يجب اتباعه في النظام العسكري، ونظام الحكم يعني: المنهج الذي يجب اتباعه في تولية الحاكم أو عزله، وما له من حقوق، وما عليه من واجبات، وما يراعى في بيعته، وكل مناهج الإسلام يقوم عليها المجتمع الإسلامي، ولها غاية عامة هي تحقيق السعادة للبشر في الدنيا والآخرة، ولأن الله تعالى هو خالق الخلق ويعلم حاجاتهم، وما يصلح أمرهم ويحقق الأمن والأمان لهم؛ لذا فقد وضع ما يحقق المصلحة والمنفعة لهم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤] أي: لا يعلم ما يصلحهم إلا هو.

معنى المنهج في القرآن الكريم

معنى المنهج في القرآن الكريم:

لم يرد لفظ المنهج بهذه الصورة في القرآن الكريم، وإنما ورد بلفظ منهاج، وهما بمعنى واحد في استعمالات اللغة، ولكن هل إطلاق هذا اللفظ في القرآن بنفس معناه في اللغة؟ والجواب هنا يكون بالإيجاب، فالمعنى يكاد يكون واحدًا، ولا خلاف بين إطلاقه في اللغة وبين استعمالات المفسرين له، وقد ورد لفظ منهاج في

قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وللمفسرين أقوال طيبة في تفسيرهم لمعنى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ نسوق بعضها للوقوف على تحديد معنى اللفظ في القرآن الكريم، فيرى البعض أن المراد بقوله شرعة ومنهاجًا، أي: شريعة يعملون بها، وطريقًا بينًا يسلكونه، ففُسر هنا المنهاج بالطريق البين، وفي (تفسير المنار): المنهج هو الطريق البين الواضح.

وعن قتادة: ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ أي: سبيلًا وسنة، ويرى البعض: أنها سنة وسبيلًا، وظاهر كلام قتادة أن الشريعة أخص من الدين، إن لم تكن مباينة له وأنها الأحكام العملية التي تختلف باختلاف الرسل وينسخ لاحقها سابقها، وأن الدين هو الأصول الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأنبياء.

وفي (تفسير الكشاف) منهاجًا أي: طريقًا واضحًا في الدين تجرون عليه، وقال الرازي: "لفظ الشرعة في اشتقاقه وجهان" الأول: معنى شرع أي بيَّنَ ووضَّحَ، قال ابن السكيت: "لفظ الشرع مصدر شرعْتَ الإيهابَ إذا شققته وسلخته، والثاني: ما حُدد من الشرع في الشيء وهو الدخول فيه، وقيل هي الأشياء التي أوجب الله على المكلَّفِينَ أن يشرعوا فيها، وأما المنهاج: فهو الطريق الواضح فيُقال: نهجت لك الطريق وأنهجت لغتان، وقيل: إن الشرعة والمنهاج عبارتان عن معنًى واحد، والتكرير للتأكيد، والمراد بهما الدين.

وقيل: بينهما فرق؛ فالشرعة عبارة عن مطلق الشريعة، والطريقة عبارة مكارم الشريعة، وهي المراد بالمنهاج، فالشريعة أول والطريقة آخر.

وقال المبرد: "الشريعة ابتداء الطريقة" والطريق المنهاج المستمر، فمن خلال هذه الأقوال اتضح لنا أن لفظ المنهاج أو المنهج يُستعمل بمعنى الطريق محدد المعالم من الأوامر والنواهي، والقواعد والضوابط التي بينتها الشريعة وأوضحت معالمها، فهو الطريق البين والخطة الموضوعة لتنظيم علاقات البشر في كل زمانٍ ومكانٍ، وهذا منهج الله ليتبعه عباده ليصلحوا في الدنيا والآخرة.

وهذا المنهج القويم يسعُ جميع حياة جميع الناس، وعلم الله تعالى حين رضيه لهم أنه يحقق الخير لهم إلى يوم الدين، ولا مجال لتعديله، أو الخروج عنه، وهذا المنهج هو الطريق الذي يجب اتباعه والسير عليه، وما عداه طرق شيطانية، ولعل هذا هو المقصود بقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أي: أن هذا القرآن صراطي ومنهجي الذي أسلكه إلى مرضاة ربي وسبيل سعادة الدنيا والآخرة حال كونه مستقيمًا، لا يضل سالكه، ولا يهتدي تاركه، فاتبعوه وحده ولا تتبعوا السبل الأخرى التي تخالفه، وعن عبد الله بن مسعود قال: ((خطا رسول الله ﷺ خطًّا بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيمًا، ثم خط خطوطًا عن يمين ذلك الخط وشماله، ثم قال: وهذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾))، وهذا يعني الدين كله الذي أمرنا باتباعه ملتزمين قواعده وضوابطه كما بينها القرآن والسنة، التزامًا بمنهج النبوة والسلف الصالح.

تابع: بيان معنى المنهج، واستعمالاته في القرآن والسنة

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول : المنهاج الرباني وخصائصه ٢٧
العنـــصر الثــــاني : معنى المنهج في السنة النبوية ٣٩

المنهاج الرباني وخصائصه

المنهاج الرباني هو المنهاج الذي أنزله الله ﷻ على رسوله محمد ﷺ ليبلغه للناس أجمعين، ولنبينه لهم، ولتختتم به الرسالات السماوية، وهو من عند الله وحده، وهو إما وحي يتنزل على رسول الله ﷺ بالمعنى والنص، أو إلهام من الله ﷻ لرسوله ونبيه بالمعنى، ويصوغ الرسول ﷺ هذا المعنى بأسلوبه النبوي، وبذلك يكون المنهاج الرباني هو القرآن الكريم وما صح من حديث الرسول ﷺ.

وهذا المنهاج على هذه الصفة يتميز عن كل ما يمكن أن يضعه البشر من مناهج وضعية بصفات تبرز علوه وربانيته، ونورد هنا أهم هذه الخصائص والصفات حتى يظل يتميز المنهاج الرباني قرآنًا وسنة، أمرًا بارزًا في حياة المؤمن واضحٌ في تصوره سمة من سمات إيمانه، كان عاملًا من سائر العوامل في تحديد الممارسة الإيمانية، وتوجيه الطاقة في شتى الميادين.

الدعوة ونهجها التربية وأسسها العظمى وروابطها:

نود من الدارس أن يقف عند كل آية نقتبسها من كتاب الله ليتدبرها، ويرى الظلال المتجددة مع كل آية، ولِيَرَى أهمية تدبر كتابَ الله؛ حيث تتكامل الصورة هناك، وتتناسق في إعجاز كامل، لم نورد هنا الآيات المتتالية لمجرد التكرار فمع كل آية ظل جديد، وعسى ألا تغيب هذه الظلال عن الدارس إذا توقف عندها وتفكر وتدبر:

أولًا: إنه الحق المطلق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه الحق المطلق لأنه من عند الله وليس من عند أحد من البشر، فما يصدر عن البشر مهما

عظم ونبغ؛ فإنه معرض للخطر والاضطراب؛ ولذلك نجد أن الله ﷻ ربط في كتابه بين نزول الكتاب من عنده وبين كونه الحق.

فقال ﷻ: ﴿ الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ١ ﴾ [الرعد: ١]، وقال ﷻ: ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩]، وقال ﷻ: ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، وقال ﷻ: ﴿ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [آل عمران: ٣، ٤].

وفي هذه الآية من سورة "آل عمران" نرى امتداد الحق عبر الأجيال، ونرى اتصاله الدائم حتى خُتم بالفرقان مصدقًا لما بين يديه، قال ﷻ: ﴿ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾ [آل عمران ٦٠] وقال سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ [النساء: ١٧٠].

فمع كل آية ظلال جديدة تعرض الحق الذي أنزل من عند الله عرضًا يقرع النفس من كل جوانبها، حتى تؤمن وتخبت: ﴿ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ ﴾ وحتى تنفي الريبة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٧].

وهذا الحق الذي أنزل من السماء مصدقًا لما بين يديه كان كذلك مهيمنًا عليه قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [المائدة: ٤٨].

فهو الحق من عند الله متصل وممتد عبر الأجيال، خُتم بالفرقان مصدقًا لما بين يديه، ومهيمنًا عليه، فجمع الحق ليحكم بين الناس، ولا يصد عن ذلك إلا الهوى، فكتاب الله إذًا يمحص القلوب، ويفتح ميادين السباق إلى العمل الصالح إلى الخيرات حتى يرجع الناس كلهم إلى الله يوم القيامة يوم الحساب؛ فينبئهم بما عملوا، وبما اختلفوا فيه، ويكون كتاب الله حجة على الناس، قال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

وهكذا تتوالى الظلال لتعرض هذا الحق الذي أنزل من السماء عرضًا متكاملًا متناسقًا مترابطًا، يعرض امتداده واتصاله، ويعرض ختامه بالقرآن الكريم، ويعرض مهمته ودوره ليصدق ما بين يديه، وليهمن عليه وليحكم بين الناس، قال سبحانه: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦] فلينكر المنكرون، وليبدر الظالمون، وليأبَ الكافرون؛ فإن ذلك كله لا يغير من الحق شيئًا.

ويظل كتاب الله، ويظل منهاج الله قرآنًا وسنة هو الحق؛ لأن الله يشهد بذلك، ولأن الله أنزله بعلمه والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدًا، فذلك برهان فوق كل برهان، وحجة أصدق من كل حجة، إنه الحق من عند الله والحمد لله رب العالمين، وتتوالى الآيات في كتاب الله تمد الظلال، وتعرض الجوانب حتى لا تدع جانبًا إلا ذكرته، ولا صورة إلا عرضتها.

ونتابع هنا بعض القبسات من كتاب الله، لتطمئن النفوس، وتخشع القلوب قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس: ١٠٨، ١٠٩].

ولا يستطيع مخلوق أن يجمع الحق أبدًا، إن خصائص الإنسان تتعارض مع ذلك، إنه ضعيف إنه يُخلق وهو لا يعلم شيئًا ثم ينمو علمه مع نموه وجهده، إنه يتعلم، ولكن علمه محدود وقليل جدًّا مهما امتدت القرون والأجيال، ومهما امتدت الجهود والبحوث، فلا يستطيع أن يأتي بالحق إلا الذي يعلم كل شيء ويخلق كل شيء، إنه علام الغيوب بيده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو لا إله إلا هو الرحمن الرحيم، قال ﷻ: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] إنه الحق المطلق الكامل من عند الله لا من عند البشر، إنه مبرأ من أي باطل، لا يأتيه الباطل أبدًا ولا يدخل فيه أبدًا.

ثانيًا: إنه تام كامل ومفصل بين محكم متناسق؛ ذلك لأنه خاتم الرسالات السماوية، مصدق لما بين يديه ومهيمن عليه، فجاء رحمة من عند الله بتكامله وتناسقه، قال الله ﷻ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣].

وقال ﷻ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨].

ويرى بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ أن الكتاب هو أم الكتاب، وقيل: هو علم الله، وقيل هو القرآن، وتكامل منهاج الله يقتضي تفصيله وبيانه؛ فجاء مفصلًا بينًا قال تعالى: ﴿ الر ۚ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن

لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١] وقال ﷻ: ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فصلت ١: ٣] وقال سبحانه: ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٦] وقال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٥].

وتتكرر كلمة التفصيل في سورة "الأنعام"، وفي سور أخرى، ومع كل تكرار جانب جديد وإيحاء عميق حتى إذا اجتمعت الآيات تكاملت الصورة ووضح التفصيل بقوة وبيان، وفي سورة "الأعراف" يتكرر العرض مع ظلاله الجديدة، توضح الغاية، وتبين الرحمة قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٢].

فلم يكن التفصيل عبثًا، وإنما كان فيه حكمة ربانية ورحمة إلهية، فهو من لدن حكيم فأحكمت آياته، ومن لدن خبير ففصلت آياته، وهو لقوم يعقلون أو يفقهون أو يعلمون فصلت آياته لعلهم يذكرون، ولتستبين سبيل المجرمين، وليكون بتفصيله هدى ورحمة للمؤمنين، وكذلك فُصلت آياته لعل الكافرين يرجعون إلى الحق بعد أن قامت عليهم الحجة بتفصيل الآيات.

وعلى هذا النحو من التناسق والتكامل تتوالى الآيات لتعرض الصورة الكاملة لبيان المنهاج الرباني، فهو كتاب مبين، وهو آيات بينات يبينها الله ﷻ رحمة منه لقوم يعقلون، ولعلهم يعقلون أو يتفكرون أو يهتدون، قال ﷻ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقال ﷻ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [البقرة: ٩٩]، وقال ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴾ [الحج: ١٦]، وفي سورة "العنكبوت" يقول سبحانه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨، ٤٩] كما يقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [النور: ٣٤].

وقال -جل شأنه-: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] وقال ﷻ: ﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ [يوسف: ١] وهذه لمحات وقبسات تهدف إلى عرض الصورة حتى نرى كيف أنها تتكامل مع توالي الآيات ومع كل آية ظل جديد ولفتة جديدة وجانب جديد.

ثالثًا: وهو هدى ونور، وشفاء ورحمة، وموعظة وبشرى وتذكرة، ولقد رأينا من ذلك قبسات في الآيات السابقة، ونورد هنا آيات أخرى حتى تزداد الصورة وضوحًا واليقين قوة، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] وقال ﷻ: ﴿ طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ١، ٢] وقال: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾ [لقمان: ٢، ٣].

وقال -جل شأنه-: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠] وهو نور من عند الله كما قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤]، كما قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ

﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال ﷻ: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨]

وهو شفاء ورحمة قال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وتجمع سورة "فصلت" كثيرًا من هذه الخصائص لمنهاج الله جمعًا ربانيًّا معجزًا، جمعًا يقرع القلوب قرعًا قال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ۝٤٣ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝٤٤﴾ [فصلت: ٤١- ٤٤].

إن هذه الآيات الكريمة على يسرها وبيانها وإعجازها جمعت خصائص المنهاج الرباني جمعًا ميسرًا للذكرى، لا يدع مجالًا لبشر ليضيف فيه شرحًا لكنها الرغبة الملحة في النفس تدفع إلى أن نوجز لكلمات تربط بين ما عرضنا في الصفحات السابقة، وتؤكد وتكرر؛ فإن هذا الموضوع تميز المنهاج الرباني يحتاج في واقعنا اليوم إلى إبراز وتكرار وإعادة، إنه كتاب عزيز، إنه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه تنزيل من عند الله وحده، من عند الله الحكيم الحميد، أنزله كتابًا أحكمت آياته، فله الحمد على نعمته وفضله، وهو ممتد في أعماق تاريخ الإنسان منذ أول رسالة، وهو قرآن عربي فصلت آياته فكان هدى وشفاء

للمؤمنين، نعمٌ تتوالى من الله الحكيم الحميد على عباده، ورحمته تحفهم وتظلهم بالمغفرة.

رابعًا: وهو معجز كل الإعجاز تعهد الله بحفظه، فلا عجب إذًا مع هذه الخصائص أن يكون معجزًا، لا يقوى أحدٌ من البشر أحدًا مهما أنعم الله عليه من نبوغٍ وبيانٍ أن يبلغه، أو أن يأتي بمثله، إنه من عند الله؛ ولذلك كان معجزًا.

وقد تحدى الله ﷻ الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو أن يأتوا بعشر سور مفتريات، أو بسورة، فقال سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، وقال ﷻ: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣] كما يقول سبحانه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

وهذا الإعجاز وهذا التحدي ما زال قائمًا حتى اليوم، وسيظل قائمًا حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ولقد حاول الكذابون كمسيلمة الكذاب وغيره فخابوا وهبطوا في هوة الخزي والفشل، وهذا الإعجاز لا يقتصر على ناحية في القرآن الكريم دون الأخرى، فهو معجز كله ولم تحدد الآيات الكريمة السابقة وجهًا معينًا للإعجاز، ولم تحصره بزمن محدد، إنه معجز في لغته وبيانه، معجز في شرعه وإحكامه، معجز في أسلوبه وآياته، معجز في علم الغيب الذي أتى به، ومصائر الأمم التي عرضها، وعرض الخلق الذي أبانه، وسيظل إعجازه هذا كله يتجدد مع الأيام كلما تجددت آيات الله في الكون أمام الإنسان، حتى يُعلم أنه الحق.

قال الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] ومع هذا الإعجاز وهذا التحدي تعهد الله بحفظه، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] لقد تعهد الله بحفظه حتى يستمر الإعجاز والتحدي، وحتى يظل يمد الإنسان بالنور والهدى والشفاء والرحمة والذكرى والموعظة والحق المفصل المبين الحق المتكامل المتناسق على مر العصور وتعاقب الأجيال.

خامسًا: وهو للناس كافة أنزله على نبيه ورسوله؛ ليبلغه ويبينه كافةً للناس، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧] وقال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل: ٤٣، ٤٤].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤] وقال سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [المائدة: ٩٢].

ويتكرر هذا المعنى بإلحاح شديد في سور عدة كـ: "آل عمران"، و"المائدة"، و"الرعد"، و"إبراهيم"، و"النحل"، و"النور"، و"العنكبوت"، و"يس"، و"الشورى"، و"التغابن"، إن شدة الإلحاح وقوة التكرار لم تكن دون حكمة ربانية، ولعلنا ندرك من ذلك أهمية الرسالة، وتحديد مسئولية الرسل في نطاق طاقاتهم البشرية المتميزة التي من الله عليهم بها، فلقد كانت مهمة كل رسول محصورة في قومه.

أما محمد ﷺ فقد كانت رسالته للناس جميعًا، قال ﷻ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨] وقال سبحانه: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وعن أبي هريرة > عن النبي ﷺ أنه قال: ((فُضِّلْتُ على الأنبياء بست؛ أُعْطِيتُ جوامعَ الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلى الخلق كافة، وخُتم بي النبيون))، وسيمضي منهاج الله يحمله المؤمنون دعاة وعلماء، جنودًا أبرارًا، وشهداء صادقين، جيلًا بعد جيل حتى تتحقق كلمات الله ويأتي الوعد الحق.

ومن هذه الخصائص المميزة نجد أن المنهاج الرباني هو لكل زمان ومكان ولكل جيل وإنسان، ولكل عصر ولكل أمة، هو للخلق كافة، كيف لا وهو منزل من رب العالمين على محمد ﷺ خاتم النبيين، فلا نبي ولا رسول بعده، وهو الحق المطلق المتكامل المتناسق، وهو الهدى والنور والرحمة والشفاء والذكرى والموعظة، إنه للإنسان كله والعصور كلها، إنه حاجة الإنسان الملحة كحاجته إلى الهواء والماء وإلى الكساء والغذاء، إنه الإيمان، إنه الحياة، قال ﷻ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

سادسًا: وهو ميسر للذكر، ومع هذا الإعجاز جاء المنهاج الرباني ميسرًا للذكر سهلًا لينًا على القلوب المؤمنة، بينًا واضحًا، ولقد تكرر هذا المعنى في سورة "القمر" أربع مرات حتى تطمئن النفوس المؤمنة إلى سهولته ويسره، وحتى تتضح

المهمة ويستبين السبيل وتنقطع حجة الكافرين، قال ﷻ: ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ [القمر: ١٧].

فهو ميسر للذكر، ميسر كله، ميسر للناس جميعًا لمن أراد أن يقبل بإيمانه ذاكرا تاليًا متدبرًا، فقد سهل الله لفظه ومعناه لمن أراده، وهون قراءته وتلاوته. وقال الضحاك عن ابن عباس } : "لولا أن الله يسره على لسان الآدميين، ما استطاع أحدٌ من الخلق أن يتكلم بكلام الله ﷻ: ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ إنه استفهام بمعنى الأمر، إنه أمر من الله، وليس من عند أحد من البشر، إنه أمر الله إلى عباده بأن ينهضوا فيذكروه، ويحفظوه، ويتلوه ويتدبروه، ثم يمضوا فيعملوا به.

قال ﷻ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ [مريم: ٩٧] وقال ﷻ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان: ٥٨] فهو إذًا بهذا اليُسْر بشرى للمتقين، ونذيرًا للكافرين، وهو مغفرة للعالمين، ولم يقتصر اليسر على اللسان فحسب وإنما كان كذلك في التكاليف كلها حين جاءت في حدود سعة الإنسان وطاقته، يريد الله بها اليسر لعباده، ولا يريد لهم العسر، قال ﷻ: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وامتد اليسر إلى الدين كله في لغته وبيانه في تكاليفه في شرعه وأحكامه، حين رفع الله عن عباده الحرج في الدين قال الله ﷻ: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

ويزيد هذا اليسر وضوحًا وقوة في نفوس المؤمنين حين نضيف إلى ذلك ما سبق أن عرضناه من أنه مفصل محكم بين، إنه كتاب مبين، وإنه آيات بينات، وحين نؤكد هذه الحقائق مع أدلتها هذه فإنما نفترض معرفة اللغة العربية معرفة سليمة، فهي لغة القرآن وهي لغة الإسلام وهي لغة أهل الجنة، وقد يجد البعض مشقة أو عسرًا في التلاوة أو التدبر أو الحفظ أو الممارسة، فإن مصدر ذلك أنفسهم هم، لا منهاج الله، إنه الجهل فليرفعوا عن أنفسهم الجهل، وليدرسوا اللغة وليبذلوا الجهد الذي جعله الله في إطار وسعهم، أو إنه الهوى والاسترخاء أو الوهن وضعف الإيمان.

فمنهاج الله ميسرٌ لينٌ على قلوب المؤمنين يزيدهم بشرى وإيمانًا، وأما الكافرون فهو عليهم عمى يزيدهم رجسًا إلى رجسهم، قال ﷻ: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

ولقد مرت الآيات في سورة "فصلت" نقتبس منها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

ونود أن نؤكد أن القرآن الكريم والمنهاج الرباني كله قرآنًا وسنة جاء كله ميسر للذكر، ميسرًا للتدبر، ميسرًا للممارسة إن اليسر فيه كله وليس في جزء منه ذلك لأن الله ﷻ أنزله للناس كافة، ولا يتعارض هذا مع تفاوت المواهب والقدرات، وتفاوت ما يأخذه هذا أو ذاك، فكل إنسان مكلف شرعًا محاسب يوم القيامة، فهو قادر بما وهبه الله على أن يأخذ من منهاج الله تعالى قدرَ وسعه وطاقته، ومسئوليته وأمانته، ومع هذا اليسر؛ فإن في العمل كله ابتلاءً وتمحيصًا.

معنى المنهج في السنة النبوية

معنى المنهج في السنة النبوية:

في بعض أحاديث رسول الله ﷺ ورد ذكر منهج والمراد الطريق الذي اتبعه النبي ﷺ في التزام الدين وتطبيق ما شرع الله في سائر مجالات الحياة ونظمها، وهذا المعنى مماثل للمعاني السابقة.

ومن شواهد السنة لهذا المعنى على سبيل المثال روى الإمام أحمد في (مسنده) عن النعمان بن بشير قال: كنا قعودًا في المسجد مع رسول الله ﷺ وكان بشير رجلًا يكف حديثه، فجاء أبو ثعلبة الخشني فقال: يا بشير بن سعد، أتحفظ حديث رسول لله ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفة أنا أحفظ خطبته فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفة، قال رسول الله ﷺ: ((تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم يكون ملكًا عاضًّا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًّا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة)).

وقد نقل ابن حجر -رحمه الله- عن ابن عباس قوله: والمنهاج، أي: السبيل، أي الطريق الواضح، والشريعة بمعنى، وقد شرع أي: سن؛ فإن قيل هذا يدل على الاختلاف، والذي قبله على الاتحاد أجيب بأن ذلك -أي: الاتحاد- في أصول الدين، وليس بين الأنبياء فيه اختلاف، وهذا -أي: الاختلاف- في الفروع، وهذا الذي يدخله النسخ.

فالشاهد هنا تكون خلافة على منهج النبوة، فالمراد الخلافة الراشدة؛ حيث التزم الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم طريقة النبي ﷺ في الحكم والتزام طريقه الواضح البين في كل مجالات الحياة. وقد روى ابن ماجه عن العرباض بن سارية أنه قال: ((وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب فقلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودع فماذا تعهد إلينا؟ قال: تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا؛ فعليكم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن عبدًا حبشيًّا، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما قِيدَ انقاد))، أي: وإن كان عبدًا حبشيًّا.

ومعنى البيضاء، أي: على الملة البيضاء، والحجة الواضحة التي لا تقبل الشبه أصلًا، وهي المنهج الذي وضعه الله تعالى، وأبلغنا إياه رسول الله ﷺ لاتباعه، والتزام خطواته لنحظى بالسعادة والرشد في الدنيا والآخرة.

والسنة المطهرة جزءٌ من منهاج الله لا ينفصل عنه؛ ذلك لأن السنة المطهرة هي حديث رسول الله ﷺ أو عمله مبلغ الأمة، والناس من أمور دين الله ﷻ مما يبين ويوضح القرآن الكريم أو يفصل مجمله، أو يبين أحكامًا لم ترد في نص الكتاب، كرجم الزاني المحصن، وحد شارب الخمر، وتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها.

أما من حيث التفصيل والتبيين فهي تبين عدد الصلوات المفروضة، وأوقاتها وشروطها وأركانها، وتبين تفصيل أحكام الزكاة، ومقدارها في مختلف الأموال والعروض، كما تفصل أحكام الصيام، وأحكام الحج، وتفصل كذلك المعاملات، والزروع، والوقف، والإرث، وتبين أحكام السياسة، وقواعد الحكم وسائر أوجه الحياة، وميادين العمل، مما أجمله القرآن وأرسى قواعده.

كما تفصل بعضًا من نبأ الغيب وقصص الغابرين، فالكتاب والسنة واللغة العربية تكون كلها المنهج الرباني في تكامله، وترابطه، وتناسقه.

المنهج الاستنباطي

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول :	مفهوم الاستنباط	٤٣
العنـــصر الثـــاني :	نشأة النوازل الفقهية	٤٧
العنـــصر الثالـــث :	الضوابط الشرعية التي يسلكها المستنبط أثناء الحكم	٥٠
العنـــصر الرابـــع :	تطبيقات المنهج الاستنباطي من القرآن والسنة	٥٣

مفهـــــوم الاســــــتنباط

الاستنباط لغة:

الاستخراج، يُقال: نبط الماء نبع، وبابه دخل، وجلس، والنبط الماء الذي ينبط من قعر البئر إذا حفرت، وقد نبط ماؤها ينبط، وينبط نبطًا، ونبوطًا، وأنبطنا الماء، أي: استنبطناه وانتهينا إليه.

وقال ابن منظور: "واستنبطه، واستنبط منه علمًا وخبرًا ومالًا، استخرجه، والاستنباط الاستخراج، واستنبط الفقيه إذا استخرج الفقهَ الباطن باجتهادِهِ وفهمه".

وقال ابن سريج: "وقد علم الجميع بأن النصوص لم تحط بجميع الحوادث، فعرفنا أن الله قد أبان حكمها بغير طريق النص، وهو القياس ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء: ٨٣] لأن الاستنباط هو الاستخراج وهو بالقياس".

ويقول الشوكاني: "ويُجاب عنه بأن الاستنباط هو استخراج الدليل على المدلول، بالنظر فيما يفيده من العموم، أو الخصوص، أو الإطلاق، أو التقييد، أو الإجمال، أو التبيين في نفس النص، أو نحو ذلك مما يكون طريقًا إلى استخراج الدليل منه" ثم قال: "ولو سلمنا باندراج القياس تحت مسمى الاستنباط؛ لكان ذلك مخصوصًا بالقياس المنصوص على علته، وقياس الفحوى ونحوه، لا بما كان ملحقًا بمسلك من مسالك العلة التي هي محض رأي لم يدل عليها دليل من الشرع، فإن ذلك ليس من الاستنباط من الشرع بما أذن الله به، بل من الاستنباط بما لم يأذن الله به".

ويقول الآمدي في الرد أيضًا على من قصر الاستنباط في الآية السابقة عن القياس ؛ لأنه يمكن أن يُراد بالاستنباط استخراج الحكم من دليله وهو أعم من القياس : "ولهذا يصح أن يُقال لمستخرج الحكم من دلالة النص : إنه مستنبط ، ومعنى الاستنباط الاستخراج ، يُقال استنبط الماء من باطن الأرض بمعنى استخرجه ، وهو يحتاج إلى بذل الجهد كما هو ظاهر ، حتى يمكن الوصول إلى النتيجة المطلوبة" ومن هنا كان الاستنباط بمعناه الشرعي بذل الجهد الفكري لاستخراج الحكم الشرعي لمسألة من المسائل الفرعية التي يُراد معرفة حكم الله فيها ، واستخراج هذا الحكم إنما يكون من الأدلة الشرعية ، فالمجتهد يبحث بفكره وعقله في الدليل الشرعي الكتاب أو السنة ، حتى يصل إلى الحكم المراد معرفته بخصوص الواقعة الجزئية المعروضة ، وفي قواعد الفقه الاستنباط لغة استخراج الماء من العين.

الاستنباط اصطلاحًا :

قال الجرجاني في (التعريفات) : اصطلاحًا : "استخراج المعاني من النصوص بفرط الذهن وقوة القريحة ، والاستنباط من قدرات العقل الإنساني التي وهبها الله الإنسان حيث يستطيع الإنسان إذا ما أعمل فكره في الظاهرة سواء كانت إنسانية أم طبيعية أن يستنتج العوامل المتسببة فيها ، وكذلك إذا أعمل فِكْرَهُ في كتاب الله ، أو سنة رسوله أن يستنبط الحكم الشرعي ، ويعتبر الاستنباط المنهج الرئيسي في استخراج الحكم الشرعي من النصوص".

وقد سعى العلماء المسلمين منذ عهد مبكر في وضع ضوابط له فنشأ علم أصول الفقه الذي يهدف إلى ضبط وتوجيه الفهم لإدراك حكم الله من النص ، ولم يقتصر الاستنباط على ميدان الفقه ، بل أنه جزء من كل علم شرعي ، ولكنه

تجلى أكثر في ميدان الفقه، وذلك للحاجة الكبيرة للفقهاء في ضبط الاستنباط، فقاموا بتقعيده، وتنظيم مسائله، وجمعه تحت مظلة واحدة هي أصول الفقه، ومن ثم انتفع طلبة العلم في كافة التخصصات من هذا العلم.

ومن ضمن العلوم التي استفادت العلوم الإنسانية إذا استخدم طائفة من الباحثين منهج الاستنباط في استخراج سنن الله ﷻ في السلوك الإنساني سواء من استقراء أحول الناس، أو من استقراء النصوص الشرعية.

وينقسم المنهج الاستنباطي إلى نوعين:

الأول: منهج استنباط الأحكام التربوية من النصوص الشرعية، وهو منهج الفقه التربوي.

الثاني: منهج استنباط سنن الله في الظاهرة الإنسانية من القرآن الكريم والسنة المطهرة.

أولًا: منهج استنباط الأحكام التربوية من النصوص الشرعية:

بعث الله نبيه محمد ﷺ معلمًا ومربيًا، وهاديًا يخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل معه القرآن كلامَ الله؛ ليقرأه على الناس، ويربيهم على ما فيه من قيم وآداب محمودة، وهذا الكتاب جعله الله للناس نورًا يستضيئون به على مر الأجيال، وينبوعًا لا ينفذ للمتأملين فيه، والمستخرجين لأحكامه، فلا يستغني عنه مربٍّ مسلم، كلما أراد أن يفهم ظاهرةً إنسانية تدبر في آياته، فسيجد فيها من الإشارات والإيماءات ما يمكنه من فهم، واستنباط سنة الله في تلك الظاهرة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ

ٱلْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

ومن ثم سعى العلماء المسلمون إلى استخراج سنن الله -تبارك الله وتعالى- في الظاهرة الإنسانية سواء من صلاح أو فساد من رشد أو غي من فقر، أو غنى من رجاء، أو شدة من نصر، أو هزيمة، ونحو ذلك من أحوال الناس والقرآن قد تضمن الأحكام التربوية كافة من أهداف، ومبادئ وتوجيهات، وأسس، وقواعد، ولا يمكن الكشف عنها إلا باستخدام المنهج الاستنباطي، فأصبح هذا المنهجُ من أهم مناهجِ البحثِ في التربية الإسلامية.

فالدراسات التي تبحث في القرآن لاستخراج المبادئ التربوية، أو القواعد والأساليب التربوية تعتمد على المنهج الاستنباطي، ويستعين المنهج الاستنباطي معظم عناصره من مناهج البحث في العلوم الشرعية، فهو يستعير جزءًا كبيرًا من منهج الفقهاء أصول الفقه، ومن منهج المحدثين، ومن منهج المفسرين، ومن منهج اللغويين، ثم تمتزج تلك المناهج لينضم إليها طرفًا من مناهج التربية وعلم الاجتماع، وعلم النفس لينتج لنا منهج البحث الاستنباطي التربوي، ويمكن أن يُطلق عليه منهج الفقه التربوي؛ لأن أكثر مناهج البحث تأثير في منهج الاستنباط الفقهي أصول الفقه، كما أن مفهوم الاستنباط والفقه واحد، إن كان الاستخراج حكم تربوي من نص شرعي، أما إن كان الاستخراج آراء لشخصية تربوية أو لبحث ظاهرة إنسانية ونحو ذلك فالأنسب تسميته بالمنهج الاستنباطي.

ثانيًا: منهج الاستنباط سنن الظواهر الإنسانية من القرآن والسنة:

أنزل الله القرآن نورًا لهداية الإنسان؛ فضمنه من التوجيهات والإرشادات، والأخبار ما ينفع الإنسان فهو كتاب هداية، وتفصيل لكل شيء، وقد كشف الله

لنا فيه حقيقة الإنسان وغرائزه، وما يحيط بالإنسان من بيئة، وكائنات أخرى فبين للإنسان كل ما يحتاج إليه، وليس للإنسان إلا الكشف عن هذه التوجيهات وعن تلك السنن لينتفع بها.

والاستنباط يكون أيضًا في النوازل، فالنازلة على وجه العموم هي الحادثة التي تحتاج إلى حكم شرعي، فالنوازل الفقهية هي تلك الحوادث، والوقائع اليومية التي تنزل بالناس؛ فيتجهون إلى الفقهاء للبحث عن الحلول الشرعية لها، ومن ذلك قول ابن عبد البر: باب اجتهاد الرأي على الأصول عند عدم النصوص في حين نزولِ النازلةِ.

وقول النووي: وفيه اجتهاد الأئمة في النوازل وردها إلى الأصول، وقال ابن القيم: فصل: "وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتهدون في النوازل، والنوازل بهذا المعنى... نادرة الحدوث، وسواء كانت قديمة أم مستجدة، فهي بهذا المعنى ترادف مصطلح الفتاوى إلى أن الذي يتبادر إلى الذهن في مصطلح الناس له انصرافه إلى واقعة، أو حادثة مستجدة لم تُعرف في السابق بالشكل الذي حدثت فيه الآن، وإطلاق الناس له على المسألة الواقعة الجديدة التي تتطلب اجتهادًا".

نشأة النوازل الفقهية

نشأة النوازل الفقهية:

لقد جاءت الشريعة لتنظيم حياة الإنسان المسلم تنظيمًا محكمًا، وتسايره في أطوار حياته منذ ولادته إلى أن تسلمه إلى الحياة الآخرة، ولشدة حرص المسلمين على القيام بشعائرهم الدينية، والعمل طبق تعاليم هذا الدين كانوا لا يفتئون يسألون الرسول ﷺ عن شئون دينهم ودنياهم، ولمدة ثلاث وعشرين سنة ظل القرآن ينزل حسب الوقائع والنوازل والأحداث رابطًا حياتهم بربهم.

ومن خصائص الشريعة الإسلامية: أنها واقعية تجيبُ أسئلةَ السائلين، وترد المبطلين، وتعلم السالكين فوردت كلمة "يسألونك" في كتاب الله خمس عشرة مرة في السور المكية والمدنية.

وتلك الأسئلة تناولت جميع شئون الحياة، وإذا أضفنا إلى ما تقدم ما ورد في كتاب الله في ذلك مما ورد في هذا الشأن من السنة النبوية، فقد كان ﷺ يجيب أصحابه عما لا قرآن فيه، وأحيانًا يبين لهم أن الله قد بين لهم أشياء، وسكت عن أشياء رحمة بهم من غير نسيان إلى غير ذلك من أجوبة الرسول وفتاويه التي حاول بعضهم أن يحصيها ويؤلف فيها، فقد جمع ابن القيم -رحمه الله- جملة من فتاويه ﷺ ضمن كتابه (إعلام الموقعين).

يقول ابن القيم: "وأول من قام بهذا المنصب الشريف سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين عبد الله، ورسوله، وأمينه على وحيه وسفيره بينه وبين عبادِهِ، فكان يفتي عن الله بوحيه المبين؛ فكان الرسول ﷺ يقوم بهذه المهمة، وكانت فتاواه ﷺ حسب التوجيهات الإلهية من الوحي، أو من تفسير الوحي، ثم قام الصحابة الكرام المتخرجون من مدرسة الوحي بأخذ هذا الإرث العظيم الذي ورثوه من المصطفى ﷺ فما خرجوا على نهجه في الفتوى، والنظر الشرعي للوقائع المستجدة، والحوادث الطارئة، وكانوا في ذلك ما بين مكثر ومُقِل".

قال الحجوي: "فمهما نزلت نازلة فزعوا إلى الشورى فلم تصدر الفتوى والحكم إلا عن تبصر وحكمة، ولذلك قلما يبقى الخلاف بخلاف الزمن النبوي الذي كان الخلاف فيه معدومًا، وبخلاف عصر من بعدهم الشورى فيه غالبة، فمجلس أبي بكر وعمر وعثمان، وعلي كان مجلس تشريع وفقه واستنباط ومشاورة، والذين حُفظت عنهم الفتوى من الصحابة الكرام مائة وثلاثون نفسًا، ما بين رجل

وامرأة، والمشهور منهم: الخلفاء الراشدون، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وأبو موسى الأشعري، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأم المؤمنين عائشة < ، وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة، وعبد الله بن عباس، وغيرهم".

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يجتهدون في النوازل ويقيسون بعض الأحكام على بعض، ويعتبرون النظير بنظيره، بل وقد اجتهد الصحابة في كثير من الأحكام، ولم يعنفهم، كما أمرهم يوم الأحزاب أن يصلوا العصر في بني قريظة فاجتهد بعضهم فصلاها في الطريق، وقال: لم يرد منا التأخير وإنما أراد سرعة النهوض، فنظروا إلى المعنى واجتهد آخرون فأخروها حتى وصلوا بني قريظة وصولها ليلًا فنظروا إلى اللفظ وهؤلاء سلفوا أصحاب المعاني والقياس.

فالصحابة } مثَّلُوا الوقائع بنظائرها وشبهوها بأمثالها، وردوا بعضها إلى بعض في أحكامها، وفتحوا للعلماء باب الاجتهاد، ونهجوا لهم طريقه، وبينوا لهم سبيله، ثم صارت الفتوى بعد الصحابة إلى فقهاء التابعين } ثم فقهاء الأمصار المشهورة في صدر الإسلام، ثم إلى أئمة المذاهب، ثم إلى تلاميذهم وهكذا السلف الأولون من هذه الأمة، ودأب الجميع على الأخذ، والاستنباط من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كلٌّ يغرف على قدر غزارة علْمِهِ واتساع مداركه، ثم اتسعت رقعة الإسلام، وامتدت من المحيط الأطلسي غربًا إلى حدود الصين شرقًا، ومن أواسط أوروبا شمالًا إلى المحيط الهندي جنوبًا، وتفرعت المذاهب الفقهية، وكتب البقاء لأربعة منها، وهي المذاهب المشهورة: المذهب الحنفي، والمذهب المالكي، والمذهب الشافعي، والمذهب الحنبلي، وكلها تستقي من مصدر واحد.

ولما كان منصب الاستنباط والإفتاء في دين الله جليل القدر عظيم الخطر؛ لأن المفتي بفتواه يُوَقِّعُ فيها عن ربِّ العالِمِينَ، فهو مؤتمن فيها على شرع الله، ودينه،

ويقوم مقام النبي ﷺ مع أمته؛ لا سيما في الأمور المستجدة والحوادث النازلة؛ لذلك وجب أن يكون المتصدي للفتوى مؤهلًا لاستنباط الأحكام الشرعية لما يجد من أمور، ووجب أن يكون ذا قدرة على النظر والاجتهاد.

الضوابط الشرعية التي يسلكها المستنبط أثناء الحكم

الضوابط الشرعية التي يسلكها المستنبط أثناء الحكم:

أولًا: بذل غاية الوسع في البحث عن الحكم الشرعي للنازلة، فعلى المستنبط استفراغ وسعه في تتبع الأدلة في مظانها حتى يحث بالعجز عن المزيد بتتبع طرق استنباط النوازل.

ثانيًا: مجال الاجتهاد لا يكون إلا بالظنيات، فلا اجتهاد في المسائل القطعية، فما أجمعت عليه الأمة وصار معلومًا من الدين بالضرورة، وثبت قطعًا، فلا مجال للاجتهاد فيه حتى لا يصبح قطعيات الدين محل للتلاعب.

وقد ذهب أغلب المعاصرين إلى تقسيم النصوص إلى قطعية وظنية، وأن النصوص القطعية هي التي لا يختلف الناس في فهمها، ولا يشكون في صحة مصدرها، وأنها صريحة واضحة لا تقبل التأويل، وغالبًا ما يمثل لها بأركان الإسلام كالشهادتين، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، وبالمحرمات اليقينية كالسحر، وقتل النفس، أو ما يتعلق بفضائل الأعمال والأخلاق.

ثالثًا: خبر الآحاد ليس ظنيًّا بإطلاق، على المستنبط ألا يتعامل مع خبر الآحاد على أنه ظني الثبوت دائمًا، بل منه ما هو قطعي الثبوت، فهو كالمتواتر في الثبوت

والاحتجاج، وأيضًا فالخبر الذي تلقاه الأئمة بالقبول تصديقًا له وعملًا بموجبه يفيد العلم عند جماهير الخلف والسلف، وهذا في معنى المتواتر.

رابعًا: المحافظة على مراتب الأحكام، فكما لا يجوز التلاعب بالقطعي من الأحكام، فكذلك لا يجوز تحويل الظني إلى قطعي، أو ادعاء الإجماع في موطن الخلاف، مع أن ثبوت الإجماع محل خلاف.

يقول الإمام أحمد -رحمه الله-: " من ادعى الإجماع فقد كذب، وما يدريه لعل الناس اختلفوا وهو لا يعلم".

خامسًا: مراعاة فقه الواقع، فعلى المستنبط أن يجتهد في كل عصر بما يناسب الواقع الذي يعيشه، كما اجتهد السلف من قبلهم بما يناسب واقع عصرهم حتى إن أصحاب الأئمة وتلاميذهم يخالفونهم؛ لتغيير عصرهم عن عصر أئمتهم، وكذلك تغيير اجتهاداتهم بتغير واقعهم، فالإمام الشافعي تحول من العراق إلى مصر، فكانت له فتاوى في القديم والجديد، وهذا الضابط يؤكد على أهمية مراعاة تغير الواقع المحيط بالنازلة الطارئة، سواء كانت تغيرًا زمانيًّا أو مكانيًّا، كما قال ابن القيم في فصل تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة، والأمكنة، والأحوال، والنيات، والعوائد.

هذا فصل عظيم النفع جدًّا، وقد وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة، وتكليف ما لا سبيل إليه ما يُعْلِمُ أن الشريعة الباهرة التي في أعلى مراتب المصالح لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور ومن الرحمة إلى ضدها، ومن المصلحة إلى المفسدة، ومن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة، وإن أدخلت

فيها بالتأويل، فالمستنبط يجب عليه التعرف على المواطن التي يحتاج فيها إلى إعمال العقل حين تنزيل حكم شرعي معين، ولو كان قطعيًّا في ثبوته ودلالاته؛ فلا يكفي مجرد الفقه ومعرفة حكم الله في تلك الواقعة، ومن أخل بجانب فقه الواقع فقد أضاع على الناس حقوقهم.

سادسًا: مراعاة النيات والمقاصد: ولأهمية هذا الضابط يحذر بن القيم من تركه قائلًا: "إياك أن تهمل قصد المتكلم ونيته وعرفه، فتجني عليه وعلى الشريعة، وتنسب إليها ما هي بريئة منه، فالنازلة يتغير حكمها بتغير قصد ونية المتكلم أو الفاعل ولم يتوقف ذلك على موضع معين وإنما يشمل كل التصرفات والأقوال".

يقول الإمام القرافي: "ينبغي للمفتي ألا يأخذ بظاهر لفظ المستفتي العامي حتى يتبين مقصوده، فإن العامة ربما عبروا بالألفاظ الصريحة من غير مدلول ذلك اللفظ" وقد وضح العلماء الكثير من المجالات التي لا بد للمفتي من ملاحظة قصد ونية المستفتي، فمن ذلك موضوعات اليمين بالطلاق والعتاق والإكراه والخطأ والنسيان، فهذه الموضوعات ينظر فيها إلى قصد المستفتي ويختلف الحكم والفتوى الصادر فيها بحسب نيته ومقصوده.

سابعًا: مراعاة العرف والعوائد: لقد لاحظ الأئمة والفقهاء اعتبار العرف في ابتناء الأحكام والفتوى التي يستند في تنزيلها على الأعراف، والعوائد الحادثة، والتي تختلف باختلاف الزمان والمكان، وعلى أساس ذلك اعتبروا العرف دليلًا شرعيًّا وأصلًا من أصول الاستنباط.

ثامنًا: مراعاة الضرورة: إن الاستجابة لمبدأ الضرورة في الحكم على النوازل استجابة لما تفرضه ضغوط زمنية معينة، وبهذا الاعتبار فقد تختلف الضرورة من

زمان لآخر، والشريعة الإسلامية راعت الضرورة لكونها ما جاءت إلا لتحقيق مصلحة العباد في العاجل والآجل.

تاسعًا: تيسير الحكم على النازلة: فالتيسير مأخوذ من اليسر الذي هو بمعنى السهولة، والتيسير هو التسهيل والتوسعة والتخفيف والبعد عن التعصب والتضييق والإحراج والإعنات الذي هو مضمون كلمة التيسير، والتيسير في الشريعة مظاهره كثيرة جدًّا، منها التيسير في الفتوى والحكم على النازلة حتى يسهل على الناس العمل بها والتزامه وتطبيقه في الحياة العملية، وليس من التيسير في الفتوى إباحة المحرمات لغير ضرورة شرعية، أو الإفتاء بترك واجب؛ لأن ذلك يعتبر مروقًا عن التكليف الشرعي بل خروجًا عن الدين، واتباعًا للهوى والشيطان.

عاشرًا: عدم التقييد بمذهب معين: ومعنى هذا الضابط ألا يلتزم المستنبط في حكمه على النازلة بمذهب معين، إنما يوازن بين الأقوال ويرجح أقواها من حيث الدليل.

تطبيقات المنهج الاستنباطي من القرآن والسنة

تطبيقات المنهج الاستنباطي من القرآن والسنة:

أما القرآن الكريم، ففي قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء: ٨٣].

أما السنة النبوية، فأظهر ما استدلوا به دليلان: الأول حديث معاذ بن جبل < أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعثه إلى اليمن قال له: ((كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بكتاب الله، فإن لم أجد فبسنةِ رسولِ الله، فإن لم أجد

أجتهد رأيي ولا آلوه، فضرب رسول الله ﷺ على صدره، وقال: الحمد لله الذي وفَّقَ رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله)).

فرسول الله ﷺ أقر معاذًا > على أن يجتهد إذا لم يجد نصًا يقضي به في الكتاب والسنة، وهذا الاجتهاد وبذل الجهد للوصول إلى الحكم يشمل القياس؛ لأنه نوع من الاجتهاد والاستدلال والرسول لم يقره على نوع من الاستدلال دون نوع، والثاني ما ثبت في صحاح السنة من أن رسول الله ﷺ في كثير من الوقائع التي عُرضت عليه ولم يوحَ إليه بحكمها استدل على حكمها بطريق القياس.

وفعل الرسول ﷺ في هذا الأمر العام تشريع لأمته، ولم يقم دليل على اختصاصه به، فالقياس فيما لا نص فيه من سنن الرسول ﷺ للمسلمين فيه أسوة فقد ورد: ((أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ فقال: أرأيتِ لو كان على أمكِ دين فقضيتيه أكان يؤدى ذلك عنها؟ قالت: نعم، قال فصومي عن أمك)).

كيفية الاستفادة من المنهج الاستنباطي في مجال الدعوة الإسلامية:

برزت في العصور الحديثة مناهج للاستنباط فيما استجد من نوازل ومستجدات، وكل منهج من هذه المناهج له مستنبطوه، وكل مجتهد له مدرسته الخاصة، وهو امتداد لهذه المدارس، ولم تكن هذه المدارس إلا ثمرة من ثمرات الجمع بين المذاهب الفقهية المختلفة لمواكبة النوازل المستجدة بحلول شرعية مناسبة، بل إن الاستفادة من المذاهب الأخرى لم تلغِ المذاهب الفقهية، بل وسعت من دائرتها وأفرزت لنا هذه المحاولات عددًا من المدارس الفقهية، فَسُمِّيتْ المدرسة التي تغلب النصوص بمدرسة الأثر أو النص أو الحديث، وسميت المدرسة التي تغلب

الرأي بمدرسة الرأي أو العقل وبينهما مدرسة وسط، هي الموازنة والترجيح، ونلقي الضوء على كل منها.

الفرع الأول: مدرسة النص:

وتمتاز بما يلي:

أولًا: عرض الفقه من الكتاب والسنة.

ثانيًا: الاستفادة من الجهود الفقهية للفقهاء السابقين دون تعصب لأي منها.

ثالثًا: إحياء فقه السلف الصالح.

رابعًا: إحداث صحوة كبيرة في الاهتمام بالسنة والآثار وتحقيقهما.

ويمثل هذه المدرسة الصنعاني في (سبل السلام)، والشوكاني في (نيل الأوطار)، وصديق خان في مؤلفاته، والسيد سابق في (فقه السنة)، والألباني في رسائله.

الفرع الثاني: مدرسة العقل:

وتمتاز بما يلي:

أولًا: تقديم الكتاب على السنة وجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من الأحاديث الآحاد.

ثانيًا: ترى أن العقل أصل للنقل فتقدم دليله.

ثالثًا: ترفض مبدأ النسخ وتنكر إنكارًا حاسمًا أن يكون في القرآن نص انتهى أمده.

ولم تسلم هذه المدرسة من الاجتهادات الخاطئة كتبرم أبي زهرة بالرجم، ومن علماء هذه المدرسة: الشيخ محمد أبو زهرة، والشيخ محمد الغزالي.

الفرع الثالث: مدرسة الموازنة والترجيح:

نشأت هذه المدرسة في القرن السابع على يد ابن تيمية وتلامذته:

وتمتاز بما يلي:

أولًا: هي مدرسة استوعبت الأخبار المروية وأدركت وجود الحكمة والمصالح التي تتغياها الشيعة، أي: أنها أفادت من الرأي والأثر معًا، وإن كان انتصارها للأثر أظهر.

ثانيًا: لا فقه دون سنة، ولا سنة دون فقه.

ثالثًا: ضرورة الوصل بين الفقه والحديث.

رابعًا: التركيز على المصالح الشرعية، وحكمة التشريع، ومقاصد الشريعة.

خامسًا: التركيز على شمولية الإسلام وتكامله، والداعية يدرس هذه المدارس ويستفيد منها لخدمة الدعوة.

فوائد القواعد الفقهية وأهميتها في استنباط الأحكام الفقهية للنوازل المعاصرة:

أولًا: علم القواعد الفقهية من أهم العلوم الإسلامية التي يتزود بها المجتهد لاستنباط الأحكام الفقهية، والتي تساعده على معرفة الطرق التي سلكها المجتهدون قبله، وتجمع له شتات المسائل وفروعها وجزئياتها فتوفر له الوقت والجهد، وتنمي الملكة الفقهية التي تسهل عليه استنباط الأحكام الفقهية للوقائع المستجدة، والنوازل المعاصرة.

قال السيوطي -رحمه الله-: "اعلم أن فن الأشباه والنظائر فن عظيم به يُطلع على حقائق الفقه ومداركه ومآخذه وأسراره، ويتمهر في فهمه واستحضاره،

ويقتدر على الإلحاق والتخريج، ومعرفة أحكام المسائل التي ليست بمستورة، والحوادث والوقائع التي لا تنقضي على مر الزمن". ولذلك قال الإمام القرافي: "وهذه القواعد مهمة في الفقه، عظيمة النفع، وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقه ويشرف.

ثانيًا: القاعد الفقهية تضبط الفروع الجزئية المتناثرة في سلك واحد، فبمجرد تذكر القاعدة يسهل استذكار حكم المسائل الفقهية، وبذلك يستغنى عن حفظ أكثر الفروع لاندراجها تحت القواعد الكلية، يقول الإمام القرافي -رحمه الله-: "ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها تحت الكليات.

ثالثًا: القواعد الفقهية تيسر على المجتهد معرفة مقاصد الشريعة وأسرارها، وذلك أن ربط الفروع الجزئية بالقواعد الفقهية الكلية يدل على أن هذه الفروع جاءت لتحقيق مصلحة أكبر، وفي ذلك لفت للأنظار إلى المقاصد العامة الكبرى، وهذا الأمر قد لا يتيسر من مجرد معرفة الفروع المجردة من قواعدها.

رابعًا: القواعد الفقهية تتيح لغير المتخصصين في العلوم الشرعية الاطلاع على الأحكام الشرعية بشكل أسهل وميسر.

ومن خلال ما سبق تبين لنا دور القواعد الفقهية والحاجة الماسة إليها لمعرفة حكم ما يجد من قضايا ونوازل، فالتعمق في علم القواعد الفقهية وعلم مقاصد الشريعة يفتح المجال أمام الفقهاء لاستنباط حكم الله فيما يجد من قضايا معاصرة، ومن المجالات التي يصلح لها هذا المنهج قوانين السير في الأرض، واكتشاف السنن الحاكمة لحركة الحياة، أو فقه الحياة من علوم مادي، وكشف حضاري سواء في مجال العلوم الاجتماعية، أو التربوية أو العلمية.

ملاحظات مهمة عرض بعضها الدكتور عمر عبيد حسنة، ومنها:

أولًا: في كلا المنهجين إبداع وإنتاج جميل، ولكن لكل مجال ميدان يحقق السبق.

ثانيًا: الفقه التشريعي في الإسلام يخضع للمنهج الاستنباطي القياسي، بيد أن الفقه الاجتماعي والحضاري يخضع للمنهج الاستقرائي، وقد يكون من بعض عيوب العقل المسلم المعاصر الخلط بين المنهجين، وعدم القدرة على استخدام كل في مجاله.

ثالثًا: إن سنن التداول الحضاري استحياء من قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] لا تتأتى إلا من السير في الأرض الذي فرضه الله على المسلم بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢] فلنتعرف على القوانين التي حكمت حركة البشر للإفادة منها للحاضر والمستقبل، فقد يكون الحاضر نتيجة لمقدمة في الماضي، وقد يكون مقدمة لنتيجة لا تظهر إلا في المستقبل.

رابعًا: لقد كان جيل القرون الأولى يتعامل مع السنن بشكل عملي وتلقائي؛ لأنهم فقهوا الوحي أما نحن فلم نزل نبحث فيها وننظر في مدى أهميتها في إعادة تشكيل العقل وتصميم الذهنية الإسلامية التي لا تزال تعاني من التخلف بسبب الغفلة عن السير في الأرض، والكشف عن سنن الله في الأنفس والآفاق، وأهمية ذلك في معرفة قيام المجتمعات وسقوط ونهوض الأمم.

خامسًا: لا شك أن معطيات الوحي في الكتاب والسنة تضمنت خلاصة السنن التي تحكم الحياة والأحياء، بما عرضت له من القصص القرآني عن نهوض الأمم والحضارات وسقوطها، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، بشكل أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية التي تحكم عالم المادة ليعتبر أولو الأبصار.

سادسًا: اكتشاف السنن والتوصل إلى الدليل الذي يبين الحق إنما يتأتى من استقراء التاريخ والواقع وآيات الأنفس والآفاق، لكن المشكلة جاءت من الامتداد بأحد المنهجين وتعطيل الآخر، خاصة عندما توقف العقل المسلم عند السير في الأرض وتعطل النظر في الأنفس والآفاق في العصور المتأخرة الأمر الذي أدى به إلى الانحصار الحضاري.

تطبيق عملي:

وجميل أن نسوقها هنا فكرة عملية نرجو لها أن تتسع لها عقول الناشطين وإسهاماتهم في خدمة قضايا أمتنا، هذه الفكرة عرضها الدكتور عمر عبيد حسن بشكل عام، ونركز الضوء عليها بعرض التساؤل الآتي: ما قيمة القصص القرآني الخالد إذا لم يشكل عقلًا مدركًا للقوانين والسنن التي تحكم التجمع الإنساني، وتتحكم بقيام وسقوط الحضارات هل هي حكايات لتسجية الوقت أسقطها الزمن، وطواها التاريخ؟

المطلوب اليوم أكثر من أي يوم مضى في مجال الدراسات الإنسانية التي بلغت عند غيرنا شأوًا بعيدًا أن نتوجه صوب فقه القصص القرآني بالقدر نفسه الذي توجهنا به نحو آيات الأحكام، واستنبطنا منها هذه الكنوز العظيمة في مجال التشريع؛ لنكتشف فقهًا حضاريًّا في إطار علوم الإنسان والقوانين الاجتماعية التي تحكم مسيرة الحياة والأحياء، والتي تخلفنا فيها إلى درجة لا نُحسد عليها.

المنهج الاستقرائي

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	مفهوم المنهج الاستقرائي	٦٣
العنصر الثاني	:	خطوات المنهج الاستقرائي التجريبي	٧١
العنصر الثالث	:	تطبيقات المنهج الاستقرائي من القرآن الكريم والسنة المطهرة	٧٦

مفهوم المنهج الاستقرائي

مفهومه:

إن المنهج التجريبي، أو منهج الاستقراء، والتجريب هو المنهج الذي ينتقل فيه الباحث من الجزء إلى الكل، أو من الخاص إلى العام فهو يسير متدرجًا في التعميم حتى يصل إلى حكم عام أو قضايا كلية، وهو يقوم في كل خطواته على الملاحظة والتجربة، واستقراء الجزئيات الواقعية، والمقايسة بينها حتى يصل إلى القوانين العامة.

ويُعد المنهج التجريبي العملي لدى المسلمين بمثابة الرفض والطرح للمنهج الصوري عند أرسطو، وكان بحق مفتاح النهضة العملية في مجال العلوم الطبيعية، على وجه الخصوص؛ لأن موضوعاته هي الوقائع الخارجية المشهودة فهي لا تقتنص من العقل كما في المنهج الصوري عند اليونان ولكنها تفرض نفسها من الخارج على العقل، ثم يقوم العقل بتفسيرها وتحليلها، واستقراء جزئياتها، واستنباط القوانين العامة منها، ويُعد المنهج التجريبي عند المسلمين هو الباحث الحقيقي للنهضة الأوربية الحديثة، وهذا ما يشهد به المنصفون من أبناء هذه الحضارة.

تقول المستشرقة "زغريد هونكه": "إن أثمن هدية قدمها العرب لأوربا هي منهج البحث، والذي لولاه لبقيت أوربا في همجيتها، وينبغي على أبناء المسلمين من ضحايا الغزو الفكري وأسرى الهزيمة النفسية أن يعو ذلك جيدًا، وأن يفيئوا إلى ذاتهم الإسلامية، ويستعيدوا عزهم المفقود".

كان أرسطو أول من استخدم كلمة استقراء للدلالة على طريقة إثبات قضية عامة لاستنباطها من قضية أعم، ولكن بالإشارة إلى أنواع الأحوال الجزئية التي تتحقق فيها، وقبل أن نشرح السبب الذي من أجله قلنا أنواع الأحوال الجزئية ولم نكتفِ بعبارة الأحوال الجزئية نشير إلى أن أرسطو في كتابه (الطوبيقا) يأتي بتعريف للاستقراء يفيد أنه انتقال من الأفراد أو الجزئيات إلى الكليات، أو العموميات.

وإيراد هذا التعريف في كتاب (المواضع الجدلية) أمر له دلالته؛ إذ الجدل يراد به الإقناع، وبذلك يكون الاستقراء منهجًا لإقامة البرهان على حقيقة معلومة يجادل فيها المخالف، ومعنى ذلك: تقرير ما هو معلوم لا الكشف عما هو جديد غير معلوم. هذا عن التعريف الذي ورد في كتاب (الطوبيقا)، فهل نجد في التعريف الذي ذكرناه ابتداءً معنًى مخالفًا؟

نستوفي أولًا الملاحظة التي ذكرناها عن أنواع الأحوال الجزئية ببيان الفارق بين أنواع الجزئيات من ناحية، والجزئيات من ناحية أخرى:

لقد رأى أرسطو أن عملية الاستقراء تبدأ بالأنواع السفلى، ومن المعلوم أن النوع عنده لا يختلف في جوهره باختلاف أفراده، بل هو في كل واحد منها، وقد كان أرسطو يعتقد أن الأنواع ثابتة محدودة العدد، ولذلك فهي قابلة للعد والحصر، أما الجزئيات: فلا حصر لعددها، فقد كان يرى: أنه يكفي أن أرى عددًا محدودًا من أفراد النوع الإنساني؛ لأدرك معنى الإنسان النوع لا الفرد.

لقد أطلق أرسطو على هذا النوع من الاستقراء القائم على الإحصاء أو التعداد اسم الاستقراء التام، وقد وصفه "بيكون" بأنه صبياني، ونكتفي ببيان أن هذا النوع من الاستقراء دونه مآخذ كثيرة، تفيض بذكرها كتب المنطق، ولذلك

نتحول عنه إلى نوع آخر من الاستقراء الأرسطي يمكن أن نسميه بالاستقراء الحدسي.

وقد أطلق عليه أرسطو كلمة استقراء دون كلمة الحدث التي هي من وضع المناطقة المحدثين ؛ وذلك لأنه نوع من الإدراك العقلي المباشر الذي توحي لنا فيه الجزئيات بالمبادئ العامة أو الكلية المتشخصة فيها ، ولكن الاستقراء في هذه الحالة ليس صورة منطقة ؛ إذ ليس الاستقراء بهذا المعنى هو الذي يجعلنا نسلم بهذه المبادئ ، ولكنه العقل الذي يدركها إدراكًا مباشرًا ؛ وعلى ذلك فإن الموازنة بين المنهج الاستنباطي والمنهج الاستقرائي أن الاستنباط هو عملية استخلاص منطقي ، بمقتضاها ينتقل الباحث من العام إلى الخاص ، يبدأ بوضع مقدمات عامة ينزل منها متدرجًا إلى عناصر تندرج تحت هذه المقدمات ، ولهذا فالنتيجة التي يتوصل إليها الباحث تكون متضمنة في المقدمة ، وبالتالي تعتبر نتائج الاستنباط أخص من مقدماته.

ويتلخص معيار صدق النتائج في مدى اتساق نتائجه منطقيًّا ورياضيًّا مع مقدماته ، ويطلق أحيانًا على هذه الطريقة طريقة القياس ، ولكن لا يجب الاقتصار على هذه المعاني التي أوردناها ، فالاستنباط لا يتوقف عند العملية الذهنية العقيمة ، كما نجد في الكثير من المراجع العربية ، فعلى العكس من ذلك هناك من يعتبر العلم علمًا استنباطيًّا بالأساس ، ويعطي انجلوس مثالًا على ذلك بقوله : يمكن أن نتصور ذهنيًّا أن أيَّ مجتمعٍ يحافظ على نظامٍ سياسي محدد عندما يساهم هذا الأخير في القضاء على المشكلات الكبرى التي يعاني منها المجتمع.

وننطلق من ثم من هذا الافتراض المجرد ، ونحاول التحقق من صدق هذه المقولة انطلاقًا من سلسلة من التحقيقات الملموسة في عدد من الدول ، فحسب هذا

الاتجاه فإن الافتراضات يتم تأسيسها في بداية الأمر ثم يتم التحقق من صحتها بعد ذلك.

أما الاستقراء: فهو عملية استدلال صاعد يرتقي فيه الباحث من الحالات الجزئية إلى القواعد العامة، أي: انتقال من الجزئيات إلى حكم عام، ولذلك تعتبر نتائج الاستقراء أعم من مقدماته، ويتحقق الاستقراء من خلال الملاحظة والتجربة، ومختلف تقنيات البحث المتبعة، ومعيار الصدق في هذا النوع من الاستدلال يكون من خلال التطابق الفعلي للنتائج المتوصل إليها مع الواقع.

ولكن يجب التنبيه إلى أن جمع ملاحظات عديدة عن وقائع متفرقة لا يمكن أن يؤسس لمعرفة علمية من دون الرجوع إلى نظرية يتم في ضوئها تفسير، أو فهم ما تم جمعه، ولذلك فإن المنهج العملي في صيغته المعاصرة يعتمد على الطريقتين مع بعض، ولعل ذلك ما جعل عالم النفس "برنار" ١٩٦٣ يعتبر من الصعوبة بمكان الفصل بين الطريقتين، بل لأنه تساءل هل يوجد حقيقة شكلين متميزين من أشكال الاستدلال أن التعارض الذي أشرنا إليه بين المذهبين الاستنباطي والاستقرائي يناظر من بعض الوجوه التمييز الكلاسيكي بين المذهبين العقلي والتجريبي.

وقد آثرنا هذه النقطة لارتباطها بالمعالجة الأخيرة لأمر التفرقة بين مناهج البحث ونظرية المعرفة، فالتعارض بين المذهبين الاستنباطي والاستقرائي هو في نطاق المناهج، والتعارض بين المذهبين العقلي والتجريبي هو في نطاق نظرية المعرفة، ففي مجال المناهج يُعد "ديكارت" ١٦٥٠ ميلادية من أصحاب المنهج الاستنباطي من حيث إنه تصور العلوم جميعًا في صورة أنساق استنباطية، بينما "بيكون" من التجريبيين؛ لأنه تصور العلوم قائمة في جمع المشاهدات واشتقاق القضايا العامة

منها بواسطة الاستقراء ؛ فلزم لذلك أن نعرض للمراد بالاستنباط والاستقراء أولًا ، حتى يمكن فهم التصورين على اختلافهما ثانيًا.

إن المراد بلفظة استنباط كثيرًا ما يختلط بالمراد من الألفاظ الاستدلال والاستنتاج والقياس ، فإذا كان الاستدلال عملية منطقية ننتقل فيها من قضايا منظور إليها في ذاتها بصرف النظر عن صدقها أو كذبها إلى قضايا أخرى ناتجة عنها بالضرورة ، ووفقًا لقواعد منطقية صرفة كان هذا هو المراد من لفظتي الاستنباط والاستنتاج ؛ إذ الاستنباط هو الذي يؤكد صدور النتائج ضرورة عن مقدمات معلومة ما دامت متفقة مع قواعد منطقية معينة هي قواعد التقابل بين القضايا ، والاستقراء على عكس القياس في أنه انتقال من جزئي إلى كلي والاستقراء في مدرسة الشراح الإسلاميين ينقسم إلى قسمين تام وناقص ، والأول ما استقرت فيه جميع الجزئيات ، والثاني ما لم تستقر فيه كلها ، ولذلك فهو يفيد الظن.

وقد استمد الإسلاميون هذا التقسيم من أرسطو وبحثوه في إيجاز تام كما بحثه ، وقد وصل المسلمون إلى وضع عناصر هذا المنهج الاستقرائي الذي يقوم على التجربة وتنظمه قوانين الاستقراء ، وهذا المنهج الاستقرائي هو المعبر عن روح الإسلام ، والإسلام في آخر تحليل هو تناسق بين النظر والعمل ، يقيم نظرية فلسفية في الوجود ولكنه يرسم أيضًا طريقًا للحياة العملية ، فالعلة الحقيقية لنقض المسلمين للمنطق الأرسطوطاليسي أن هذا المنطقة يقوم على المنهج القياسي ؛ لأن هذا المنهج هو روح الحضارة اليونانية القائمة على النظر الفلسفي والفكري ، ولم تترك الحضارة اليونانية للتجربة مكانًا في هذا المنهج ، وهي إحدى ركائز الإسلام الكبرى.

وبواسطة هذا المنهج الإسلامي الاستقرائي نستطيع أن نفسر عداوة الإسلام للفلسفة ؛ لأنه إذا كان الإسلام يتطلب المنهج الاستقرائي التجريبي ، وينكر أشد

الإنكار المنهج البرهاني القياسي استطعنا أن نفسر بسهولة عدم نجاح الفلسفة وهي القائمة على هذا المنهج في الإسلام، واعتبار ما يدعونهم فلاسفة الإسلام، أو الشراح الأرسطوطاليسيين كالكندي، والفارابي، وابن سينا، وابن رشد وغيرهم مجرد امتداد للروح الهلينية في العالم الإسلامي.

يقول ابن تيمية: "وكان يعقوب بن إسحاق الكندي فيلسوف الإسلام في وقته، وبواسطة هذا المنهج الإسلامي الاستقرائي نستطيع أن نفسر سر هجوم علماء المسلمين على الغزالي في محاولته مزج المنطق الأرسطوطاليسي بعلوم المسلمين".

فقد قام الغزالي بعملية المزج هذه في مطلع حياته العلمية فيما يُرجح بدون أن يتبين له التناقض التام بين روح الإسلام والروح اليونانية التي أملت هذا المنطقة، وقد توصل في آخر حياته إلى المتناقضات التي تحدث عن هذا المزج فهدم فكرته الأولى عنه، ولكنه في الوقت عينه انتقل إلى طريق آخر من طرق المعرفة، وهو التجربة الباطنية أو الكشف الصوفي، وهذا المنهج الإسلامي الاستقرائي يفسر لنا أيضًا أخذ بعض مفكري الإسلام المتأخرين لبعض العناصر الرواقية، بعد أن قام الغزالي بعملية المزج؛ لأن المنطق الرواقي أولًا ليس منطقيًّا ميتافيزيقيًّا، ولا يتصل بإلهيات يونانية كما يتصل منطق أرسطو بإلهياته المخالفة لعقائد المسلمين، ولذلك نرى كثيرًا من المفكرين المتأخرين، وخاصة شراح السلم يتكلمون عن تحريم المنقط الفلسفي الممزوج بالعقائد الفاسدة، أما المنطق غير الممزوج فلا مانع من الاشتغال به، ولا يبحث المتأخرون في بعض المباحث الميتافيزيقية المنطقية كالمقولات، ولا يبحثون في البرهان إلا عرضًا.

وثاني خصائص هذا المنطقة أنه منطق لغوي يستند على خصائص اللغة، ومع أن منطقة الرواقيين يستند على خصائص اللغة اليونانية كالمنطق الأرسطوطاليسي،

وفي هذا ما يجعله مخالفًا للمنطق الإسلامي إلا أن من المرجح أن فكرة اتصال المنطق باللغة فكرة صادفت هوى في نفوس المتأخرين وخاصة، وأنهم رأوا أن المتقدمين ينقضون المنطق اليوناني على العموم لقيامه على خصائص اللغة اليونانية، ولذلك نرى كثيرين منهم يثيرون أبحاثًا لغويةً طويلةً تتصل في فكرتها العامة بالرواقية، وأخذوا يبدعون أقسامًا جديدة في مباحث الألفاظ، ثم تكلموا عن الحدود اللفظية كلامًا طويلًا.

وثالث خصائص هذا المنطق الرواقي: أنه منطق اسمي حسي، ينكر وجود الكليات، ولا يعترف إلا بالجزيئات فهو إذًا منطق لا يعترف إلا بالحس، وينكر المعرفة العقلية الكلية، فهذه الخصائص تقترب إلى حد ما من بعض خصائص المنطق الإسلامي، فالمنطق الإسلامي الاستقرائي يفسر لنا كل هذه الظواهر التي تكلمنا عنها، والنتيجة الأولى إذًا التي نستطيع أن نصل إليها من هذا البحث هو أن مفكري الإسلام الممثلين لروح الإسلام لم يقبلوا المنطق الأرسطوطاليسي؛ لأنه يقوم على المنهج القياسي، ولا يعترف بالمنهج الاستقرائي أو التجريبي، والنتيجة الثانية أن المسلمين وضعوا هذا المنهجَ بجميعِ عناصرِهِ.

ولقد كانت إسبانيا هي المعبر الذي انتقل خلاله العلم الإسلامي إلى أوربا، يقول مفكر الهند المعاصر المرحوم محمد إقبال: "إن "دوهارنج" يقول: "إن آراء "روجر بيكون" عن العالم أصدق، وأوضح من آراء سلفه، ومن أين استمد روجر بيكون دراسته العلمية؟ من الجامعات الإسلامية في الأندلس".

ويقرر الأستاذ "بريفو" في كتابه (ميكينج أوف هوميناتي) أن "روجر" بيكون درس العلم العربي دراسة عميقة، وأنه لا ينسب له، ولا لثنيه الآخر أي فضل في اكتشاف المنهج التجريبي في أوربا، ولم يكن روجر بيكون في الحقيقة إلا واحدًا

من رسل العلم والمنهج الإسلامي إلى أوربا المسيحية ، ولم يَكُف بيكون عن القول بأن معرفة العرب وعلمهم هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة المعاصرة.

وعلى ذلك فإن مصدر الحضارة الأوربية الحق فهو منهج العرب التجريبي ، وقد انتشر منهج العرب التجريبي في عصر "بيكون" وتعلمه الناس في أوربا يحدهم إلى هذا رغبة ملحة ، ثم يذكر أنه ليست هناك وجهة نظر من وجهات العلم الأوربي ، لم يكن للثقافة الإسلامية تأثير أساسي عليها ، ولكن أهم أثر للثقافة الإسلامية في العلم الأوربي هو تأثيره في العلم الطبيعي والروح العلمي ، وهما القوتان المميزتان للعلم الحديث والمصدران الساميان لازدهاره ، ويقرر في حسم وإصرار إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس هو ما قدموه لنا من اكتشافهم لنظريات مبتكرة غير ساكنة ، إن العلم يدين للثقافة العربية بأكثر من هذا ، إنه يدين لها بوجوده ، وقد كان العالم كما رأينا عالم ما قبل العلم.

إن علم النجوم ورياضيات اليونان كانت عناصر أجنبية لم تجد لها مكانًا في الثقافة اليونانية ، قد أبدع اليونان المذاهب ، وعمموا الأحكام ، ولكن طرق البحث وجمع المعرفة الوضعية وتركيزها ومناهج العلم الدقيقة والملاحظة المفصلة العميقة والبحث التجريبي كانت كلها غريبة عن المزاج اليوناني ، إن ما ندعوه بالعلم ظهر في أوربا كنتيجة لروح جديدة في البحث ، ولطرق جديدة في الاستقصاء طريق التجربة والملاحظة والقياس ، ولتطور الرياضيات في صورة لم يعرفها اليونان ، وهذه الروح وتلك المناهج أدخلها العرب إلى العالم الأوربي.

المسلمون إذًا هم مصدر هذه الحضارة الأوربية القائمة على المنهج التجريبي وإننا لنعلم أن "فرنسيس بيكون" قام بعد ذلك بشرح هذا المنهج ثم بحث فيه "جون استيوارت" محتذيًا حذو العرب آخذًا بكل ما توصلوا إليه مرددًا عباراتهم

وأمثلتهم، وقد خطا المنهج التجريبي بعد "بيكون" و"مل" خطوات مختلفة، ومتعددة في عهدنا الحاضر، واتخذ صورًا أخرى على أيدي الأوربيين، ولكن المسلمين، أو من تنبه في تاريخ رواد الفكر الإنساني إلى جوهره، واتخذوه أساسًا لحضاراتهم، وبهذا كانوا أساتذة الحضارة الأوربية الحديثة الأولين.

خطوات المنهج الاستقرائي التجريبي

أما عن خطوات المنهج الاستقرائي التجريبي: فهي كثيرة، ويختلف العلماء فيما بينهم في الأخذ بها، لكن خطواته الأساس تتمثل في أربع خطوات:

أولًا: الملاحظة المشاهدة، أو الرصد والتتبع لتصور الظاهرة موضوع البحث.

ثانيًا: وضع الفروض لتفسير الظاهرة؛ بحيث يتجاوز الباحث مرحلة الوصف إلى مرحلة التفسير، وبيان الروابط بين الظاهرة وغيرها، ويضع من الفروض ما يمكن أن يكون تفسيرًا لهذه الظاهرة أو ذلك الحديث، ويقوم الباحث بتصفية هذه الفروض واستبعاد ما لا يصلح منها حتى لا يبقى لديه إلا فرضًا واحدًا يصلح تفسيرًا للظاهرة، وهو ما يُعرف عند المسلمين بتنقيح المناط أو دليل السبر والتقسيم، وقد سماه فرنسيس بيكون بمنهج الحذف والاستبعاد.

ثالثًا: التجريد حيث يقوم الباحث باختبار صحة الفرض الذي ترجح لديه من حيث تلازمه مع الظاهرة أو الحديث في كل الأحوال وجودًا بوجوده وعدمًا بغيابه، وهو ما يُعرف بالدوران عند الأصوليين، والدوران -كما يقول الإمام القرافي- عين التجربة، وقد تكثر فتفيد القطع، وقد لا تكثر فتفيد الظن، فقطع الرأس مستلزم للموت حتمًا، والموت مظنون بالسم، والخطوات الثلاث السابقة تشكل في مجموعهامرحلة أولى في المنهج التجريبي وهي ما يطلق عليها مرحلة

التحليل، ثم تليها مرحلة ثانية وهي ما تعرف بمرحلة التركيب أو مرحلة التقنين، والتي تتمثل في الخطوة الرابعة وهي:

رابعًا: تقنين النتائج الجزئية، بحيث تُجمع هذه النتائج الجزئية المتناثرة ويصاغ منها قانون كلي تبنى عليه المعارف، وهكذا يصبح العلم الحسي الجزئي أساسًا للحكم العقلي الكلي؛ لأن القضايا الحسية لا تكون إلا جزئية ولا سبيل إلى صدق القضية الكلية في مجال الطبيعيات إلا من خلال التجريب للجزئيات المحسة المشاهدة مثل قوانين الجاذبية، والنسبية، والطفو وغيرها.

وبعض عرض خطوات المنهج التجريبي نسوق عدة ملاحظات ينبغي الانتباه إليها:

الملاحظة الأولى: أن الدراسات التجريبية لم تعد قاصرة على مجالات العلوم الطبيعية والذي يعد المنهج التجريبي أساسها الأول، وإنما استخدمها العلماء في العلوم الإنسانية وفق معايير وضوابط دقيقة لدراسة مختلف الظواهر الإنسانية، وقد أعلن "ويليام فونت" في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي عن إنشاء أول مختبر علمي لدراسة الظواهر النفسية، وبذلك دخلت الظواهر النفسية المتعلقة بأحد العلوم الإنسانية إلى المعمل، وانتشر على إثر ذلك البحث التجريبي بوصفه بحثًا علميًّا يتناول دراسة مختلف الظواهر الإنسانية.

وأصبح ما يعرف بالمتغير التابع والمتغير المستقل في دراسة الحالات، وقد عارض كثير من العلماء تطبيق المنهج التجريبي بإطلاقه على العلوم الإنسانية؛ لأنها تختلف في طبيعتها عن العلوم الطبيعية، وأثاروا إشكاليات كثيرة في وجه تطبيق المنهج التجريبي في مجال العلوم الإنسانية.

الملاحظة الثانية: أن العلم الآن يتجه إلى الاتساق المعرفي العام، بمعنى أنه لا بد من معرفة الصلة بين العناصر المكونة للحقيقة ثم الصلة بين الحقائق بعضها ببعض، ولا ينظر إلى الحقائق المجزئة على أنها علم، وإن كانت توصف بأنها من ضروب المعارف، فالعلم في مفهومه الحديث يُعد تراكمًا للمعرفة المتسقة، وأنه بدون الاعتقاد بوجود اتساق داخلي في عالمنا هذا فإنه يستحيل قيام العلم؛ إذ إن العلم هو محاولة لاكتشاف هذا العالم ومعرفة العلاقات فيه، بما فيها من تداخل واتساق.

يقول العالم الفرنسي "هنري فون كاريه": "إن العلم معرفة لا تتعلق بالأشياء أو الظواهر في ذاتها، بل هو إدراك ما يربط بين هذه الأشياء والظواهر من علاقات، وكأن العلم في مفهومه العالم يتجه إلى التصور والتجريد، ولم يعد قاصرًا على النشاط في المعامل والمختبرات، وإنما أصبح يشمل كل نشاط يهدف إلى دراسة العلاقات بين الظواهر المختلفة، وإيجاد القوانين التي تحكم هذه الظواهر، وأصبحت معرفة آلاف الحقائق الجزئية عن الطبيعة دون إدراك الروابط التي تنتظمها في مجموعة من القوانين لا يمكن أن يطلق عليها وصف العلم".

الملاحظة الثالثة: أن صياغة القوانين الكلية من خلال الجزئيات المستقرئة هو منهج علماء المسلمين والذي استلهموه من روح القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الفتح: ٢٣]؛ حيث بين الله ﷻ أن السنة الجارية في حالة معينة أو جزئية معينة هي سنة عامة لسواها من نوعها، وهذا ما قرره علماء المنهج العلمي في الغرب تحت صيغة المسلمات العلمية، ويقصدون بها الأمور المسلمة لدى الباحث، وهي في جملتها أمور مشاهدة ومدركة لا مجال للريب فيها، وهي تنقسم إلى نوعين:

أولًا: مسلمات عامة.

ثانيًا: مسلمات خاصة.

فالمسلمات العلمية العامة تتعلق بالبحث في ذاته مثل:

أولًا: مسلم الحتمية، ويعني هذا المسلم أن كل شيء في ظواهر الكون محكوم بقانون، أو هو في حقيقته نتاج لسنة من السنن، وأنه لا يمكن لشيء أن ينتج عن لا شيء، ولا توجد ظاهرة في الكون تحدث بدون سبب حتى الظواهر الاجتماعية، وقد دخلت مفاهيم جديدة على قانون السببية تخالف ما كان شائعًا من قبل؛ فأصبح مفهوم المتغير المستقل بديلًا عن مفهوم السبب، ومفهوم المتغير التابع بدلًا عن المسبب أو النتيجة، فإن قلنا الحديد يتمدد بالحرارة؛ فإن الحرارة هي المتغير المستقل والتمدد هو المتغير التابع.

ثانيًا: مسلم الاطراد: ويعني هذا المسلم أن ما حصل في الماضي يمكن أن يحصل في الحاضر، وأن الأشياء تقع بشكل متكرر وفق نظامٍ معينٍ ثابتٍ وهو ما يعني الاطراد في وقوع الحوادث.

ثالثاً: مسلم الوضعية، ويعني هذا المسلم الحسية في المعرفة حيث يرى علماء الغرب أن العالم والباحث لا بد أن ينطلق من الأمور المحسوسة أمامه، ولا يضع أيَّ اعتبارٍ لما لا يقع تحت الحس، كالغيبيات والأخبار التي تأتي عن طريق الوحي؛ حيث إن العلم يعتمد في بدايته على الحواس فهي نقطة الانطلاق، ثم يأتي بعد ذلك دور المنطق الوضعي، أي: أن المعرفة تحتاج بالإضافة إلى انطلاقها من المشاهدات الحسية إلى الخبرة الإنسانية، والعمل الذهني من أجل الوصول إلى القوانين العامة والكلية.

والذي نراه حول هذه المسلمات العلمية التي قال بها علماء الغرب، وادعوا أنها مسلمات يقينية ينبغي التسليم الجازم بها، ولا يجوز الخروج عنها في ميادين البحث، وهي الحتمية والاطراد والوضعية والحسية.

نقول: إن هذه المسلمات ليست محل تسليم مطلق، كما يدعون، وهي لا تعبر عن واقع العلم، فقد جاءت نظرية النسبية عند "أينشتين" ونظرية الاحتمالات في علوم الرياضيات الحديثة التي وضعها "كينز" لتهدم هذه المسلمات، وتنقلها من دائرة الإلزام إلى دائرة الاحتمال، فلم تعد العلاقة بين السبب والمسبب حتمية ضرورية لا تتخلف، بل أصبحت محتملة بدرجة ما من درجات الاحتمال على حسب الفرص المتكافئة في حدوث الظاهرة أو عدم حدوثها، وأصبحت الظواهر الطبيعية ليست خاضعة لقانون الحتمية، وإنما هي خاضعة لقانون أعلى وأسمى، وهو قانون المشيئة الإلهية، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] كما أوضحت نظرية النسبية أن المادة التي يتألف منها الكون عبارة عن طاقة هوائية متجمدة في شكل ذرات غير مرئية.

وأثبت "أينشتين" أن المادة والطاقة شيء واحد، وقد أثبتت التجارب ذلك فتفتت الذرة وتحولت مادتها إلى طاقة وقوة هائلة، وعلى ذلك فقد نقد "أينشتين" حتمية الوضعيين ولم يضع أي اعتبار لوضعية الماديين وحسيتهم.

ومن هنا يصحب وضع هذه الأمور كمسلمات للعلم أمرًا لا يتفق مع مقررات العلم ذاته، وقد تنبه علماء المسلمين إلى ذلك فقالوا: إن العلاقة بين السبب والمسبب علاقة عادية، وليست لزومية، فقد تتخلف كما حدث مع سيدنا إبراهيم حينما وضع في النار، فلم تحرقه، وكما حدث مع سيدنا موسى #

حينما ضرب بعصاه البحر فانفلق طرقًا، وانخرم قانون السيولة في الماء، وتحول الماء إلى جدار صلد، قال تعالى ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وفي ضوء نظرية الاحتمالات تصبح العلاقة بين الأسباب والمسببات عادية وليست لزومية، فليس من الضروري إذا حدثت الظاهرة (أ) أن تحدث الظاهرة (ب)، وإنما الصحيح أن نقول إذا حدثت الظاهرة (أ) فيمكن أن أو يحتمل أن يتبعها الظاهرة (ب).

تطبيقات المنهج الاستقرائي من القرآن الكريم والسنة المطهرة

تطبيقات المنهج الاستقرائي من القرآن الكريم والسنة المطهرة:

ففي سورة "النحل" يتبدى لنا خصائص المنهج الإسلامي في الاستقراء من خلال بعض آياتها؛ فالسورة تبدأ ببث الطمأنينة في قلوب الناس؛ لأن الله بالغ أمره في الوقت الذي جرى به قدره في أكوانه، وأنه يبعث رسالاته إليهم ليتقوه وحده سبحانه، قال ﷻ ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٣].

وبعد هذا الاستهلال لقدرته ووحدانيته وخلقه الأكوان كلها بالحق وانتظامها عليه دون اختلال تصطحب السورة الناس في إقناع بياني وإقناع استقرائي واستنباطي يستولي على الأنفس من أيِّ مستوًى عقليٍّ ليتذكروا، ويتفكروا، ويستنبطوا من عظائم لا يختل لها نظام، ونعم يشهدونها، ويسمعونها، ويتذوقونها، ويستعملونها.

قال سبحانه : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ
خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ
حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا
بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا
وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ
لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ
شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ
وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ
لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾
أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل: ٤- ١٨].

ويتكرر المنهج ذاته في الآيات من ٦٦ إلى ٧٠ ومن ٧٥ إلى ٨١، هكذا تبدأ الآيات التي نقلناها والتي أشرنا إليها بسننه سبحانه في خلقه ثم استعراض أو استقراء لكثير من النعم والظواهر العظمى لخلقه واقتداره مما تحس به كل الحواس الإنسانية، وتتكرر أن في ذلك لآيات لقوم يعقلون أو يؤمنون أو يتفكرون، أو يتذكرون لعلهم يشكرون، أو يسلمون، والشكر نتاج فهم وطمأنينة نفس، والإسلام هو النتيجة المرتجاة.

وبعض استعراض هذا الكثير العظيم مما لا يحيط بوصفه إلا خالق الكون تُختتم الآيات بأن هذا قليل من كثير لا يستقصى، ويستمر الأسلوب الاستقرائي في

لفت الحواس إلى أشكال، وأنواع أخرى بأدلة من سنن الله في الخلق طريقها السير في الأرض، والنظر إلى ما وقع، أو يقع للأمم المخالفة للسنن.

قال تعالى: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النحل: ٢٦]، وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [النحل: ٦٠]، وقال ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل: ١١٣].

ومنه استنكار تسليم الإنسان عقله إلى غيره، وإهداره استقلال إرادته قال ﷻ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النحل: ٢٤]، ثم قال ﷻ أيضًا: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٧]، كما قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ٨٦].

والتذكير بما في فطرة النفس من تسليم بقدرة الخالق إذ يخاف المخلوق الضرر قال سبحانه ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣] وإذ ينكشف عنه: ﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٤] ثم هذا قسم قرآني عظيم عن سنة الله: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ٦٣].

نقرأ بعده أمثالًا من توفيق الله لمخلوقاته في عالم النحل وروائعه قال سبحانه: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن

كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل : ٦٨ ، ٦٩].

ومن العبد والأبكم وخسران للذين يعلمون العمل الصالح ونفه الله بمن يعملونه قال سبحانه : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٧٥].

وقال سبحانه : ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل : ٧٦] وتشبيهًا لمن ينقض عهده بمن تنقض غزلها بعد قوة قال ﷻ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل : ٩٢].

كما نجد أجمع آية للأحكام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]، وقد سلف القول عنها، ونجد من الأحكام عفو الله عند الإكراه قال ﷻ: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل: ١٠٦].

والمسئولية الشخصية لكل نفس عما عملت قال ﷻ: ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١١١]، والعفو عن الاضطرار قال ﷻ: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٥].

ويجب أن يتنبه الباحث المسلم إلى تلك المسلمات العلمية المتفقة مع العقيدة الصحيحة، والتي ينبغي أن يأخذ بها كل باحث مهما كان تخصصه ومهما تنوع مجال بحثه:

أولًا: أن هناك قوة عليا خلقت هذا الكون وأبدعته وهو الله جل جلاله، وليس شيء في هذا الكون يوجد عبثًا أو خُلق صدقة.

ثانيًا: أن الله وضع في هذا الكون سننًا وأسبابًا، ولكن العلاقة بين السنن والظواهر، وبين الأسباب والمسببات تخضع لقدرة الله وإرادته، وأن الأسباب لا تؤثر في المسببات بطبعها وذاتها، وإنما بقدرة الله وإرادته، وهي قد تتخلف بمشيئة الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

ثالثًا: أن التجربة الحسية ليست هي الطريق الوحيد للعلم كما يدعي الوضعيون الماديون، بل هناك العقل والمنطق، وهناك الوحي الذي يفسر كثيرًا مما يعجز عنه المعمل والمختبر، وهناك حقائق الغيب التي لا ريب فيها، أما المسلمات الخاصة فهي تتعلق بالطبيعة البشرية للباحث فهي تدخل في نطاق العملية الإنسانية، وقد أخذ العرب عن غيرهم، واقتبست أوربا عن العرب، وعن الذين سبقوهم، وهكذا فالجهود الفكرية ملك عام يمكن لمن يريد أن يعتمد عليها، ويقتبس منها، وأن يخرج بالعبر التي تؤدي إلى الحركة والتقدم.

وللجاحظ آراء قيمة في العقل والإرادة تدارسها العلماء، والفلاسفة في عصره، والعصور التي تلته؛ فالإنسان عند الجاحظ قادر على أن يعرف الخالق بعقله، وعلى أن يدرك الحاجة إلى الوحي الذي ينزل على الأنبياء.

المنهج الجدلي (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	مفهوم المنهج الجدلي	٨٣
العنصر الثاني	:	أركان الجدال وخطواته	٨٧
العنصر الثالث	:	تطبيقات المنهج الجدلي من القرآن الكريم	٩٠
العنصر الرابع	:	القصص	٩٧

مفهوم المنهج الجدلي

الجدل لغةً:

هو اللدد في الخصومة، والقدرة عليها، وقد جادله مجادلةً، وجدالًا، ورجل جَدِلٌ، ومجدلٌ ومجدال: شديد الجدل.

يقال: جادلت الرجل فجادلته جَدَلًا، أي: غلبته، ورجل جدِلٌ إذا كان أقوى في الخصام، وجادله أي خاصمه، مجادلة وجدالًا والاسم الجدل، وهو شدة الخصومة.

وقال الأصفهاني: إن الأصل في معنى الجدال هو المصارعة، وإن الجدال هي الأرض الصلبة، فهو إسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، فكذلك الخصمان يروم كل منهما غلبة صاحبه بإسقاط كلامه بتقوية كلام نفسه.

الجدل اصطلاحًا:

المفاوضة والمغالبة لإلزام الخصم الحجة، قال صاحب (المصباح المنير) بعد أن ذكر المعنى اللغوي للجدل: ثم استعمل الجدل على لسان جملة الشرع في مقابل الأدلة لظهور أرجحها، وعرفه إمام الحرمين: بأنه هو طريقة وضعت لإظهار الحق، وضبط مناطه، أو هو إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع، والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة.

وجاء في (روح المعاني): "بأنه أدلة كلامية يوردها الداعي؛ ليلزم الخصم ويفحمه" ويقسم الفخر الرازي الجدل إلى مذموم، وممدوح حسب المقام والغاية

من الجدل، فيقول: "الجدل المذموم محمولٌ على الجدلِ في تقرير الباطل، وطلب المال والجاه، والجدل الممدوح محمول على الجدل في تقرير الحق، ودعوة الخلق إلى سبيل الله، والذب عن دين الله تعالى"

فالجدل الممدوح: ما كان بنية خالصة، وجرى بطريقةٍ سليمةٍ وأدى إلى الخير، أو يقال: هو كل جدال أيد الحق، وأفضى إليه بنيةٍ خالصة، وطريق صحيح.

قال ابن القيم في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]: "يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته، ولينه، وحيلته، ورفقه، فيكون مأمور بجدالهم بالحال التي هي أحسن، ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين والكلمات التي هي أحسن شيء وأبينه وأدله على المقصود، وأوصلُهُ إلى المطلوبِ".

والتحقيق: أن الآية تتناول الوضعين، ودعوة القرآن الصريحة ترشدنا إلى هذا النوع من الجدل، وتبين أصوله وآدابه؛ فقال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومن الأدلة على صحة هذا الجدل ما كان يحدث بين الصحابة { ورسول الله ﷺ من الجدل، ولم ينكر عليهم ذلك؛ إذ كان لطلب المصلحة والحق، مثل: جدال سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة { مع الرسول ﷺ في غزوة الأحزاب، وكما حدث من جدال الصحابة وعمر لرسول الله ﷺ في صلح الحديبية، كما أن الجدال مع أهل الإلحاد، والمشركين وأهل البدع لا بد منه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: "فكل من لم يناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرةً تقطع دابرَهُم لم يكن أعطى الإسلام حقه، ولا وفَّى بموجب

العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور، وطمأنينة النفوس ولا أفاد كلامه العلم واليقين".

قال ابن القيم في فقه قصة وفد نجران، وهو يستخلص فوائدها: ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل استحباب ذلك، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من إسلام من يرجى إسلامه منهم، وإقامة الحجة عليهم، ولا يهرب من مجادلَتِهِم إلا عاجزٌ عن إقامة الحجة؛ فليولِّي ذلِكَ إلى أهله، وليخلي بين المطي وحاديها والقوس وباريها.

أما الجدال المذموم: وهو كل جدال ظاهر الباطل أو أفضى إليه، قال تعالى ﴿ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ [الكهف: ٥٦]، وقال: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ [الحج: ٣]، وقال رسول الله ﷺ: ((أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)) وغير ذلك من الأدلة في الكتاب والسنة، وجميعها ظاهرة في دلالتها على الجدال بالباطل، وهو ما قرره أكثر علماء هذه الأمة؛ لأنه لا تعارض بين النصوص التي تأمر بالجدل والتي تنهى عنه.

فالجدل الذي أمر الله به غير الذي نهى عنه يقينًا فتحمل نصوص الأمر على الجدال بالحق ونصوص النهي على الجدال بالباطل، كما أن ابن القيم يرى أن تقدير العقل على النقد من المجادلة بالباطل كما قال، ومن أعظم الجدال في آيات الله جدل من يعارض النقل بالعقل، ثم يقدمه عليه فإن جداله يتضمن أربعة مقامات:

المقام الأول: أنه يبين أن الأدلة النقلية من الكتاب والسنة لا تفيد علمًا ولا يقينًا.

المقام الثاني: أن ظاهرها يدل على الباطل والتشبيه والتمثيل.

المقام الثالث: أن صريح العقل يخالفها.

المقام الرابع: أنه يتعين تقديمه عليها، ولا يصل إلى هذه المقامات إلا بأعظم الجدال.

كما أنه بيَّنَ في مجمل القول في الجدل الممدوح والمذموم بقوله: فأما المناظرة فتنقسم إلى محمودة ومذمومة، والمحمودة نوعان، والمذمومة نوعان، وبيان ذلك أن المناظر، إما أن يكون عالمًا بالحق، وإما أن يكون طالبًا له، وإما ألا يكون عالمًا به، ولا طالبًا له، وهذا الثالث هو المذموم، وأم الأولان فمن كان عالمًا بالحق فمناظرته التي تحمد أن يبين لغيره الحجة التي تهديه إن كان مسترشدًا طالبًا للحق، أو تقطعه، أو تكسره إن كان معاندًا غير طالب للحق، ولا متبع له، أو توقفه وتبعثه على النظر في أدلة الحق، ثم يبينُ أن لمناظرة المبطل فائدتين:

الأولى: أن يرد عن باطله، ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكف شره وعداوته، ويتبين للناس أن الذي معه باطل.

وعلى ذلك؛ فإن المتتبع للنصوص الشريعة والآثار يجد أنها تدور حول نوعين من الجدال، ويدور الحكم معهما جوازًا ومنعًا؛ فالنصوص الآثار التي تأمر بالجدال، وتجيز الأخذ به، وتعاطيه هي النصوص التي تهدف إلى الجدال الممدوح، أو الجدال الذي ينصر الحق، وينتصر له، ويدعو للإسلام، ويناقح عن عقيدته، ويدفع كل ما يلحق بالإسلام من أذىً وإلصاقات، وتُهَمٍ باطلة، وبدع منتحلة، وضلالاتٍ كاذبة، فهذا النوع من الجدال هو الجَائِزُ، والمأمورُ به، والذي فيه خيرٌ للإسلام، وعزَّةٌ ورفْعة.

وأما النصوص والآثار التي حذرت من الجدال ونهت عنه: فالمقصود به الجدال المذموم، وهو الجدال الذي يفضي إلى الباطل، ويقوم على الزور والبهتان،

وإضاعة الحقوق، وترويج الشبهات والمنكرات والشهوات، وكذا الجدال الذي يتناول الغيبيات، وما أمرنا بالإيمان والتسليم والتصديق به؛ كأخبار الوحي، وأسماء الله تعالى وصفاته، والجنة والنار، والبعث والنشور، أو الجدال في القرآن.

فالجدال الذي يتناول هذه الأمور ويطعن فيها بأي وجهٍ فهو جدال باطل، وهو الجدال المنهي عنه، والذي ورد التحذير بشأنه، والنصوص والآثار التي تدل على ذلك كثيرة؛ ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴾ [النساء: ١٠٧]، وقال: ﴿ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ ﴾ [غافر: ٥]، وقال تعالى: ﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [غافر: ٤] وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴾ [الحج: ٨].

ومن السنة قوله ﷺ: ((المِرَاءُ في القرآن كُفْر)) وقوله ﷺ: ((ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)) وقال الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى-: "المراء في الدين يقسي القلب، ويورث الضغائن".

وخلاصة القول: أن حكم الجدال يدور مع نوع الجدال، فإذا كان الجدالُ محمودًا فهو جائز مأمور به، وإذا كان الجدال مذمومًا وباطلًا فمنهي عنه، ومحذر منه.

أركان الجدال وخطواته

وللجدال أركان لا بد أن يقوم ويستند عليها، كما أن لتلك الأركان شروط لا بد من تحققها فيها، وذلك على النحو التالي الموضوع الذي يجري فيه الجدال ويشترط فيه:

أولًا: أن يكون الموضوع مما يجوز أن يجرى فيه المجادلة شرعًا وعقلًا؛ فمثلًا لا تجوز المجادلة في ذات الله تعالى، أو أسمائه وصفاته، وذلك لورود النهي الشرعي عن هذا الفعل،

كما أن العقل الصحيح يمتنع عن ذلك قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وكذلك لا يجوز الجدال في آيات الله، وضرب بعضها ببعض، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ [فصلت: ٤٠]، وكذلك لا ينبغي الجدال فيما غيب عنا، وليس لنا سبيل إلى معرفته والعلم به قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأنعام: ٥٩] وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: ١- ٣].

ثانيًا: أن يكون الموضوع المتجادل فيه معلومًا ومحددًا لدى المتجادلين؛ فلا ينبغي الجدال فيما تجهل، أو ما كان متشعبًا، وليس باستطاعتك التمكن منه، وهذا من التكلف المنهي عنه قال تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

ثالثًا: أن يكون الهدف من الموضوع المتجادل فيه إظهار وجه الحق والصواب ودمغ الباطل والارتياب، والدعوة إلى دين الله، والذب عن عقيدة الإسلام.

الركن الثاني: طريقَا أو طرفَا الجدال، وهما من انتصبا للجدال في قضية أو مسألة ما موضوع خلاف بينهما، ويشترط فيهما:

أولًا: أهليتهما للجدال، والمراد بذلك: الوفرة العلمية والعقلية لمن يتصدى للجدال، وتمكن المجادل من عدته وعتاده أثناء المناظرة والجدال، كما يفضل أن يكون هنالك تكافؤ بين طرفي الجدال من حيث السن والمعرفة والمدارك العقلية حتى تؤتي المجادلة أو المناظرة الثمرةَ المرجوة منها.

ثانيًا: التزام طرفيْ الجدالِ بآدابِ الجدالِ، وضوابط المجادلة حتى تسير الأمور في نطاق من الأدب والالتزام والاحترام.

الركن الثالث: منهج الجدال، والمقصود به: الطريق الذي تسير عليه المجادلة أو المناظرة وما يجب أن تكون عليه وتتصف به، ويشترط في المنهج:

أولًا: الوضوح والعلم به، فلا يتصور أن يقومَ أحدٌ، ويجادل بدون معرفةٍ وعلم بالطريق الذي يجب أن يسلكَهُ بجداله ومناظرته، وإلا كان يضرب عباب البحر ولجته بدون مركب أو مجداف.

ثانيًا: تضمن المنهج للكيفية التي يسير بها الجدال، واتفاق الأطراف، ولو ضمنًا على تلك الأسس والكيفية؛ لأنها بمثابة المعالم التي تهدي السائر في طريقه، والمنهج هنا مهم جدًّا؛ لأنه لو افترضنا أن هنالك موضوعًا معينًا محل النزاع أو الجدال، وتوفر طرفَا الجدال المتناظرين، ولكن لم يكن لهما منهجٌ مشترك يسيران على ضوئِهِ في جدالهما، أو أن لكل منهما منهجًا مغايرًا لمنهج الآخر كأن يكون لواحد منهج نظري، وللآخر منهج علمي، فأنى لا يلتقيان، أو يصلان إلى مبتغاهما من الجدال أو المناظرة.

خطوات الجدال:

لا بد أن يمر الجدال الصادق والحسن بمراحل حتى يؤدي إلى نتيجته المرجوة، وهذه المراحل هي:

أولًا: مرحلة المبادئ: وفي هذه المرحلة يتمُّ تحديد موضوع الجدال، وتعيين موضوع النزاع بدقة، كما يتم تعيين الأطراف المتجادلة، وذلك حتى لا تتشعب الموضوعات وتتشقق إلى موضوعات، وأمور أخرى بعيدة عن الموضوع المتنازع عليه أصلًا، وكذا فيه احتراز من عدم دخول أطراف آخرين في النزاع والجدال غير الأطراف المتفق عليهم أصلًا.

ثانيًا: مرحلة الأوسط: وفي هذه المرحلة يتم تقديم الدلائل، والحجج والبراهين القاطعة على صحة دعوى كل فريقٍ ضمن المنهج المتفقِ عليه.

ثالثًا: مرحلة المُقَاطِع: وهي مرحلة إذا انتهت فيها تقديم الأدلة والحجج والبراهين، ووصلت المجادلة إلى ضرورة التسليم بما تؤدي إليه تلك الأدلة والحجج والبراهين والوقوف عند هذا الحد.

رابعًا: مرحلة النتائج: وهي المرحلة التي يعجز فيها طرف من الأطراف عن منازعة الطرف الآخر لغلبة حجته وقوتها؛ فعندئذٍ تكون النتيجة، وهي انتصار طرف على الآخر، ونجاحه سواء سلم الطرف الآخر بتلك النتيجة أم لا.

تطبيقات المنهج الجدلي من القرآن الكريم

كان عماد النبي ﷺ في مجادلة المشركين واليهود والنصارى وغيرهم القرآن الكريم، يحتج به عليهم لإثبات دعواه، وكلما أوردوا اعتراضًا نزل في الرد عليهم قرآن كريم؛ فيتلوه عليهم النبي ﷺ ويعلن لهم به وضْحَ الحق إن كانوا له طالبين، ويرد كيدهم في نحورهم إن كانوا معاندين مستكبرين.

وفي الحق: أن كتاب الله فوق أنه معجزة النبي ﷺ الكبرى، وفوق أنه مشتمل على أكثر الأجوبة عن الأسئلة التي اعترض بها المشركون، وغيرهم على الإسلام هو فوق هذا وذاك المثل الكامل الذي لا يتسامى إلى بيانه متكلم أو محتج؛ لذلك وجب علينا أن نعرف شيئًا من طرائق جدله واستدلاله لا طمعًا في محاكاته، ولا طلبًا لمساماته، ولكن للاقتباس من نوره والاستضاءة بضوئه، والاهتداء بهديه ولنجيب أمره، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وأي مسلم سلك القرآن الكريم للاستدلال على ما جاء به من بينات، ولإثبات ما جاء به من حق أسلك مسلك المنطق والبرهان، أم مسلك الخطابة والتأثير بالبيان، أم مسلك الجدل والإلزام؟ من أجل أن نعرف ذلك على التحقيق، وكيف كان أثر القرآن الكريم في النفوس ومكانته من الحق وجب أن نتكلم كلمة في أصناف الناس، وما يناسب كل صنف من خطاب، وما يليق بهم من دليل.

فنقول: إن طبائع الناس متفاوتة، ومشاربهم متباينة، وأهواؤهم متضاربة، ومسالكهم في طلب الحق مختلفة، فمنهم من يصدق بالبرهان، ولا يرضيه إلا قياس تام، أو ما يجري مجراه، ويسير في طريقه، وهؤلاء هم من غلبت عليهم الدراسات العقلية والنزاعات الفلسفية، وكان لهم من أوقاتهم ما أزجوه في دراساتٍ واسعة النطاق، وعلوم سيطرت عليهم، فسادهم التأمل الفلسفي، والمنزع العلمي.

والمستقرئ لأحوال الأمم المتتبع لشئون الاجتماع؛ يجد أن هذا الصنف من الناس قلة في الكون الإنساني وعدد محدود بالنسبة لغيرهم من بني الإنسان؛ إذ أن أكثر من في الأرض انصرف إلى المهن المادية فما كان له وقت يزجيه في تلك التأملات، ولعل هذا هو الصنف الذي أمر الله نبيه أن يدعوه بالحكمة في قوله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ ومنهم من غلب عليه مذهب ديني، أو غير ديني استأثر بلبه وسيطر على هواه، وسد مسامع الإدراك في قلبه؛ إذ استولت عليه نحلة مذهبية فتعصب لها، والتعصب يعمي ويصم، ويجعل النفس لا تكاد تسيغ الحق إلا بمعالجات عسيرة؛ إذ أن ذلك لا يكون إلا بالطب لأدواء النفوس، وأدواء النفوس أعسر علاجًا وأعز دواء من علاج الأجسام.

وهؤلاء لا بد لهم من طرق جدلية تزيل ما لبس من الحق عليهم، ويتخذ الحق بها قوة مما يعتقدون؛ إذ يلزمهم بما عندهم، ويفحمهم بما بين أيديهم، ويتخذ مما

يعرفون وسيلة لقبول ما يرفضون، وهذا الصنف من الناس، وإن كان أكثر عددًا من الأول إلا أنه ليس الجمهور الأعظم، ولا الكثرة الغالبة بين الناس، ولعله الصنف الذي أَمَرَنَا الله ﷻ بمجادلتِهِ بالتي هي أحسن في الآية الكريمة الآنفة الذكر.

أما الجمهور الأعظم من الناس فليس هؤلاء ولا أولئك، بل هو في تفكيره أقرب إلى الفطرة، فيه سلامتها، وفيها سذاجتُهَا، فيه حسنُها وجمالُها، وفيه إخلاصها وبراءتها، وهو لا يخاطِبُ بتعقيد المنطق، ولا بتفكير الفلاسفة، ولا بما يرضي المتفكرين تفكرًا علميًّا، بل يليق به ما التقى فيه الحق بالتأثير الوجداني، وما اختلطت فيه الحقائق بطرقِ إثارةِ الأهواء والميول، وما التقت فيه سياسةُ الحقِّ بسياسة البيان، وليس ذلك إلا بالأسلوب الخطابي، أو ما يُقَرِّبُ منه.

والقرآن الكريم نزل بتلك الشريعة الأبدية التي جاءت للكافة، وبُعِثَ بها النبي ﷺ للناس جميعًا بشيرًا ونذيرًا، من غير أن تقصر دعوته على قبيل، ولا أن تخص شريعته بجيل، بل بعث للأحمر والأسود إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ لذلك وجب أن يكون القرآن الكريم، وهو حجته الكبرى -كما علمت- فيه من الأدلة، والمناهج العقلية ما يقنع الناس جميعًا على اختلافِ أصنافِهِم، وتباين أفهامِهِم، وتفاوتِ مداركهم، ووجب أن يكون أسلوبه الفكري والبياني؛ بحيث لا يعلو على مدارك طائفة، ولا ينزل عن مدراك أخرى، ولا يرضي طائفة دون أخرى، بل يصلُ إلى مدارك الجميع يجد فيه المثقف بغيته، والفيلسوف طلبته، والعامة من سواد الشعب غايتهم.

وكذلك سلك القرآن الكريم، فالمتدبر في آياته والمتفكر في مناهجه يجد فيها ما يعلم الجاهل، وينبه الغافل، ويرضي نهمة العالم، اقرأ قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

اقرأ هذه الآية وارجع البصر فيها كرتين، ألا تراه فيها قد وجَّه الأذهان إلى عظيم قدرته، وقوة سلطانه على الوجود، وبيَّنَ كيف اخترعَ، وأبدع، وبرأ على غير مثال سبق؛ ليثبت أنه وحده الأحق بالعبادة من غير أن يشاركه وثن أو صنم، وألا ترى أن الشخص من الدهماء يقرأها فيرى فيها علمًا بما لم يكن يعلم، وقد أدركه في أيسر كلفة، وأقرب طريق، وأبلغ بيان.

ويرى فيها العالم الفيلسوف الباحث في نشأة الأكوان دقة العلم وأحكامه وموافقته لأصدق ما وصل إليه العقل البشري مع سمو البيان، وعلو البرهان؛ فتبارك الذي أنزل الفرقان، واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢: ١٦] إلى آخر الآيات الكريمات.

ثم تدبر في آيات الله البينات تجد أن العامي يستفيد منها علمًا غزيرًا فوق أنه يستدل منها على قدرته -جل وعلا- على الإعادة، كما قدر على الإبداع والإنشاء، وقرأها العالم بدقائق تكوين الإنسان، والدارس لحياة الحيوان جرثومة فجنينًا فموجودًا على ظهر الوجود حيًّا؛ فيرى دقة العلم، وصدق الحكاية على أدق مسائله، حتى لقد قرأها بعض كبار الأطباء في أوربا؛ فاعتقد أن محمدًا ﷺ أمهر طبيب رأته الأجيال السابقة، فلما علم أنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب آمن بأن هذا من عند الله بارئ النسم -جلت قدرته.

وهكذا يرى القارئ لكتاب الله سبحانه، وما فيه من أدلة أنه واضح للعامي يدرك منه ما يناسب خياله، ويسمو إليه إدراكه، وما يدركه منه صدق لا شبهة فيه، ويرى فيه العالم الباحث المحقق حقائق صادقة ما وصل إليها البحث العلمي إلا بعد تجارب ومجهودات عقلية عنيفة، وكلما ازداد المتبصر في الآيات التي تتعلق بالكون في القرآن الكريم تأملًا ازداد استبصارًا، ورأى علمًا أسمى مما يدركه الإنسان بتجاربه، وأعلى مما يهتدي إليه بعقله المجرد.

تصدى ابن رشد لإثبات أن الحكيم الفيلسوف يستفيد من أدلة القرآن، كما يستفيد العامي الجاهل، ويرى فيه ما يرضي شهوته العقلية، وبيّن ذلك في كتاب (فصل المقال) قال: "لما كانت طرق التصديق ما هي عامة لأكثر الناس أعني: وقوع التصديق من قبلها، وهي الخطابية والجدلية، والخطابية أعم من الجدلية، ومنها ما هي خاصة بأقل الناس، وهي البرهانية".

وكان الشرع مقصوده الأول العناية بالأكثر من غير إغفال لتنبيه الخواص كانت أكثر الطرق المصرح بها في الشريعة الإسلامية على أربعة أصناف:

الصنف الأول: أن تكون مع أنها مشتركة خاصة بالأمرين جميعًا، أعني: أن تكون في التصور، والتصوير يقينية مع أنها خطابية، أو جدلية، وهذه المقاييس هي المقاييس التي عرض لمقدساتها مع كونها مشهورة أو مظنونة، أو تكون يقينية، وعرض لنتائجها أن أخذت نفسها دون مثالاتها، وهذا الصنف من الأقاويل الشرعية ليس له تأويل، والجاحد له أو المتأول كافر.

الصنف الثاني: أن تكون المقدمات مع كونها مشهورة أو مظنونة يقينية، وتكون النتائج مثالات للأمور التي قصد إنتاجها، وهذا يتطرق إليه التأويل، أعني: لنتائجه.

الصنف الثالث: عكس هذا، وهو أن تكون النتائج هي الأمور التي قصد لنتائجها نفسها وتكون المقدمات مشهورة، أو مظنونة من غير أن يعرض لها؛ لأن تكون يقينية، وهذا أيضًا لا يتطرق إليه تأويل، أعني: لنتائجه، وقد يتطرق لمقدماته.

الصنف الرابع: أن تكون مقدماته مشهورة، أو منظومة من غير أن تعرض لما أن تكون يقينية، وتكون نتائجه مثالات لما قصد إنتاجه، وهذه فرض الخواص فيها تأويل، وفرض الجمهور إمرارها على ظاهرها؛ وبالجملة فكل ما يتطرق إليه من هذه التأويل لا يدرك إلا بالبرهان، ففرض الخواص فيه هو ذلك التأويل، وفرض الجمهور هو حملها على ظاهرها في الوجهين جميعًا -أعني: في التصور والتصديق- إذ كان ليس في طباعهم أكثر من ذلك.

وقد يعرض للناظر في الشريعة تأويلات من قبل تفاضل الطرق المشتركة بعضها على بعض في التصديق.

بهذا الهدي الكريم، وبذلك الحق المبين، وبتلك الدلائل البينات، وعظ القرآن الكريم وجادل، فمن أي الأنواع دلائله، ومن أي الأصناف حججه، أهي من قبيل الأدلة البرهانية، أم من قبيل الأدلة الجدلية أم من قبيل الأدلة الخطابية؟

فنجيب: قال ابن رشد: "إن أدلة القرآن من قبيل الأدلة الجدلية والخطابية" وقال: "إن أكثرها خطابي، وبعضها جدلي قصد فيه الإلزام الإفحام". في الحق أن أسلوب القرآن أسمى من الخطابة، وأسمى من المنطق؛ فبينما تراه قد اعتمد في مسالكه على الأمر المحسوس، أو الأمور البديهية التي لا يماري فيها عاقل، ولا يشك فيها إنسان تراه قد تحلل من بعض قيود المنطق التي تتعلق بالأقيسة وأنماطها، والقضايا وأشكالها من غير أن يخل ذلك بدقة التصوير، وإحكام التحقيق، وصدق كل ما اشتمل عليه من مقدمات العقل وثمرات المنطق.

ولهذا نحن لا نعد أسلوب القرآن الكريم منطقًا، وإن كان فيه صدقه وتحقيقه، وهو إلى الأسلوب الخطابي أقرب، وإنه كان كله حقًّا لا ريب فيه؛ لأنه تنزيل من

حكيم حميد، وإنك لترى كثيرًا من أوصاف الأسلوب الخطابي قد أتى القرآن الكريم فيها بالمثل الكامل، فتصريف فنون القول من استفهام إلى تقرير إلى أخبار قد نحى فيه القرآن الكريم مناحي تعلو على قدر البشر، وكثير من أشكال الأقيسة الخطابية تراه قد استعمل في القرآن الكريم على مثال أكمل من استعمل في الخطابة.

ونستطيع أن نذكر بعض مناحي القرآن الكريم فقي الاستدلال ولا نستطيع لها إحصاءً، ومن مناحيه في الاستدلال الأقيسة الإضمارية، وهي الأقيسة التي تحذف فيها إحدى المقدمات، وهي شائعة الاستخدام في الاستدلال الخطابي.

قال ابن سينا في (الشفاء): "الخطابة معولة على الضمير والتمثيل، وإن الناظر في أدلة القرآن الكريم المستقرئ لها يرى أكثرها قد حذفت فيه إحدى المقدمات". ولقد قال الغزالي: "الحق إن القرآن مبناه الحذف والإيجاز" واقرأ قوله تعالى يرد على النصارى الذين يزعمون أن عيسى ابن الله؛ لأنه خُلِقَ من غير أب: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

ألا ترى في هذا دليلًا قويًّا مبطلًا لما يدعون، وفي الوقت نفسه لم تذكر فيه سوى مقدمة واحدة، وهي إثبات مماثلة آدم لعيسى، وطوى ما عاداها، وكان سياق الدليل هكذا: إن آدم خلق من غير أب كعيسى فلو كان عيسى ابنًا بسبب ذلك لكان آدم أولى، لكن آدم ليس ابنًا لاعترافكم، فعيسى ليس ابنًا أيضًا.

وأنت ترى أن حذف عبارة المقدمات قد أعطى الكلام طلاوةً، وكسبه رونقًا، وجعل الجملة مثلًا مأثورًا يفيد في الرد على النصارى، وفي الوعظ العام؛ إذ هو يذكر الجميع بأن آدم والناس جميعًا ينتهون إليه من تراب، وهكذا يرى المتتبع لكثير مما في القرآن الكريم من استدلال، وما يشتمل عليه من احتجاج.

القصص

القصص:

ومن الأساليب التي اتخذها القرآن طريقًا للإقناع والتأثير: القصص، وتضمين القصة الأدلة على بطلان ما يعتقد المشركون وغيرهم، وقد يكون موضوع القصص رجلًا محترمًا ممن يجادلهم القرآن الكريم، إذ يدعون محاكاته في دينه وإتباعه في ملته فيجيء برهان الله على لسانه؛ فيكون ذلك أكثر اجتذابًا لأفهامهم، وأقوى تأثيرًا في القلوب.

انظر إلى قصة إبراهيم # مع أبيه وقصته مع قومه ترى في القصتين أدلة واضحة قوية تثبت بطلان عبادة الأوثان؛ وذلك لأن إبراهيم # كان شرفُ العرب، ومحتدُّهم الذي إليه ينتسبون، وقد كانوا يزعمون أنهم على ملته، فإذا جاءهم الخبر عنه بأنه كان موحدًا، وسيق لهم كان يحتج به على قومه، وأبيه كان ذلك مؤثرًا، أي: تأثير في قلوبهم.

ومن ذلك قوله تعالى حاكيًا قول إبراهيم لأبيه؛ ليبين له بطلان عبادة الأوثان: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ ﴾ [مريم: ٤١: ٤٣].

ألا ترى أن الكلام متضمن إبطال عبادة الأوثان على أبلغ وجه؟ إذ بين أنها لا تسمع، ولا تبصر فهي دون الإنسان، وكيف يعبد الإنسان ما دونه وفوق ذلك فالعبادة دعاء، وكيف يدعو الإنسان ما لا يسمع ولا يبصر، وإن مجيء الدليل

ضمن خبر لرجل يعترف بفضله المجادلون يعطي الدليل قوة فوق قوته لذاته، إذ تكون الحجة قد أقيمت عليهم من جهتين؛ من جهة الدليل في ذاته، ومن جهة أن ذي قاله رجل محترم في نظرهم يدعون هم أنهم أتباعه، فهم ملزمون بقوله: مأخوذون برأيه.

وقد يجيء الدليل أحيانًا على لسان حيوان في قصة؛ فيكون في ذلك غرابة تسترعي الذهن، وتثير الانتباه، وتملأ النفس بالحقيقة إيمانًا، كما جاء دليل التوحيد على لسان الهدهد في سورة "النمل"؛ إذ يقول الله سبحانه وتعالى حاكيًا عن سيدنا سليمان # : ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٠- ٢٦].

المنهج الجدلي (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول : قياس الخلف، والسبر والتقسيم، والتمثيل ١٠١

العنصر الثاني : الانتقال، والاستدلال بالتحدي على صدق الدعوى ١١٢

قياس الخلف، والسبر والتقسيم، والتمثيل

قياس الخلف:

وهو الذي يتجه فيه إلى إثبات المطلوب بإبطال نقيضه، وقد يتجه إليه القرآن الكريم في استدلاله، كإثباته ﷻ الوحدانية بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقوله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٤٢].

وكإثبات الله ﷻ أن القرآن الكريم من عند الله بقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء: ٨٢]، ففي كل هذه الآيات الكريمة قد أثبت المطلوب بإبطال نقيضه، وأنت ترى أن حذف بعض المقدمات في كلها يدل على كثرة الإضمار في دلائل القرآن الكريم.

السبر والتقسيم:

هو باب من أبواب الجدل يتخذه المجادل حجة لإبطال كلام خصمه بأن يذكر أقسام الموضوع المجادل فيه، ويبين أن ليس من خواص واحدًا منها ما يوجب الدعوى التي يدعيها الخصم، وقد ذكر السيوطي أن من أمثلته في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن

﴿كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ
أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ
وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ
عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (١٤٤)﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

وبيَّنَ السيوطي وجهَ الاستدلال فقال: إن الكفار لما حرموا ذكور الأنعام تارة وإناثها أخرى رد الله تعالى ذلك عليهم بطريق السبر والتقسيم فقال: إن الخلق لله تعالى خلق من كل زوج مما ذكر ذكرًا وأنثى؛ فمما جاء به تحريم مما ذكرتم -أي: ما علته- لا يخلو إما أن يكون من جهة الذكورة، أو الأنوثة، أو اشتمال الرحم الشامل لهما، أو لا يدري له علة، وهو التعبدي بأن يأخذ ذلك عن الله تعالى، والأخذ عن الله تعالى إما بوحي، وإرسال رسول أو سماع كلامه، ومشاهدة تلقي ذلك عنه، وهو معنى قوله: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا﴾.

فهذه وجوه التحرير، ثم لا تخرج عن واحدٍ منها:

الأول: يلزم عليه أن يكون جميع الذكور حرامًا.

الثاني: يلزم عليه أن تكون جميع الإناث حرمًا.

الثالث: يلزم عليه تحريم الصنفين معًا، فبطل ما فعلوه من تحريم بعض في حالة وبعض في حالة؛ لأن العلة على ما ذكر تقتضي إطلاق التحريم، والأخذ عن الله تعالى بلا واسطة باطل، ولم يدعوه وبواسطة رسول كذلك؛ لأنه لم يأتِ إليهم رسولٌ قبلَ النبيِّ ﷺ وإذا بطل جميع ذلك ثبت المدَّعَى، وهو أن ما قالوه افتراء على الله تعالى وضلال.

التمثيل:

هو أن يقيس المستدل الأمر الذي يدعيه على أمر معروف ويبين الجهة الجامعة بينهما، والآيات الكريمة التي تنهج ذلك المنهج كثيرة انظر قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج: ٥ - ٧].

ألا تراه ﷻ قاس أمر الإعادة للإنسان خلقًا سويًّا في الحياة الآخرة الذي كان يثير استغراب العرب على الأمر الذي ليس موضع ريب، ولا مجال للشك فيه، وهو الإنشاء الأول، وكان القياس على أبلغ وجه وأجمل أسلوب قد التقى فيه الجلال والكمال والجمال.

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة "يس" حاكيًا اعتراض المشركين، والرد عليهم: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [يس: ٧٨ - ٨١].

وهكذا في القرآن الكريم شيء كثير في هذا الباب بلغ من سمو البيان أقصاه، وبلغ من قمته أعلاها، وأخص ما يتجه إليه سنة التدرج من المحسوس إلى المعقول، ومن المُشَاهَدِ إلى الغائب في بيان يأخذ بالألباب، ويقطع كل مجادل مرتاب.

هذا، ويلاحظ القارئ للقرآن الكريم المتتبع لأحكامه المتبصرُ في أدلته أن جدل القرآن الكريم يتجه أحيانًا كثيرة إلى إرشاد المجادل، والأخذ بيده إلى الحق، وتوجيه نظره إلى حقائق الأشياء، وما في الكون من عبر، كما ترى في قوله تعالت كلماته: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾ [ق: ٦- ١١].

وكما ترى في قوله تعالى في سورة "الرحمن": ٱلرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرحمن: ١- ١٦] إلى آخره.

وفي هذا ترى الجدل متجهًا كل الاتجاه إلى الإرشاد، والأخذ بيد السامعين إلى الحقيقة السامية، وهي توحيد الله -جل وعلا- وأحيانًا يبتدئ بإلزام المجادل وإفحامه ثم يأخذ بيده إلى الحقيقة، إذ يبينها له واضحة كاملة -كما ترى- في قوله تعالى ردًّا على ما زعمه المشركون من أن الرسول يجب أن يكون ملكًا وقالوا: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَـٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَـٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

وكما ترى في ردِّهِ -سبحانه تعالى- على اليهود عندما ادَّعُوا أنه قد عهد إليهم ألا يؤمنوا برسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، فقد قال ﷻ حاكيًا ورادًّا عليهم: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٨٣] وكما يُرى في قوله تعالى يرد على من أنكر أن ينزل الله على بشر شيئًا، فقد قال -جلت قدرته-: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ [الأنعام: ٩١].

وفي هذه الآيات كلها ترى الإلزام المفحم والحجة القاطعة، والفيصل الفارق قد ألزم به الخصم وأدحضت حجته، وأرشد إلى المحاجَّةِ، ووضعت له الصور والأعلام؛ ليسير على الجادة بعد أن بدت، وأذهب ضوء الحق ظلام فكره، فمن أبى واستكبر بعد ذلك فهو من الأخسرين أعمالًا.

وعند توجيه الله ﷻ نظر المجادل أو القارئ إلى الحقائق من غير اتجاه إلى إلزام من أول الأمر أو بعد إلزامه، وإفحامه يكون تصاريف البيان، ومناحي التأثير، والعبارات التي تخاطب الوجدان وتمس مواطن الإحساس تتنوع المناهج، وتتكرر المعاني من أن تفقد جدتها وطلاوتها، بل مع التكرار تزداد الفائدة، وتكثر الثمرات، وتتنوع الأساليب من استفهام إلى تعجب إلى تهديد إلى إخبار، ويختلف الاتجاه إلى مواضع الاستدلال ومصادره.

فمرة يكون الاستدلال برد المسائل إلى أمور بديهية معرفة، أو حقائق مشهورة مألوفة يخر بين يديها المجادل صاغرًا، كما ترى في رد الله ﷻ على من زعم أن لله ولدًا إذ يقول: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣ ﴾ [الأنعام: ١٠١- ١٠٣].

ألا تراه سبحانه قد استدل على بطلان أن يكون له ولد سبحانه بأمر معروف مألوف لا يماري فيه أحد، وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبة، ولم يدَّعِ أحد أن له سبحانه صاحبة، فيجب ألا يكون له ولد، وأحيانًا يضرب ﷻ الأمثالَ ليقرب الحقائق للأفهام ويدْنِيها من الأنام.

ومن ذلك قوله تعالى في الرد على من يعبدون الأصنام: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النحل: ٦٧ - ٧٣].

ففي هذه الآيات الكريمة قد بيَّن ﷻ بطلان عبادة الأوثان لأنها لا تملك رزقًا، ولا تنفع ولا تضر، وضرب مثلين يبينان أنه لا يستوي في عُرْفِ الناس ومألوفهم غير القادر مع القادر؛ فكيف يسوي الوثني بين القادر سبحانه، وبين أحجار لا تنفع ولا تضر؟

وأحيانًا يوجه نظر الناس إلى المخلوقات، وإلى ما في الكون مما يدل على قدرة الصانع وعلم المبدع وإرادة الجبار، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ

ٱللَّهُ مِن ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وأحيانًا يقص ﷻ على الناس خبر قوم كانت حالهم كحال من يثبت بطلان اعتقادهم مضمنًا القصص الأدلة على بطلان ما يعتقدون وصحة ما يدعو إليه النبي ﷺ ولنكتفي هنا بالتيمن بقراءة هذه الآيات الكريمة المشتملة على أروع القصص، وأبلغ الاستدلال وهي قول الله تعالى في سورة "الشعراء": ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٩- ٨٥].

ويلاحظ أن القرآن الكريم في الجدل الذي يلزم الخصم ويفحمه يجيئه في الإفحام من أقرب الطرق وأشدها إلزامًا، ومن ذلك ما حكاه الله ﷻ في مجادلة إبراهيم لمدعي الألوهية، فقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وقد مرت بك آيات أخرى منها يتبين كيف كان الإلزام من أقرب طريق، وطرق القرآن الكريم في هذا كثيرة:

الأولى: التحدي، كما تحدى الله ﷻ بالقرآن، وكما تحدى إبراهيم مدعي الألوهية بأن يأتي بالشمس من المغرب.

الثانية: والأخذ بموجب كلام الخصم واستنباط ما يريده، من ذلك قوله تعالى في شأن المنافقين والرد عليهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

الثالثة: مجاراة الخصم فيما يقول ثم التعقيب عليه بما يبطل مدعاه، ومن ذلك قوله تعالى حاكيا عن الرسل مع أقوامهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم: ١٠، ١١].

فترى ذلك أن الرسل سلموا بالمقدمة التي بنى عليه الأقوام رفضهم ولكنهم نقضوا النتيجة بقولهم: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ فكأنهم قالوا: ما قلتموه من أننا بشر حق، ولكن ما تريدون أن تبنوه عليه من إثبات أننا لسنا برسل باطل به؛ لأن الله يمن على من يشاء من عباده، فلا مانع من أن يَمُنَّ علينَا بالرسالة.

هذه قبسة من ذلك النور العظيم الذي أضاء الله به الخليقة لتهتدي الأجيال بهديه، وتسير على ضوئه، وما أردنا بذلك البيان إحصاءً لطرق القرآن الكريم في استدلاله، ولا استقراء لمسالكه في جدله، فدون ذلك تنفق القوى، ويقصر الشأو، ولكن أردنا أن يرى القارئ الكريم مثلًا من طرق جدل القرآن الكريم،

وكيف كانت أعلى من المنطق تدقيقًا، وإن لم تتقيد بأساليب المناطقة، ولا بأشكال الأقيسة ففيها التقديم والتأخير والحذف والإطناب تبعًا لحسن البيان، لا تبعًا لأشكال البرهان، وكانت مع ذلك أعلى من الخطابة وإن كان بيانه المثل الأعلى للخطباء.

ولو أن المتكلمين الذين عنوا بإثبات العقائد والجدل فيها سلكوا مسلك القرآن الكريم، وساروا في سمته لكان علمهم أكثر فائدة، وأدنى جنى وأينع ثمارًا، ولكنهم سلكوا مسلك المنطق، وقيوده، والبرهان وأشكاله، فكان علمهم للخاصة من غير أن يفيد العامة.

وقد وازن الغزالي بين طريق القرآن الكريم، وطريق المتكلمين في رسالة (إلجام العوام عن علم الكلام) وقال في ذلك: "أدلة القرآن الكريم مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان، وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس، ويستضر به الأكثرون، بل إن أدلة القرآن الكريم كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوي، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة، ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلًا".

قد استنبط الغزالي من القرآن الكريم خمسة من أشكال الاستدلال سماها ميزان التعادل الأكبر، وميزان التعادل الأوسط، وميزان التعادل الأصغر، وميزان التلازم، وميزان التعاند.

ومثَّل للأول بما جاء على لسان إبراهيم # في مجادلته مدعي الألوهية؛ إذ قال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ ﴾.

وقال أبو حامد في ذلك: "رأيت في هذه الحجة أصلين قد ازدوجا؛ فتولد منهما نتيجة هي المعرفة؛ إذ القرآن الكريم مبنَاهُ على الحذف والإيجاز، وكمال صورة

هذا البيان كلُ من يقدر على إطلاع الشمس فهو الإله، فهذا أصل، وإلهي هو القادر على الإطلاع، وهذا أصل آخر؛ فلزم من مجموعهما أن إلهي هو الإله دونك يا نمروذ".

ومثّلَ للثاني بقوله تعالى حاكيًا عن إبراهيم # : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦] ويقول في بيانه، وكمال صورة هذا الميزان: إن النجم آفل، والإله ليس بآفل، فالقمر ليس بإله، ويفرق بينه وبين الأول، أما هذا فأحدهما موجب والآخر سالبه.

ومثّل للثالث بقوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾.

ويفرق بينه وبين السابقين بأن نتيجته جزئية وهي إثبات إنزال الله ﷻ الكتب على بعض البشر ومثل للرابع بقوله تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾، ومثل الخامس بقوله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [سبأ: ٢٤].

ويقول -رحمه الله- بعد بيان هذه الأقسام: سميت الأول ميزان التعادل الأكبر والأوسط والأصغر؛ لأن فيه أصلين متعادلين، كأنهما كفتان متحازيتان، وسميت الثاني ميزان التلازم لأن أحد الأصلين يشتمل على جزأين أحدهما لازم والآخر ملزوم كقوله تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ فإن قوله تعالى: ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ لازم، والملزوم قوله تعالى: ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ ﴾ ولزمت النتيجة من نفي اللازم؛ فسميت الثالث ميزان التعاند لأنه رجع إلى حصر قسمين بين النفي والإثبات يلزم من ثبوت أحدهما نفي الآخر، ومن نفي أحدهما ثبوت الآخر؛ فبين القسمين تعاند وتضاد.

وفي الحق: إن الناس لو شغلوا بدراسة القرآن، وما فيه من استدلال لينهجوا على نهجه، ويسيروا في طريقه؛ لكان لهم من ذلك علمٌ كثير؛ فإن القرآن الكريم قد اشتمل على مناهجَ في الاستدلال والجدل، والتأثير تكشف عن أدق نواميس النفس الإنسانية، وتبين شيئًا كثيرًا من أحوال الجماعات النفسية والفكرية، وفيه الطب لأدوائها، والعلاج الناجع لأمراضها والدواء الشافي لعللها، وفي مناهجه البيانية المثل الأعلى للكلام المؤثر والحج الدامغة، واعتبر ذلك بأثره في مخالفيه من المشركين وأثره في المسلمين الأولين.

ولقد بلغ من أثره في المشركين أن كل من كان يسمعه يناله من نوره قبس، سمع الوليد بن المغيرة النبي ﷺ يقرأ القرآن الكريم فقال مخاطبًا قريش: "فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدة منه، والله ما يشبه الذي يقول شيء من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، وإنه لمغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته"، وكان كل ما داناه منهم مس نوره قلبه، ونال وجدانه أثره حتى لقد تناهى زعماؤهم عن سماعِهِ، وتعاهدُوا على ذلك؛ لما رأوْهُ من ميلِ كُلِّ من سمعه للإيمان.

فقد كان من أثر القرآن في المؤمنين الأولين أن عكفُوا عليه يرتلونه ويتفهمونه، ويتعرفون أحكامه، ومراميه، وجعلوه معلمهم الأول، ومرجعهم إذا اختلفوا، ومنهل العقائد ينهلون منه ما يقوي إيمانهم، ويثبت يقينهم، ولم يعرفوا حجة سواه، ولا محجة غير طريقه وهديه، به يجادلون، وعن هديه يصدرون.

الانتقال، والاستدلال بالتحدي على صدق الدعوى

الانتقال:

هو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان آخذًا فيه لكون الخصم لم يفهم وجه الدلالة من الأول، أو لجأ إلى المغالطة في الدليل، ويوضح ذلك السيوطي بقوله كما جاء في مناظرة الخليل الجبار لما قال له، أي: قال الخليل إبراهيم للنمروذ الجبار: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ فقال الجبار: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ﴾ ثم دعا بمن وجب عليه القتل فأعتقه، ومن لا يجب عليه القتل فقتله؛ فعلم الخليل أنه لم يفهم معنى الإحياء والإماتة أو علم ذلك وغالط لهذا الفعل.

فانتقل الخليل # إلى استدلال لا يجد له الجبار وجهًا يتخلص به منه، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فانقطع الجبار وبهت، ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتي بها من المشرق والانتقال من استدلال إلى غيره لا بد فيه من دقة فهم الداعي، وتحديد حالة خصمه؛ لينتقل إلى الاستدلال الذي يفحمه ويلزمه التسليم.

الاستدلال بالتحدي على صدق الدعوى:

ومن هذا المسلك معارضة المشركين للرسول ﷺ في القرآن، وتشكيكهم في نسبته إلى الله تعالى، حيث كانوا يدعون أنه من عند محمد ﷺ وليس من عند الله، إلا أن القرآن قد رد عليهم مرتكزًا على حقيقتين:

الأولى: نقد جميع المعارضات التي أوردها المشركون، وكشف ما تنطوي عليه من شُبَهٍ وملابسات.

الثانية: الاستدلال بالتحدي على صدقِ الرسول ﷺ فيما يبلغ عن الله تعالى، ولقد أسرف المشركون أكثروا من المعارضات والخوض في القرآن الكريم، وحاولوا نقده، فتارةً يقولون: إن النبي ﷺ قد تعلم القرآن من غلام أعجمي، وتارة يقولون: هو أخبار وقصص السابقين جمعها الرسول واكتتبها، وقد رد القرآن على الزعم الأول، وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وعن الزعم الثاني فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقد نقد القرآن دعوى أن القرآن من تعليم غلام أعجمي، وأنه أساطير الأولين، وأخبار السابقين، وأنه من وضع البشر، وليس من عند الله لأمور ثلاثة:

أولًا: القرآن الكريم جاء باللغة العربية الفصحى التي تأخذ بالألباب وتعجز أرباب الفصاحة والبيان، فكيف يعقل أن يتكلم غلام أعجمي بمثل هذا الأسلوب العربي الذي أعجز فصحاء العرب لسان الذي يلحدون إليه يعنون حبر الرومي غلام عامر بن الحضرمي، وقيل: أعاجم غيره، وكان هذا الغلام لبعض بطون قريش، وكان بياعًا يبيع عند الصفا، يعرف الشيء اليسير بقدر ما يرد جواب الخطاب فيما لا بد منه؛ فلهذا قال الله ردًّا عليهم في افترائهم ذلك: ﴿لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا﴾ -أي: القرآن- ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته من رجل أعجمي لا يقول هذا من له أدنى مزحة من العقل وتقرير هذا الرد يحمل وجهين:

الأول: أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أنتم، والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل، فكيف يكون ما تلقفه منه.

الثاني: هب أنه تعلم منه المعلم باستماع كلامه، لكن لم يتلقف منه اللفظ؛ لأن ذلك أعجمي وهذا عربي، والقرآن كما هو معجز من حيث المعنى، فهو معجز من حيث اللفظ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلمٍ فائقٍ في تلك العلوم مدة متطاولة، فكيف تعلم ذلك من غلام سوقي سمع منه في بعض أوقات مروره عليه كلمات أعجمية تعلمها لم يعرف معناها، وطعنهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل غاية عجزهم.

ثانيًا: إذا كان القرآن من وضع البشر فلماذا لا يقدرون على الإتيان بمثله فهم بشر كذلك، وأرباب فصاحة وبلاغة وبيان، فهو على إدعائهم من البشر مثلهم له من القدرة ما لهم، وقد تحدى القرآن بذلك في مواضع عديدة وعلى مستويات مختلفة:

أولًا: تحداهم في الإتيان بمثله فقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] أي: ولو تظاهروا على الإتيان بمثله.

ثانيًا: تحداهم بالإتيان بعشر سور من مثله فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣] ولكنهم عجزوا كذلك عن الإتيان والمعارضة.

ثالثًا: تحداهم في الإتيان بسورة من مثله فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس: ٣٨] فعجزوا عن الكل، ولم يأتوا بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة، ولا بقليل ولا بكثير.

وقد سلكوا مع الرسول ﷺ مسالك شتى ساوموه بالمال والملك؛ ليكف عن دعوته، وقاطعوه ومن معه ليموت جوعًا، واتهموه بالسحر والجنون، وتآمروا

على حبسه، أو قتله أو إخراجه، وقد دلهم على الطريق الوحيد لإسكاته، وهو أن يجيئوه بكلام مثل الذي جاءهم به، ألم يكن ذلك الأقرب إليهم والأبقى عليه، لو كان أمره في يدهم؟ ولكنهم طرقوا الأبواب كلها إلا هذا الباب، فأي شيء يكون العجز إن لم يكن هذا هو العجز؟!

والقرآن الذي عجزوا عن معارضته لم يخرج عن سنن كلامهم ألفاظًا وحروفًا وتركيبًا وأسلوبًا، ولكنه في اتساق حروفه، وطلاوة عبارته، وحلاوة أسلوبه وجرس آياته، ومراعاة مقتضيات الحال في ألوان البيان بلغ الذروة التي تعجز أمامها القدرة اللغوية لدى البشر.

ثالثًا: أن الرسول ﷺ رجل أمي، وقد لبث في قومه زهاء أربعين سنة لا يتحدث بشيء من القرآن، ثم ظهر في مجتمع أمي تسوده الفوضى والعصبية الهوجاء، ومع ذلك أتى بأخبار السابقين، وما فيها من العلوم الغيبية التي ليست في مقدور البشر، فأتى بهذا التشريع المحكم، والنظام العام الذي تحدى به كل نظام وضعي إلى الأبد، فأنى لرجل مثل محمد ﷺ بمثل ذلك من العلم والدقة إلا تنزيلًا من حكيم حميد.

ويقول الدكتور عبد الكريم زيدان عن نفس الجزئية: من المفيد أن نقدم بعض الأدلة لإثبات نبوة محمد ﷺ من هذه الأدلة سيرته العطرة من نشأته حتى وفاته، فهي سيرة طيبة عطرة لا يمكن أن يكون صاحبها كذابًا يدعي على الله ما ليس فيه، وهذا الدليل يكفي لذوي العقول السليمة والفطر السوية.

ومن الأدلة هذه الشريعة العظيمة في جميع جوانبها التي يستحيل صدورها عن رجل أمي عاش في ذلك المجتمع العربي، فلو لم تكن تشريعًا إلهيًّا لما أمكن لأحدٍ أن يأتي بها مهما كان نضوجه العقلي، واتساع أفق تفكيره؛ حيث وضع الإسلام نظم واضحة لكل مجالات التعامل الإنساني سعدت بها البشرية.

ونرى اليوم مؤسسات بشرية بأعداد مهولة من الخبراء، والأجهزة الحديثة لتدير نظامًا واحدًا كالنظام الاقتصادي، أو النظام العسكري، أو غيرهما، ومع ذلك يقع الخلل؛ فأنى لرجلٍ أمي أن يعقد لهذه الأنظمة، إنه الوحي الإلهي، والتشريع من الله رب العالمين.

من الأمور المسلم بها أن القرآن الكريم أعجز العرب وهم أهل الفصاحة والبيان عن معارضته، أو الإتيان بمثله أو بمثل سورة منه، وبعجزهم هذا قامت عليهم الحجة، ولزمهم الإيمان برسول الله ﷺ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤].

فإن المعنى إن كنتم في شك من القرآن فأتوا بسورة من مثله، والضمير عائد على القرآن، أي: مثل القرآن، أو على عبدنا، وهو محمد ﷺ أي أتوا بسورة من بشر آدمي مثله لا يكتب ولا يقرأ على زعم أنه من عند محمد ﷺ وليس من عند الله كما تدعون، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا في الماضي والحاضر والمستقبل، وثبت عجزكم عن ذلك، فاتقوا النار بتصديق محمد ﷺ لقيام الدليل والبرهان على صدقهِ ونبوتِهِ.

المنهج الجدلي (٣)

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	من النماذج التي ذكرها القرآن الكريم على المجادلة	١١٩
العنصر الثاني	:	الجدل في عصر النبوة	١٢١
العنصر الثالث	:	جدل النبي ﷺ مع اليهود والنصارى	١٣٠

من النماذج التي ذكرها القرآن الكريم على المجادلة

ومن النماذج التي ذكرها القرآن الكريم على المجادلة:

مجادلة نوح # لقومه في دعوتهم إلى توحيد العبادة، وتذكيرهم بالله تعالى، وبما ينبغي له سبحانه من التوحيد الكامل، وعدم الإشراك به يقول الله تعالى:
﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ
إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ
لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ
أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ
وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا
تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ
وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [هود: ٢٥- ٣٣].

جدال شعيب # لقومه ومناظرته لهم بقصد دعوتهم لعبادة الله تعالى وتوحيده وعدم الكفر به والفساد في الأرض من تطفيف المكيال والميزان، وأكل أموال الناس بغير وجه حق يقول الله تعالى موضحًا ذلك، وما دار بينهم: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ
أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ
وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ

أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ
فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم
بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن
نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن
كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ
عَنْهُۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾
وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ
صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى
رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا
رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ
وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ
مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ
وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ ﴾ [هود: ٨٤- ٩٣].

مجادلة مؤمن آل فرعون لقومه، وما دار بينهم من محاجات، ومناظرة وتبكيته لهم، وتذكيرهم بما هم عليه من النعم والخيرات العظيمة، وأن ذلك كثير باحترامهم لنبي الله ﷺ وعدم إيذائه، ولكنهم عاندوا وجادلوا بالباطل إلى أن حل بهم سوء العذاب يقول الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ
يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن
يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن

يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ
دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ
هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [غافر: ٢٨- ٣٣].

ثم ذكرهم بما جاءهم من البينات وحذرهم من المجادلة الباطلة، وطلب منهم إتباع كلامه وإرشاده لهم ولكنهم عاندوا وكابروا وجحدوا فكانت النتيجة: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥].

الجـــدل في عـــصر النبـــوة

الجدل في عصر النبوة:

جاء النبي ﷺ بدين يخالف كل الأديان التي كانت في البلاد العربية في عقائده وعباداته وشرائعه الاجتماعية وآدابه الخلقية من بعد أن كان يسود البلاد العربية عبادة الأوثان جاءهم محمد ﷺ بعبادة إله واحد هو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، ولكل إنسان أن يدعو الله فيجيبه من غير وساطة: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

وأن يفهم الدين كتاب وسنة رسوله من غير توسيط أحد، فليس لأحد كائنًا من كان سلطة على الناس في عقائدهم، وبذلك خالف دين محمد اليهود والنصارى الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، وقد آمن النبي ﷺ وتابعوه، كما أمرهم ذلك الدين الحنيف بالأنبياء السابقين، فخالف بذلك اليهود

والنصارى أيضًا الذين يريدون ألا يعترفوا بغير اليهودية أو النصرانية دينًا، وقالوا: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٥- ١٣٧].

دعا ذلك الدين الجديد إلى الإيمان بحياة أخرى فيها يجزى الإنسان بالخير خيرًا، والشر شرًّا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وبذلك خالف ما كان عليه بعض المشركين من إنكار البعث والنشور، فقد قالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، خالف ذلك الدين في آدابه وشرائعه كثيرًا مما كان عليه المشركون في الجاهلية، وحرم الدعوة إلى العصبية الجاهلية فقال ﷺ: ((ليس منا من دعا إلى عصبية، أو قاتل على عصبية)).

وإن شئت أن تعرف خلاصة ما جاء به ذلك الدين مخالفًا ما كان عليه العرب في جاهليتهم، فاستمع إلى ما روي عن جعفر بن أبي طالب إذ قال مخاطبًا النجاشي ملك الحبشة: "كنا قومًا أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولًا منا نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به

شيئًا، وأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصيام، فصدقناه وآمنا به، فعدى علينا قومنا فعذبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من دون الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحله من الخبائث فلما قهرونا، وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا".

جاء محمد ﷺ بكل ذلك؛ فخالف العرب قاطبة في كل ما كانت عليه من عبادة، فكان طبيعيًّا أن تحدث دعوته هذه حركة فكرية جدلية واسعة النطاق، وأن تكون شاغلًا للذهن العربي حقبة طويلة من الزمان، بل إن الإنسان لا يعدو الحقيقة إذا قال: إن النبي ﷺ بمجرد أن دوى صوته الرهيب في الجزيرة العربية مناديًا العرب عامة وقريشًا خاصة قائلًا: ((إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم، ولو غررت الناس ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتجزون بالإحسان إحسانًا، وبالشر شرًّا، وإنها للجنة أبدًا أو النار أبدًا، وإنكم لأولُ من أُنْذِرَ بين يديْ عذابٍ شديد)).

بمجرد أن نادى النبي ﷺ ذلك النداء صارت الجزيرة كلها تتحدث في شأنِهِ، وتتجادلُ في أمره بين حائرٍ مضطربٍ، بين قديم قد ألفه، وجديد قد عرفه، ومنكرٍ مُلَاحٍ؛ لأنه رأى في الجديد ما يناقض غاياته ومآربه، وميال إلى ما قال النبي ﷺ لأنه رأى فيه وضح الحق المبين، بل إن الجدل في شأن النبي ﷺ تجاوز في عصره ربوع البلاد العربية إلى الروم والفرس والحبشة، كما رأيت من كلام جعفر بن أبي طالب للنجاشي.

والجدل في عصر النبي ﷺ:

الأول: جدل النبي ﷺ مع المشركين.

الثاني: وجدله ﷺ مع اليهود والنصارى.

أما عن جدل النبي ﷺ مع المشركين: فقد دعا النبي ﷺ إلى ربه بالحسنى، وبَيَّنَ لهم عقيدة الإسلام بالتي هي أحسن.

يقول ابن جرير الطبري في تاريخه: "صدع رسول الله ﷺ بأمر الله، ونادى قومه بالإسلام، فلما فعل ذلك لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه بعض الرد فيما بلغني حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك ناكروه، وأجمعوا على خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم بالإسلام وهم قليلٌ مستخْفُون".

ويفهم من هذا: أن المشركين عندما ناداهم رسول الله ﷺ بالدعوة أعرضوا ونفروا، ولكن لم يظهروا له عداوة، ويظهر أن النبي ﷺ لاحظ ذلك الإعراض، فأراد أن يجذبهم إلى مناقشته والمناقشة بين الأكفاء محك الصواب، ومخبار الحقيقة، فذكر آلهتهم، وبين بطلان عبادتها، فأقبلوا مجادلين، ولكن الجدل باللسان أعجزهم، وهم القوم الخَصِمُون، فعمدوا إلى الاستهزاء والسخرية، وأغروا السفهاء به ﷺ.

ثم انتقل الأمر من جدلٍ ومقارعةٍ بالحجة إلى اضطهاد ومقاطعة للنبي ﷺ مما تعلم أمره في السيرة النبوية، وهنا نذكر لك شيئًا من جدلهم له ﷺ يصور لك حالهم، ويبين مآلهم جاء في (سيرة ابن هشام): "أن المشركين عندما ضاقوا بالنبي ﷺ وذهبت معه كل حيلة لهم، وبعثوا إليه ليكلموه، ويخاصموه فجاء إليهم ﷺ فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلًا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك؛ لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من

أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا؛ فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه، قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: ((ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولًا، وأنزل علي كتابه، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم)).

قالوا: يا محمد فإن كنت غير قابل منا شيئًا مما عرضنا عليك؛ فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلدًا، ولا أقل ماءً، ولا أشد عيشًا منا فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التي ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولًا كما تقول.

فقال لهم ﷺ: ((ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله تعالى؛ حتى يحكم الله بيني وبينكم)).

قالوا: فإذا لم تفعل فسل ربك أن يبعث ملكًا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانًا وقصورًا وكنوزًا من ذهب وفضة نعينك بها على

ما نراك تبتغي، فإنك تقوم في الأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه حتى نعرف فضلك، ومنزلتك عند ربك إن كنت رسولًا كما تزعم؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: ((ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذه، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم))، قالوا: فأسقط علينا كسفًا من السماء كما زعمت أن ربك لو شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله ﷺ: ((ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل)).

قالوا: يا محمد أفما علم ربك أن سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك من إذا لم نقبل منك ما جئتنا به، إنه قد بلغنا إنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة، يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدًا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك، وما بلغت منا حتى نهلكك، أو تهلكنا" هذا ما ذكره ابن هشام.

وقد رأينا في القرآن الكريم ردًّا على كل ما قالوه، وكان يتلوه على ظهرانيهم صباح مساء، ويعلمهم أنه آية نبوته ومعجزة رسالته، وقد حكا الله تعالى مطالبهم، والرد عليها في سورة "الإسراء"، إذ قال -تعالت كلماته-: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ

﴿ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ۝٩٦﴾ [الإسراء: ٩٠- ٩٦].

وقد تحداهم الله ﷻ بالقرآن الكريم فقال -تعالت كلماته-: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. ورد الله -تبارك وتعالى- عليهم إنكار كون البشر رسولًا وزعمهم أنه لا بد أن يكون ملكًا بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٨، ٩].

وترى من هذا أنهم ينساقون وراء مطالب لا يقصدون بها إلا تعجيز النبي ﷺ والنبي ﷺ يرد الحجج بالقرآن الكريم، ويبين لهم أنه الحجة القائمة عليهم؛ فإن أتوا بمثله بطل كل دعوى يدعيها، وإذا لم يأتوا وعجزوا وجب أن يسلموا بكل ما يدعي، كان النبي ﷺ يرد عليهم بالقرآن الكريم، ويتلوه على مسامعهم فيرون فيه ردًّا قاطعًا، ومعلمًا قائمًا يثبت عجزهم، فقالوا: كما حكا الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

ولكن القرآن الكريم كان يجذبهم إليه ويجدون في أنفسهم شوقًا ملحًا إلى سماعه، ولما أمحلت بهم كل الحجج؛ ذهبوا إلى اليهود يستشيرونهم في شأن النبي ﷺ ويسألونهم علمًا بالكتاب؛ لكي يستطيعوا الرد على النبي ﷺ فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن؛ فإن أخبركم بهن فهو نبيٌّ مُرْسَل، وإن لم يفعل فالرجل مقتول فأروا فيه رأيكم.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟

وسلوه عن الروح ما هي؟ فسأل المشركون النبي ﷺ عن هذه المسائل فانتظر ﷺ حتى نزلت سورة "الكهف" مشتملة على الأجوبة؛ فكان الثلاثة هم أصحاب الكهف والطواف هو ذو القرنين، والروح كان الجواب عنها في سورة "الإسراء": ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥].

من هذا كله ترى صورة لجدال المشركين مع النبي ﷺ هم معاندون مكابرون؛ ولذلك وقفوا موقف المعاند الذي يجادل؛ ليعجز لا ليطلب الحق والصواب، كان همهم في جدلهم أن يقدموا مطالب لا حدود لها، وكل ما تجود بها مخيلاتهم يقدمونه مطلبًا، ويتخذون من عدم إجابته حجةً يبرهنون بها، ودليلًا مموهًا يقدمونه.

والنبي ﷺ يرد عليهم، ويتلو القرآن الكريم، وفيه إبطال لتمويههم، وهو الحجة القائمة عليهم، التي لا يستطيعون لها ردًّا، وكلما شعروا بقوتها، وشدة وطأتها على باطلهم، وغزوها لنفوسهم، وهم المعاندون المكابرون؛ اندفعوا في أقوالٍ واهيةٍ الغرض يدفع إليها، والحقد يوسوس في نفوسهم بها.

واستمع لما يقوله أبو جهل كبير سفهائهم، وزعيم الشر فيهم: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تحازينا على الركب وكنا كفرس رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذا، والله لا نؤمن به أبدًا ولا نصدقه، وقد اعتصم النبي ﷺ في جدله معهم بصفات جعلته المثل الكامل للبشر، فقد اعتصم بالحلم، والصبر على الأذى، وخفض الجناح، والرفق، وحسن المعاملة.

وكان إذا اشتد آذاهم، وانغمروا في الشر إلى لحاهم، قال مقالة الصابر المطمئن: ((اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)) وكان إخلاصه ﷺ ولما يدعو إليه داعيًا لأن يجعل الكثيرين من ذوي القلوب النيرة ينساقون لسماع قوله، وإذا سمعوا القرآن خفقت قلوبهم بالإيمان، فمن كتبه الله من السابقين صار، ومن لم يقدر له الله ذلك سلط عليه من شياطينهم من يوسوس إليه؛ فيفسد عليه ما اطمأن به قلبه وغمرت به نفسه كما كان شأن عتبة بن ربيعة وغيره.

وقد كان ﷺ مع الصفاتِ السابقةِ التي كانت تجعل كلامه ينساغ في النفوس قوي الشخصية، ذا مهابة روحية، جاء في (تاريخ الطبري) عن عمرو بن العاص: "اجتمع أشرافهم يومًا في الحجر فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط؛ سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما مر بهم فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه مثلها؛ فعرفت ذلك في وجهه، ثم مضى، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف فقال: ((أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح))، قال: فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، وحتى أن أشدهم فيه مقالة قدر لا يرفأه بأحسن ما يجد من القول حتى أنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم راشدًا فوالله ما كنت جهولًا، فالنبي ﷺ مع صبره على الأذى وحلمه وخفض جناحه ما كان في نظرهم المهين الصغير الشأن الضئيل الأمر.

جدل النبي ﷺ مع اليهود والنصارى

جدل النبي ﷺ مع اليهود والنصارى:

لم يذكر كتاب السير شيئًا من الاحتكاك الذي وقع بين النبي ﷺ وبين اليهود، وهو بمكة المكرمة حتى هاجر إلى المدينة المنورة، فالتقى بهم حيث كانوا مساكنين للمسلمين، وجيرانًا لهم، وطبيعي أن يدعوهم النبي ﷺ إلى دينه؛ لعموم رسالته، ووجوب تبليغ دعوته، وكان الظاهر أن يجيبوا دعايته ﷺ لأنهم كانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بنبي قد جاء زمانه.

وقد حكى الله عنه ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] ولكنهم أعرضوا ولاحوا النبي ﷺ لأنهم قومٌ يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، ولأنهم رأوا في أنصار النبي ﷺ أقوامًا من خصومهم في الجاهلية، فأسروا العداوة، ونابذوه الشر ولأن اليهود لا يعترفون بنبي من غير بني إسرائيل، بل كانوا يعدون ظهور رجل من غير بني إسرائيل يدعو إلى توحيد الإله، وتمجيد إبراهيم، وموسى، وسائر النبيين أمرًا غريبًا في البشر؛ ولعل ذلك هو الذي دفعهم لأن يقولوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨].

وكان هو المحرك لغرورهم الذي دفعهم إلى الإنكار والمكابرة، والمهاترة ولذلك اندفعوا لمجادلة النبي ﷺ وسائر المسلمين وناقشوهم مناقشات دينية أخذت أولًا طورًا دينيًّا هادئًا، ثم أخذت من جانبهم سبًّا واستهزاءً وخيانةً، حتى اضطر النبي ﷺ إلى إجلاء بعضهم ومحاربة الآخرين.

وفي طور المجادلة كانت المجادل واسعة ونطاق غير محدود ؛ لأن النبي ﷺ كان يخاطب أقوامًا يقرون بكتاب ويؤمنون برسول ، فالنبي كان يلزمهم بما جاءهم في كتبهم ، وينعي عليهم مخالفتهم لما جاءهم به رسلهم ، وهم كانوا لعلمهم بالكتاب يوجهون أسئلة فيها شيء من الدقة والمعرفة ، وإن كانوا ضالين ، وقد أمر الله نبيه أن يجادلهم برفق وحسن موعظة فقال تعالى : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] وقال تعالى : ﴿ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل : ١٢٥].

وقد كان النبي ﷺ ينكر في جدله معهم تحريفهم التوراة ، واختلافهم فيها ، ويكفي ذلك الاختلاف ، وطعن كل فريق فيما عند الآخرين يكفي ذلك دليلًا على الشك في حقيقة ما بأيديهم ، قال تعالى : ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ﴾ [البقرة : ٧٩].

وأنكر منهم النبي ﷺ مخالفتهم للأحكام التي أتى بها الأنبياء وهجرهم لشرائعها ومحاولتهم الأخذ بغيرها إن وجدوا فيه ما يخالف مآربهم ورغباتهم الدنيوية ، ويتفق مع أكلهم الرشوة التي كانوا يقبلونها من الكبراء ؛ ليغيروا بها حُكْمَ الله. قال تعالى في شأنهم عندما حكَّمُوهُ في شأن الزاني ؛ رجاء أن يحكم ﷺ بغير الرجم ليوافق هواهم : ﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٣ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾ [المائدة : ٤٣ ، ٤٤].

وأنكر منهم النبي ﷺ أنهم كانوا لا يتلقون تعاليم دينه من كتبه بل من الأحبار ، وأولئك يعبثون بأفكارهم ، ولا يعلمونهم حقيقة كتبهم ، وقد قال

الله فيهم، وفي النصارى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١].

ونعى ﷺ أنهم متعصبون أشداء في تعصبهم إلى درجة أنهم كانوا يتواصون بعدم الإيمان لأحد من غير جنسهم، ولو دخل الإيمان قلوبهم، وغزت الحقيقة نفوسهم، وقد قال تعالى حاكيًا قول بعضهم: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

ونعى عليهم النبي ﷺ أكلهم أموال الناس بالباطل وأكلهم الربا، وقد نهوا عنه، واستحلال بعضهم أموال العرب؛ زاعمون أنهم أميون، وليس لهم سبيل على أهل العلم والفكر والثقافة، قال تعالى في شأنهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وأنكر منهم النبي ﷺ حرصهم الشديد على الدنيا وتمسكهم بملاذها وشهواتها، وليس ذلك بشأن الأقوام المتدينين الذين يقدسون الدين، ويعبدون الله راجين ما عنده، وقد كانت المناقشة تدفعهم إلى كثير من المهاترات؛ فكان النبي ﷺ يأخذها عليهم من مثل إدعائهم أن جبريل عدوهم، كما يأخذ غيرها من مثل إدعائهم أن الله فقير وهم أغنياء، هذا بعض قليل مما كان ينكره منهم ﷺ ويدلي به حجة عليهم، ودليلًا على بطلان ما هم عليه وما هو متمسكون به.

وقد كانوا هم في مجادلاتهم أن إبراهيم # كان على ديانتهم وقد رد الله عليهم تلك الدعوة في قوله تعالت كلماته: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

وقد احتجوا على النبي ﷺ بوجود النسخ في الشريعة الإسلامية، وأنكروا نسخ الآيات والمعجزات؛ فردَّ الله عليهم ذلك بقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

وكان يطلبون آية أخرى تدل على رسالة النبي ﷺ غير القرآن، ويدعون أن تلك الآية عهد من الله إليهم ألا يؤمنوا بغيرها، وقد قال تعالى حاكيًا عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣].

وطلبوا من النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء يقرءونه، وقد قال تعالى حكاية عنهم: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٣].

وترى من هذا أن جدلهم مع النبي ﷺ كان كجدل أسلافهم مع موسى # جدل المتعنتين الذين لا يطلبون رشادًا، ولا يبغون سدادًا، ولا يريدون حقًّا ينصرونه، بل باطلًا يلوون ألسنتهم به. والنبي يأخذهم برفق وعطف وأناة حينًا وحزم حينًا. وقد قال تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يطلب إليهم أن يتمنوا الموت إن كانوا حقًّا صادقين في تكذيبهم في دعواه، فما تمنوا؛ لأنهم يعرفون بينهم وبين نفسهم صدق ما يدعوا ﷺ.

المنهج الجدلي (٤)

عناصر الدرس

العنصر الأول : مناظرات اليهود للنبي ﷺ ١٣٧
العنصر الثاني : كيفية الاستفادة من الجدل في مجال الدعوة الإسلامية ١٤٠

مناظرات اليهود للنبي ﷺ

كان اليهود يجادلون النبي ﷺ في أمور كثيرة، وقد آن لنا أن نحكي بعض مناظراتهم للنبي ﷺ لتعرف منها أن النبي ﷺ كان يعاملهم برفق.

جاء في (السيرة النبوية) لابن هشام: ((أن نفرًا من أحبار يهود؛ جاءوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا عن أربعٍ نسألك عنهن فإن فعلت ذلك اتبعناك، وصدقناك، وآمنا بك، فقال لهم رسول الله ﷺ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه؛ لئن أنا أخبرتكم بذلك لتصدقونني؟ قالوا: نعم، قال: فاسألوا عما بدا لكم، قالوا: فأخبرنا كيف يشبه الولد أمه، وإنما النطفة من الرجل، فقال لهم رسول الله ﷺ: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل، هل تعلمون أن نطفة الرجل بيضاء غليظة، ونطفة المرأة صفراء رقيقة، فأيتها غلبت صاحبتها كان لها الشبه، قالوا: اللهم نعم، قالوا: فأخبرنا كيف نومك؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أن نوم الذي تزعمون أني لست به تنام عينه وقلبه يقظان، فقالوا: اللهم نعم، قال: فكذلك نومي تنام عيني وقلبي يقظان، قالوا: فأخبرنا عما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه كان أحب الطعام والشراب إليه ألبان الإبل ولحومها، وأنه اشتكى شكوى فعافاه الله منها؛ فحرم على نفسه أحب الطعام والشراب إليه شكرًا لله؟ قالوا: اللهم نعم، قالوا: فأخبرنا عن الروح؟ قال: أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمونه جبريل، وهو الذي يأتيني؟ قالوا: اللهم نعم ولكنه يا محمد لنا عدو وهو ملك، إنما يأتي بالشدة، وبسفك الدماء، ولولا ذلك لاتبعناك)).

فأنزل الله ﷻ فيهم: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٩٧] إلى قوله تعالى: ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وترى من هذه المناظرة كيف كان النبي ﷺ رفيقًا بهم عطوفًا عليهم، يقسم عليهم بأحب أيامهم عليهم، ليستدينهم إليه، وفي الوقت نفسه يلزمهم بما عندهم، فيلزمهم بما يقرون، وهكذا يكون المجادل الأريب، فكيف إذا كان المجادل رسولًا من رب العالمين؟ هذا جدل النبي ﷺ مع اليهود، وقد كان كثيرًا؛ لأن الاحتكاك كان كثيرًا بسبب الجوار.

جدله ﷺ مع النصارى:

فقد كان قليلًا لبعدهم عنه ﷺ وعدم اختلاطهم بالمسلمين إلا قليلًا، وكان النبي ﷺ في جدله معهم يهاجمهم في عقيدة التثليث ويبين كفرهم بها كما قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ [المائدة: ٧٣] وينكر عليهم إدعاءَهُم أن عيسى وأمه إلهان من دون الله وينكر عليهم أن الله هو المسيح، وينكر عليهم عبادة الصليب وأكلهم الخنزير، وإدعاءهم أن لله ولدًا، ولم يكونوا يتقدمون باعتراضات كثيرة على المبادئ الإسلامية؛ لشعورهم أنها تنبت على المناقشة والاستدلال.

وممن جادلهم النبي ﷺ نصارى نجران بالمدينة المنورة، وكتب السيرة تبين أنهم أوفدوا وفدًا إلى النبي ﷺ وهو بمكة المكرمة؛ إذ بلغهم خبره من مهاجري الحبشة، فسارعوا بالقدوم عليه حتى يروا صفاته مع ما ذُكِرَ منها في كتبهم، فقرأ عليهم القرآن الكريم، فآمنوا كلهم، فقال لهم أبو جهل: "ما رأينا ركبًا أحمق

منكم، أرسلكم قومكم تعلمون خبر هذا الرجل فصبئتم، فقالوا: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لكم ما أنتم عليه، ولنا ما اخترنا؛ فأنزل الله في ذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص: ٥٢- ٥٥].

وأوفدوا ﷺ وهو بالمدينة المنورة وفدًا يتألف من ستين رجلًا، وقد أهدوا إلى النبي ﷺ هدية بسطًا ومسوحًا فقبل المسوح ورد البسط، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا، وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال ﷺ: ((يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولدًا))، قالوا: فمن مثل عيسى خلق من غير أب، تعالى فأنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠].

له وليظهر الله أنهم في شك من أمرهم أنزل قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٦١] إلى آخره فدعاهم ﷺ إلى المباهلة، فرفضوا، وقبلوا الجزية، وقد جاء في البخاري عن ظفر بن الحذيفة، قال: ((جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيًّا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قال: إما نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلًا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال: لأبعثن معكم رجلًا أمينًا حق أمين فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ هذا أمين هذه الأمة)).

كيفية الاستفادة من الجدل في مجال الدعوة الإسلامية

الجدال بالتي هي أحسن يجعل الداعية يصل إلى هدفه في أناة ورفق والداعية في كل زمان ومكان غالبًا لا يصطدم برواسب جاهلية، ومعتقدات منحرفة، ونفوس ناشزة، وخصوم ألداء، والقرآن الكريم نصح الدعاة بأن يبتعدوا عن الأساليب العنيفة، والطرق المثيرة لعداوة الخصم حتى لا تأخذه العزة بالإثم، والرغبة في الجدال، وأمرهم بالرفق في القول، واللين في الخطاب، والجدال بالتي هي أحسن.

كذلك كان منهج الدعوة في نقاش الخصوم والحوار من الأعداء وانظر إلى أسلوب القرآن الكريم الذي أجراه الله على لسان نبيه ﷺ يخاطب به منكري دعوته: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] فأنت ترى فيه أنه لم يبدأ بمهاجمة معتقداتهم، أو توجيه النقد والعنف إليهم، بل يحاول استمالتهم إلى الحق بهدوء، واتزان دون أن يظهر أولًا أي الفريقين على هدى وأيهما على ضلال، وبطريقة هي غاية ما تكون الأدب في الجدال، يحاول أن يجذبهم إلى صفه، وأن يستمعوا له فيقول: إن أحدنا لا بد أن يكون على هدى، والآخر على ضلال، وإنه لن يحكم لنفسه بالهدى، ولن يحكم عليهم بالضلال، وإنما يدع تحديد المهتدي منهما، والضال ليثير التدبر، والتفكر في هدوءٍ ورويةٍ لا تغشى عليهم العزة بالإثم.

ومثل هذا الأسلوب الهادي المهذب جدير بأن يزيل من جو المناقشة العناد والاستكبار، ويثير التدبر الواعي، والاقتناع العميق؛ لأن الداعي يظهر وكأنه ليس على بينة من أمره؛ لأنه يلقي الكلام في هيئة المتردد الذي لا يتيقن أن الهدى

في جانبه، وكأنه يستعين برأي الخصم في البحث عن الحق والهدى، وبهذه الطريقة تنحل عقدة التعصب في قلب الخصم، ويقبل على النظر بجد.

وبالتالي تقبل نفسه على قبول الحق بإذعان وتسليم، وبطريقة عفوية لا شعورية، لا يرى فيها صورةً لمنتصر أو منهزم، وتكون النتيجةُ في نهاية الأمر للحق، وكأنه بذلِكَ يدعوهم إلى الدخول في الفكر والمناقشة بذهن خالٍ، وعقل متفتح، ونفس متجردة من الموروثات القديمة؛ ولذلك قال القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وهذا شبيهٌ بمنهج البحث العلمي الحديث الذي يقتضي من الباحث قبل أن يدخل إلى ميدان البحث أن يمحو من نفسه كل فكر سابق، أو عقيدة سابقة، ويبدأ بإجراء الملاحظات والتجارب، ثم تأتي عملية الموازنة والترجيح، وأخيرًا الاستنباط القائم على هذه المقدمات، كل هذا بفكر خال، وبحث نزيه، وعقل متجرد للحق، فإذا توصَّلَ بعد ذلك إلى نتيجة كانت نتيجةً عملية محترمة، قائمة بطبيعة الحال على أساس من الدراسة والتمحيص، وتظل كذلك ما لم يثبت البحث العلمي بعد ذلك تسرب الخطأ إلى ناحية من نواحيها. هذه الطريقة العلمية التي تعتبر من أسمَى ما وصلت إليه الإنسانية في سبيل تحرير الفكر، والضمير هي طريقة الإسلام في الجدال والحوار -كما رأيت.

ولذلك فإن الذين اتبعوا محمد ﷺ في دعوته وآمنوا بها نزعوا من أنفسهم كل عقيدة موروثة، وبدءوا يفكرون فيما أمامهم، فإذا هم يلتقون مع الحق، مع الفطرة، مع أنفسهم.

إن جدال القرآن الكريم هو أحسن الحجج، وأقوى البراهين لمن أراد مناظرة الطوائف الضالة. يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "ليس أحسن من حجج

القرآن ومناظراته للطوائف، فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله وتدبره ورزق فهمًا فيه، وحججه مع أنها في أعلى مراتبِ الحجج وهي طريقةٌ أخرى غير طريقة المتكلمين، وأرباب الجدل، والمعقولات؛ فهي أقرب شيء تناولًا، وأوضح دلالة، وأقوى برهانًا وأبعد من كل شبهة وتشكيك".

وإن الجدل من الأساليب الدعوية التي لا يمكن للداعية المتمكن العالم بالشرع وطرقه من الاستغناء عنه، وقد قال في ذلك الإمام ابن القيم: "ومن بعض حقوق الله على عباده رد الطاعنين على كتابه، ورسوله، ودينه ومجاهدتهم بالحجة والبيان؛ فالله ﷻ دعانا إلى أن يكون جدالنا مع من ندعوهم إلى الإسلام بالتي هي أحسن؛ وذلك لأن الإسلام واضح وجلي، وكل ما فيه حق، وثابت، وحري بدعوة ودين كهذا أن ندعو إليه بالحجة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ولا يجوز أبدًا أن ندعو إلى الحق بوسيلة فيها باطل؛ لأن ما في الإسلام من الحق، والوضوح يغنيه عن ذلك" أي: المجادلة بالباطل.

ومن هنا فقد كان الجدال المسموح به في نشر الإسلام، هو الجدال بالتي هي أحسن بلا شتم، أو تقريع، أو توبيخ لا تكون نتيجته إلا نفور خصمك، وإظهار عداوتك، وهذا ما لا يرضاه الإسلام، أضف إلى هذا أن المجادلة بالتي هي أحسن تقتضي من الدعاة إلى الله ﷻ التزام الدقة في العرض والصواب في الرأي، ويقظة العقل والضمير حتى لا يضن الدعاة بالبيان عند طلب الحقيقة، وهي تقتضي كذلك ألا يقصد الدعاة الإفحام، وإنما الإقناع والإيضاح؛ لأن ذلك أقرب لاستجابة المدعوين، وأدنى لهدايتهم إلى الطريق الذي به تصلح أمور الناس.

كما أن المجادلة بالتي هي أحسن تقتضي من الدعاة البحث عن نقط الوفاق، والالتقاء بينهم، وبين من يدعوهم للالتقاء عليها، والوقوف عندها والانطلاق منها إلى بقية التفاصيل تجنبًا للتركيز على مواطن الخلاف والنزاع في بدء الطريق،

وهذا المسلك يمهد للالتقاء على قاعدة يؤمن بها الطرفان، ويشعرهما بأنهما ليسا بعيدين عن بعضهما كل البعد، بل هناك ما يشدهما، ويربطهما برباط القربى لينطلقا بعد ذلك بروح جديدة إلى التفاصيل.

ولا شك أن التركيز من أول وهلة على نقط الخلاف يوجد جوًّا مشحونًا بالحقد والبغضاء، ويوحي بالفوارق والفواصل، ويولد التعصب والعناد والشك والحذر، وكل ذلك لا يساعد على كسب المدعوين إلى جانب الحق الذي يعمل الدعاة إلى الله ﷻ على نصرته، ويبذلون في سبيله ويتحملون.

يحتاج الرسل والدعاة إلى معرفة الجدل؛ ليؤثروا في معارضيهم؛ لأن تغيير العقائد ليس أمرًا سهلًا، وقد أعطى الله رسله البيان وأرسلهم بلغةِ أقوامهم، ومنحهم القدرة على المخاصمة؛ لكي يردوا جدل المعارض، ويقنعوا السائل، ويأخذوا بيدِ الجميع عن طريق المناقشة الحرة العاقلة.

والجدل بالحسنى أسلوب حسن للدعوة، فهو أولًا يبين للداعية بعض ما سوف يصادفه من أعداء دعوته، ويبصره بمشاق الطريق الذي سوف يسلكه؛ وذلك لأن المعارضين يقفون دائمًا ضد دعوة التغيير.

فإذا لاحظنا أن الدعوة الإسلامية تطالب المعاندين بتغيير جذري يشمل الحياة كلها؛ لظهر سر قوة المخاصمة وشدة العناد، وإذا ما علم الداعية أنه أمام موقف صلب من الناس لزمه أن يستعد له بقوةٍ عقليةٍ ونفسية، ويخوض طريقه الصعب صابرًا محتملًا، والنبي ﷺ هو القدوة في هذا المجال، فلقد كان القوم يحاولون هدم رأيه، ويصفونه بمختلف الأكاذيب، ومع ذلك يذكر الجدل أنه كان يقف يرد رأيهم، ويثبت ضلالهم، يقول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ: ٤٣].

هؤلاء الكفار حينما سمعوا رسول الله ﷺ يتلو عليهم الآيات البينات، ويذكرهم بالأدلة الواضحة. إن محمدًا رجلٌ كاذبٌ، وساحر يهدف إلى إبعاد الناس عن دين آبائهم، وقرآنه كلام مختلق، ودينه سحر مبين، فتراهم اتهموا رسول الله ﷺ وكتابه، ورسالته خصومة وجدلًا.

إن الله ﷻ مع من يدعو إلى دينه يدافع عنه وينصره؛ ولذلك أمر رسول الله ﷺ أن يرد بالطريقة الجدلية على اتهامات معارضيه، فلئن تباهوا بما لهم من مال وولد وظنوا أن ذلك يدفع العذاب عنهم وقالوا: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥] فإن الله تعالى يعلم رسوله ﷺ ويأمره فيقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٦، ٣٧].

وهكذا يرد إثم مباهاتهم بمالهم؛ لأن هذا المال رزق أعطاه الله لهم، وهو قادر على إزالته من ملكيتهم، ولن يكون المال أيًّا ما كان بمقرب من الله والجنة، ومانع من العذاب والنار ولكن الإيمان والعمل الصالح هما أساس الحساب خيرًا كان أو شرًّا.

ولئن وجهوا اتهاماتهم إلى القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] فإن الله يعلم رسوله الرد ويأمره به في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]، ولئن كانوا يستبعدون القيامة ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: ٤٨] فإن الله يأمر الرسول بالرد فيقول: ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠].

ومن هذه الآيات نرى أن مجادلة النبي ﷺ هادفة ؛ فهو يأخذ مكابرتهم ، ويرد عليها ردًّا مقنعًا قاصرًا على المعترض عليه ، والداعية يأخذ من هذه المواقف صورة التأييدَ الإلهي لرسول الله ﷺ الداعية الأول ، ويسير على الدرب في الدعوة متوقعًا المعارضة البشرية ، متأكدًا من التأييد الإلهي ، ويجب عليه أن يصبر على كل ما يلقاه فلقد أمر الله الرسول من قبل بقوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل : ١٠].

أي : إذا دعوتهم وعارضوك ، وتقولوا عليك الأقاويل فاصبر عليهم وتجلد لقولهم ، واعرض عنهم إعراضًا لا يشوبه أذى ، ولا شتم ولا مقاومة ، وعليك أن تَكِلَ الأمر إلى الله تعالى في النهاية.

والجدل ثانيًا يبصر بالدعوة ويبين أساسياتها ويعرض القرآن في هذا الموضع جدل سيدنا إبراهيم # مع النمرود إثباتًا للألوهية يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨].

فهذا جدل حول إثبات الألوهية بأدلتها : تراها أدلةً مفحمة مُلْزِمَة من أقرب الطرق ، وقد ترك سيدنا إبراهيم دليل الإحياء والإماتة حينما أوجد النمرود شبهة شكلية عليه ، وانتقل إلى دليل لا شبهة فيه عند النمرود ، وهو مطلع الشمس ومغربها ، وهنا بهت النمرود ، ولم يحط جوابًا ، وهو نوع من أنواع الجدل يعرف بالانتقال ، وهو أن ينتقل المستدل إلى استدلال غير الذي كان أخذ فيه لعدم فهم الخصم ، وهو الدلالة على الاستدلال الأول ، وهذا الدليل يبطل عبادة الأشخاص ، ولا يثبتها للإله الواحد القادر على كل شيء المتصرف في سائر الأمور عند الحياة والأحياء.

ولقد جادل المكيون رسول الله ﷺ في شأن دعوة التوحيد، وقال أنصار الشرك والتعدد: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥] وقال الدهريون المنكرون للإله بالكلية وقالوا: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية: ٢٤] وقال المقلدون: ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة: ١٧٠].

هذه المنكرات من من القرشيين توضح موقفهم من دعوة التوحيد، وهنا يبين الرسول لهم القول الفصل في هذا الأساس الوطيد، ويقول كما أمره الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٨].

ففي هذه الآية وغيرها رد على المكابرة الكاذبة التي أعلنها المعاندون، فالله هو الذي ينفع ويضر، أما آلهتهم فإنها لا تملك شيئًا، ولا تقدر على فعل أي شيء، وقد تحداهم النبي ﷺ في الآية متسائلًا وهل تستطيع الآلهة المدعاة أن تدفع عني ضررًا قدره الله، أو تمنع رحمة أرادها؟ وبعد التساؤل الإنكاري يوضح الحقيقة في أن الله وحده هو الكفيل بكل شيء، وهو المعين، وعليه يتوكل المتوكلون، وفي الآية الثانية يبين الله للمجادلين أن الله وحده يكفي في الشهادة على باطلهم، وهو يعلم بكل شيء، وعلمه ممتد شامل لكل ما في السموات والأرض، فمن آمن به نجا وفاز، ومن كفر وطغى فقد ضل وخسر: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

وفي سورة "المؤمنون" يقول الله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ

﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤- ٨٩].

وفي هذه الآيات يسجل الله اعترافهم بأن الله مالك الأرض ومن فيها وهو رب السموات السبع رب العرش العظيم، وأنه يغيث من يشاء، ولا يغيث أحد منه أحدًا، إذا كانوا يعترفون بذلك فما لهم يشركون، ولا يتذكرون، ولا يخافون أنهم مخدوعون في موقفهم، ولا يصح إلا الإيمان والطاعة لله الواحد المتصرف في ملكه وفق علمه وإرادته، وهكذا يجادلهم الرسول ﷺ بالأمور المسلمة إليهم؛ لأن تسليمهم بها يجعل النتائج مسلمة كذلك، بل إنه يجادلهم بالأمور البديهية لتكون الحجة قطعية فيقول كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

فترى الآية تتضمن جدلًا يسلم بمظنوناتهم، ثم يناقشهم فيها، وبالمناقشة يظهر بطلان رأيهم، فكأنه قال: ليس مع الله إله آخر، ولو سلمنا بوجود آلهة أخرى معه كادعائهم الكاذب، فإننا لا بد وأن نرى على ما هي العادة فساد السماء والأرض، واستقلال كل إله بما خلق، وكون لنفسه ملكًا خاصًّا به، والحدث الشجار والتعالي بين الآلهة، ولو كانت الآلهة أصغر من الإله الأكبر صاحب العرش؛ لطلب الآلهة سبيلًا إلى الله معاندة، ومبالغة.

وكل ما كان منتظرًا كنتيجة للفرض المظنون لم يحدث؛ إذ لم تفسد السماء والأرض، ولم يستقل كل إله بما خلق، ولم يتعال إله على إله، ولم تطلب الآلهة طريقًا إلى الله الأكبر، والنتيجة المحتمة هو أن التسليم باطل والفرض المظنون كاذب لا صحة فيه، والثابت المؤكد هو أنه لا إله إلا الله.

يقول الشيخ محمد عبده: "فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا؛ لكن الفساد ممتنع بالبداهة، فهو -جل شأنه- واحد في ذاته وصفاته، لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله، هذا، والآيات مشتملة على نوع من الجدل يعرف بالتسليم؛ حيث تسلم ظاهرًا بالمستحيل من باب المجاراة، وتناقش على أساسه ليظهر بطلانه، ولذلك يصدر هذا النوع بـ"لو" كآيتي "الأنبياء" و"الإسراء"، أو يصدر بأداة النفي كآية "المؤمنون"، دلالة على أنه يسلم بالممتنع المنفي، وهكذا ساهم الجدل مع سائر الأدلة في إثبات الأساس الأول للدعوة وهو الإيمان بالله وحده، ورد افتراءات المعارضين.

وأما عن الأساس الثاني: وهو إثبات الرسالة لسيدنا محمد ﷺ فقد كثر الجدل حوله؛ إذ جحد المعارضون الرسالة، واستبعدوا أن يكون الرسول بشرًا من الناس وكذبوا: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾ [القمر: ٢٤] ولم يستبعدوا إرسال البشر قط، بل أخذوا في توجيه الاتهامات الباطلة يقول الله تعالى: ﴿ بَلۡ قَالُوٓاْ أَضۡغَٰثُ أَحۡلَٰمِۭ بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ ﴾ [الأنبياء: ٥].

ودارت مكابراتهم حول هذه الاتهامات فهو شاعر وكاذب وناقل ولكن الرسول ﷺ جادلهم في دعاويهم، فلما قال الكافرون: لست مرسلًا أمره الله أن يرد عليهم بقوله: ﴿ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣] ذلك لأنهم جاهلون بالحقيقة ويكفي أن يعلمها الله ويعرفها من عنده علم الكتاب.

إن المتتبع للجدل في مسألة إثبات النبوةِ لسيدنا محمد ﷺ ينتهي إلى وضوح بين لصدق الرسالة، وإمكانها، وإثباتها.

هذا والجدل القرآني فيه سائر فروع العقيدة حيث جرى نقاش حولها بين النبي ﷺ والناس، ولكنا نكتفي هنا بما ذكرنا في إثبات أساس الدعوة.

ثالثًا: الجدل يعرف بالناس، ويبين طبائعهم واتجاهاتهم، فإليهم توجه الدعوة، والعلم بأحوالهم ضرورة للداعية؛ ليتمكن من الأخذ بيدي مدعويه على وجه لائق ومناسب، ومع الجدل أوضح دوره في بيان طبيعة الناس، وميولهم، واتجاهاتهم الاجتماعية والنفسية والمادية، وبخاصة اليهود لما لهم من صلة بالمسلمين قديمًا وحديثًا.

ويزعم اليهود أنهم ينتسبون إلى دين موسى # وقد انطووا على أنفسهم دائمًا، وعاشوا بمعزل عن أي مجتمع أقاموا فيه، وجاء الإسلام إليهم فوقفوا منه موقف عداء تام؛ حيث حاجوا النبي ﷺ كثيرًا، واعترضوا على كل ناحية دعاهم إليها، وبتتبعنا لبعض آيات الجدل في القرآن الكريم نلمح خصائصهم الطبيعية التي استمرت معهم، وانتقلت فيهم من جيل إلى جيل.

رابعًا: الجدل أسلوب حكيم يناسب كافة الطوائف الإنسانية؛ لأنه يسوق حججه إقناعية في بعض الأحيان؛ لتكون موعظةً حسنة تثير الانفعال وتهيج النفس، وتدفع إلى الإيمان بما تدعو إليه، وفي هذه الحالة يتلاءم الجدل مع العامة، والجمهور الغالب من الناس حيث يسلم بأفكارهم وينتقل من فكرةٍ معارضة إلى سواها حتى يصل إلى التصديق، وفي أحيان أخرى تكون حجة الجدل قطعيةً يقينيةً، كقوله تعالى: ﴿ لَوْكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ وفي هذه الآية جدل يعرف بالتسليم؛ حيث أن فكرتها تقوم على تسليم دعوى الخصم، وبعد ذلك تبرز التناقض الحتمي لتحقق هذه الدعوى، والآية قطعيةٌ في دلالتها.

يقول التفتازاني: "الظاهر من الآية نفي تعدد الصانع المؤثر في السموات والأرض، فالملازمة قطعية"، ويقول الخيال: "والتحقيق في أن الآية حجة قطعية أو إقناعية أنه إن حملت الآية على تعدد الصانع مطلقًا سواء كان مؤثرًا بالفعل أو

لا ، فهي حجة إقناعية تفيد القطع ، لكن الظاهر من منطوق الآية نفي تعدد الصانع المؤثر في السماء والأرض ، فإنه ليس المراد بالظرفية المعنى الحقيقي ، أعني : التمكين ؛ لأن الله منزه عن التمكين في مكان ، فيكون المراد التأثير والتصرف فيهما ، والمعنى أنه لو كان المؤثر فيهما آلهة لفسدَتَا أي : لم تتكونا ؛ فالحق حينئذ أن الملازمة قطعية ، والآية حجة قطعية.

وعلى الجملة ؛ فإن الجدل في نقاشه يعتمد على أقيسةٍ كثيرة ؛ فإن كانت الأقيسة من أقسام البرهان المسلَّم به كانت الحجة قطعية إلزامية ، وإن لم تكن كذلك كانت الحجة إقناعية خطابية ، وهكذا فإن الجدل مع كونه جدلًا حسنًا يتضمن الحكمة والموعظة الحسنة.

خامسًا : الجدل القرآني يساير الواقع البشري شأن القرآن كله ، وهو في جملته خطاب بين الرسول ﷺ والبشر ، ورواية عن مناقشات سابقة والإنسان هو الإنسان في كل عصر وزمان ؛ ولذلك جعل الله جدل القرآن فطريًّا ومنتزعًا من قضايا الواقع حتى يكون في مقدور الخاصة والعامة من الناس.

لقد رأينا كيف زامل الجدل الداعيةَ والدعوةَ والناسَ هادفًا إلى الحق قاصدًا الوصول إلى السعادة والسلام ، وأخيرًا ؛ فإن الجدل القرآني يؤدي دوره بتأثير رائع معجز وفنية عجيبة.

المنهج التاريخي

عناصر الدرس

العنصر الأول : معنى كلمة "التاريخ" لغة، ودلالتها الاصطلاحية ١٥٣

العنصر الثاني : كيفية الاستفادة من المنهج التاريخي في المجال الدعوي ١٦٢

معنى كلمة "التـاريخ" لغة، ودلالتها الاصطلاحية

المنهج التاريخي: مفهومه:

بادئ ذي بدء لا بد من الوقوف والإلمام بمعنى كلمة التاريخ لغة ودلالتها الاصطلاحية، إذا ما أُطلقت عند المؤرخين من السلف والخلف؛ لأن معرفة معاني هذه الكلمة لغة واصطلاحًا يدخل دخولًا أوليًّا في فهم هذا العلم الجم، علم التاريخ، الذي يعتني بأحوال الأمم، ودولها، وتوثيق أخبارهم، وانتشارهم، وضبط تواريخ ولادتهم ووفياتهم.

مصطلح التاريخ ودلالاته:

التاريخ لغةً:

هو الإعلام بالوقت والتاريخ، وهذا ما قاله الجوهري. التاريخ: تعريف الوقت، والتوريخ مثله، يقال: أرخت وورخت، وقد فرق الأصمعي بين اللغتين، فقال: بنو تميم يقولون: ورخت الكتاب توريخًا، وقيس يقول: أرخته تاريخًا، وهذا القول من الأصمعي يؤكد أن لفظة التاريخ عربية أصيلة، وليست معربة عن الفارسية، كما ذهب إلى ذلك بعضهم، وقيل: إن أصل كلمة تاريخ سرياني ومعناه الشهر.

التاريخ: دراسة للتطور البشري في جميع جوانبه السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، والفكرية والروحية أيًّا كانت معالم هذا التطور وظواهره واتجاهاته.

وكلمة التاريخ تعني مجموعة الحوادث التي ظهرت في حياة البشرية، وعلم التاريخ هو ذلك الفرع من المعرفة الإنسانية، الذي يستهدف جمع المعلومات عن

الماضي، وتحقيقها، وتسجيلها، وتفسيرها؛ فهو يسجلُ أحداث الماضي في تسلسلها وتعاقبها؛ ولكنه لا يقف عند تسجيل هذه الأحداث، وإنما يحاول عن طريق إبراز الترابط بين هذه الأحداث، وتوضيح علاقة السببية بينها أن يفسر التطور الذي طرأ على حياة الأمم والمجتمعات والحضارات المختلفة، وأن يبين كيف حدث هذا التطور؟ ولماذا حدث؟

يقول ابن خلدون: "اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضيين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم؛ حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا".

التاريخ اصطلاحًا:

قد اختلفت عبارات علماء المسلمين في تحديد تعريف له، ولعل ذلك راجع إلى سعة الموضوعات التي تدخل في مفهوم التاريخ، ومن الملاحظ أن المؤرخين في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة النبوية، لم يدونوا تعريفًا كاملًا محددًا لعلم التاريخ، وإنما كانوا يكتفون بذكر فوائده وأغراضه.

ومن المعلوم أن العلم قد يعرف ببعض أنواعه أو أمثلته، أو بذكر غايته، وهذا ما نص عليه الأستاذ خليفة بن خياط بقوله: "هذا كتاب التاريخ، وبالتاريخ عرف الناس حَجّهم وصومهم، وانقضاء عدد نسائهم، ومحل ديونهم". وقال قريبًا من ذلك الإمام الطبري في مقدمة تاريخه.

وكذلك حاول العلامة ابن خلدون، المتوفى سنة ٨٠٨ هجرية أن يصيغ تعريفًا محددًا لعلم التاريخ في مقدمته فقال: "إنّ التاريخ في ظاهره لا يزيد عن أخبار

الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى، تنمو فيها الأقوال، وتضرب فيها الأمثال، وتطرف بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخلافة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع للدول فيها النطاق والمجال، وعمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحان منهم الزوال، وفي باطنه نظر وتحقق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق؛ فهو لذلك أصيل في الحكمة وعريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق".

لقد نظر ابن خلدون إلى علل الحوادث وأسبابها، وحاول اكتشاف السنن التي تنظمها، وأكد على بدايات الحوادث وقيام الدول، وتعليل سقوطها.

أما المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥ هجرية؛ فقد عرّف التاريخ ببيان موضوعه بقوله: "الإخبار عما حدث في العالم في الزمان الماضي". كما عرفه محمد بن سليمان الكافيجي المتوفى سنة ٨٧٩ هجرية بقوله: "هو علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله، وعن أحوال ما يتعلق به من حيث تعيين ذلك وتوقيته".

كما عرف المؤرخ الحافظ محمد بن عبد الله بن عبد الواحد السخاوي التاريخ، بقوله: "هو التعرف بالوقت الذي تضبط به الأحوال، من مولد الرواة والأئمة، ووفاة، وصحة، وعقل، وبدن، ورحلة، وحج، وحفظ، وضبط، وتوثيق، وتجريح، وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم، ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة من ظهور ملمة، وتجديد فرض وخليفة ووزير، وغزوة وملحمة، وحرب وفتح بلد، وبما يتوسع فيه لبدء الخلق، وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم وأحوال القيامة ومقدماتها.

إلى أن قال: "والحاصل أنه فن يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم". وقال في موضع آخر: "أما موضوعه فالإنسان والزمان".

فلا يخفى أن تعريف السخاوي لا يبعد كثيرًا عن تعريف الكافيجي، إلا أن السخاوي ركز على مفهوم التاريخ عند علماء الحديث خاصة، فقال: "علم أحوال الرجال، وضبط تواريخ ولادتهم ووفياتهم".

فهذا إلى ما سبق هو خلاصة التعريفات بعلم التاريخ عن السلف، والتي فحواها الاعتناء بأحوال الأمم ودولهم، وتوثيق أخبارهم وانتشارهم، وضبط تواريخ ولادتهم ووفياتهم".

أما في العصر الحديث؛ فقد أضاف علماء التاريخ المعاصرون، ومن لهم ارتباط وثيق بعلم التاريخ واختصاصه؛ فقد عرف الأستاذ سيد قطب -رحمه الله- التاريخ وغايته بقوله: "التاريخ ليس هو الحوادث، إنما هو تفسير هذه الحوادث، واهتداء إلى الروابط الظاهرة والخفية، التي تجمع بين شتاتها، وتجعل منها وحدة متماسكة الحلقات، متفاعلة الجزئيات، ممتدة مع الزمن والبيئة امتداد الكائن الحي في الزمن والمكان".

أما عن الخطوات؛ فإن التاريخ الإسلامي يبدأ بعهد آدم # حيث كان آدم وزوجه وبنوه أول مجتمع عرف الله ربًّا والإسلام دينًا، وكذلك يرتبط التاريخ الإسلامي بالأنبياء والرسل؛ فإن دينهم واحد، وهو الإسلام قال الله ﷻ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وعلى ذلك؛ فإن أي نظرة تحليلية لفترة من فترات التاريخ ينبغي أن تراعى فيها من وجهة التفسير الإسلامي للتاريخ الأمور التالية:

أولًا: التزام نهج العقيدة في القيادة والأمة على السواء.

ثانيًا: مدى حيازة الأمة للقوة، واستعدادها لصيانة كيانها، وصد العدوان عليها، وتعبئة قواها المعنوية والمادية.

ثالثًا: بنية المجتمع من حيث الوحدة والتماسك، وروح الالتزام بالمبادئ التي تنظم وجوده.

رابعًا: معرفة واقع الأمة من حيث أداؤها لرسالتها، وتبليغها لدعوتها، ونشر مبادئها في أقطار الأرض، وإقامة حضارتها في مواطن الفتح، حيث يعرف إن كانت هذه الأمة في مرحلة مد أو مرحلة توقف وتأخر وانحسار.

خامسًا: ونحن نرى وفق هذا التفسير الإسلامي للتاريخ بشكل مجمل، دون خوض في تفاصيل الوقائع وتلمس شواهدها الجزئية، من أحداث التاريخ الإسلامي، أن الأمة الإسلامية قد مرت بفترات قوة وفترات ضعف؛ فكانت إبان القوة المنبثقة عن التزامها بعقيدتها، وتعبئتها لقواها، وصلابة بنية مجتمعها أمة الفتح المجيد، والانتصار المتلاحق، والمد المشرق، والبناء الحضاري الفذ.

وكانت في حالات ضعفها الأمة التي يغزوها أعداؤها، وينتقصون من أطراف دولها، ويتطاولون عليها، ويحتلون ديارها، ويستبيحون ذمارها، ويستبدون بأبنائها، وينالون منها في كيانها السياسي، ومصادر قوتها، وكنوزها وطاقاتها، بل يبلغون بحقدهم ووحشيتهم مبلغًا فظيعًا في القتل وسفك الدماء، وتخريب الديار، وتقويض الأمصار، ودك الحصون والقلاع، ونهب الثروات المادية والحضارية.

ولكنهم أبدًا لم يستطيعوا على الرغم من حملات العنف، وحروب التدمير، أن يذيبوا هذه الأمة الإسلامية في عقائدهم ومبادئهم، ووجودهم المنحرف؛ فقد استعصت حتى في فترات ضعفها على الذوبان، بل لقد صنعت ما لم يكن

بالحسبان؛ فامتصت وهي المغلوبة الغالبين الأقوياء، فذابوا فيها بدل أن تذوب فيهم، فاستطاعت مثلًا أن تحول المغول الغزاة على مر الأيام إلى مسلمين.

واستطاعت أن تؤثر في الصليبيين تأثيرًا بالغًا بحيث يعترف المؤرخون الغربيون أن نهضة أوربا إنما تعود في حقيقتها إلى ما أفاده الغربيون من الاتصال بالمسلمين في الأندلس وفي الحروب الصليبية، فقد نشر اتصال الغربيين بالمسلمين خلال هذه الحروب قبسًا من روح العلم والبحث والتفكير الحر، وكان أبرز العوامل التي جعلت رجال الكنيسة يحاولون استخدام الفلسفة في العصر المدرسي للدين؛ لعلهم يجدون فيها لعقيدتهم سندًا من المنطق ودعامة من العقل.

تطبيق ذلك من القرآن والسنة:

فيما يلي نسوق بعض الآيات التي يتبين منها منهج القرآن وطريقته في عرض أخبار السابقين، الذين أعرضوا عن منهج الله، ولفت أنظارنا للاتعاظ والعبرة بالمشاهد الباقية؛ من مخلفات القوم وآثارهم، قال تعالى واصفًا ما وصلت إليه الحضارات القديمة من التقدم العمراني، قال: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩].

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [سبأ: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال عن هود # : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨] ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

وقال عن قوم فرعون: ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٧].

ولكن لما لم يستقم أصحاب هذه الحضارات، ويسيروا على النهج المستقيم، ولم يصدقوا الرسل الذين بعثوا إليهم؛ أهلكهم الله ودمرهم، وأورث الأرض بعضهم قوما آخرين، وبعضها بقيت خاوية خربة؛ لتكون آية للمعتبرين.

قال تعالى بعد أن ذكر جملة من الأقوام وتكذيبهم لرسلهم، وكفرهم بالله: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وهذه الآيات التي تدلنا على الشروط في دراسة الآثار، والمنهج الذي ينبغي أن يتبع في الدراسة، ويوضح لنا القيمة المستفادة منها، وهي العظة والاعتبار بما أصاب أصحاب هذه الآثار من الدمار والهلاك، لما اعرضوا عن عبادة الله وتحكيم شريعته. وأن هذه من سنن الله الثابتة في كل من يعرض عن شريعته، ويتبع هواه.

فإن دراسة التاريخ بوعي وإدراك، تساعد الدارس على معرفة السنن الربانية، وتكشفها له؛ مما يجعله يستفيد من دراسته، ويخطط لمستقبله على ضوء تلك السنن، وسبق أن ذكرنا أن من ثمرات دراسة التاريخ التعرف على السنن الربانية، والذي يهمنا في هذا الموضوع هو بيان ارتباط الإيمان بالسنن الربانية بمنهج كتابة التاريخ الإسلامي، وذلك أن لله تعالى سننًا ثابتة في حركة الإنسان في هذا الكون، وهذه السنن كما عرفنا عليها القرآن ذات ارتباط وثيق بقضية الإيمان والكفر والظلم، وقضايا السلوك الاجتماعي والأخلاقي للمجتمعات البشرية.

والذي يحدد لنا اتجاهات السنن الربانية هو القرآن الكريم؛ فهو الذي عرفنا بالخير والشر، وحدد دلالة ذلك، وعرفنا بالإيمان بالله وبالشرك، وبالحق وبالباطل، وبالعدل وبالظلم، وأن أظلم الظلم هو الإشراك بالله قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وإن الظالم لا بد أن ينال جزاءه، كما أن بسط الدنيا على أحد من الناس ليس دليلًا على محبة الله، وإنما يكون من باب الاستدراج، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقال تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧].

ثم العاقبة ستكون للمؤمنين، وأن ما يصيبهم في الحياة الدنيا من تعب وعنت وظلم هو للابتلاء والتمحيص، وهذا سنة من السنن الربانية، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤] وأن النصر الحقيقي لا يكون إلا من عند الله، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦] وأنه للمؤمنين متى وفوا بشرط الإيمان، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]
وقال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]
وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وأن الأيام دول بين الناس قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وأن الحياة الهادئة المباركة الآمنة لا

تكون إلا في ظل الإيمان والتقوى، والاستقامة على منهج الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وأن الإعراض عن منهج الله، وترك العمل بشريعته يؤدي بالأمة إلى مدارك الهلاك، وضنك الحياة المادية منها والنفسية، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤] وما أشارت إليه الآيات من معيشة الضنك في الحياة الدنيا لمن يعرض عن ذكر الله واقع ملموس مشاهد؛ فإن المعرضين عن ذكر الله يعيشون إما ضنكًا ماديًّا في رزقهم، أو ضنكًا نفسيًّا شعوريًّا، أو همًّا وقلقًا؛ لأن المعاصي تكون شؤمًا على أصحابها وفسادًا في الأرض قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

وقد ورد في الحديث الذي رواه الإمام أحمد: "أن رسول الله ﷺ قال: ((وإن الرّجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه)) وإن الجهاد سنة ربانية فما ترك قومًا الجهاد إلا ذلوا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥١] فالله ﷻ يدفع بأهل الخير والصلاح فساد آهل الشر والضلال. فهذه أمثلة من السنن الربانية التي ذكرها القرآن، ولا يُدركها إلا من قرأ القرآن، وآمن به وصدقه.

ثم إذا بحث الإنسان في الواقع التاريخي للحياة البشرية، يجد مصداق ذلك؛ فيزداد إيمانًا على إيمانه، ومعرفة وعلمًا بواقعه التاريخي الحاضر، ويجد القدرة على دراسة هذا الواقع، دراسة تمكنه من اكتشاف الأخطاء، ووصف العلاج اللازم، لما أصيبت به البشرية من أمراض وانحرافات؛ حتى تتفادى الوقوع في

الانحراف عن السنة الربانية، وتصيب من خيرها، وبذلك يتضح الارتباط الوثيق بين منهج كتابة التاريخ الإسلامي، والإيمان بالسُّنن الربانية في الكون، كما دلّ عليها القرآن، وكشفتها التجارب التاريخية، وهذه السنن مرتبطة بالأحكام والقوانين الشرعية وتطبيق منهج الله في حياة الناس.

كيفية الاستفادة من المنهج التاريخي في المجال الدعوي

يجبُ أن نعلم أن التاريخ فرع من فروع العلم، وقد اعتبره العلماء الذين كتبوا فيه من العلوم التي تخدم الشريعة الإسلامية، سواء أكان من الناحية التفسيرية للنصوص، أو معرفة أحوال الرواة، أو توثيق سيرة النبي ﷺ وأصحابه } وأئمة الدين بعدهم من تابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ويُقرر هذه الحقيقة وينص عليها الإمام المُحدث ابن عبد البر -رحمه الله- بقوله: "ويلزم صاحب الحديث أن يعرف الصحابة المؤيدين للدين عن نبيهم ﷺ ويعني بسيرهم وفضائلهم، ويعرف أحوال الناقلين عنهم وأيامهم وأخبارهم؛ حتى يقف على العدل منهم من غير العدول.

كما لا يخفى أن التاريخ قد نشأ ضمن العلوم الشرعية، وعلى أيدي رجال الحديث، وصلته بالشريعة وخدمته لها كانت واضح جلية، سواء في ميدان التربية والسلوك، أو في ميدان علم الرجال والجرح والتعديل، ولهذا استعمل السلف الصالح في دحض حجج الكذّابين الوضّاعين للأحاديث علم التاريخ؛ فقد جاء عنهم لم يستعن على الكذابين بمنهج التاريخ. ونص على ذلك الإمام سفيان الثوري -رحمه الله- فقال: "لما استعمل الرواة الكذب، استعملنا لهم التاريخ".

ولذلك اعتنى كبار المحدثين -أمثال: الإمام البخاري، ومسلم، وأحمد بن حنبل، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والترمذي- بجوانب من علم التاريخ، وصنفوا كتبًا كثيرة في ذلك، معروفة عند طلبة العلم الشرعي.

فإذا كان علم التاريخ بهذه المنزلة المرموقة، ويحتل الحيز الكبير من عناية علماء الحديث والأثر؛ فينبغي إذًا على دارس التاريخ أن يتحرى الإفادة منه، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا وفق المنهج السليم لدراسة التاريخ الإسلامي، المقرر عن أهل العلم.

وما دام علم التاريخ بهذه المنزلة والمكانة؛ فإنه لا يخفى على دارسه بأن له فوائد جمة، وثمارًا حسانًا؛ كما قال الإمام ابن الأثير -رحمه الله- في تاريخه: "ومن رزقه الله طبعًا سليمًا، وهداه صراطًا مستقيمًا، علم أن فوائدها كثيرة، ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة كثيرة".

ولقد ازدادت أهمية الاعتناء بعلم التاريخ في الحقبة الأخيرة من عصرنا الحاضر، حتى وصلت أهمية هذا العلم عند أهل زماننا أن استخدم كأداة لتوجيه الشعوب وتربيتها، كما يريد القادة والساسة. بل استعان بهذا العلم أصحاب المذاهب الفكرية الهدامة في فلسفة مذاهبهم المادية وتدعيمها؛ حتى أصبح هذا العلم عند الأوربيين في مكانة سامية، لا يعلوها علم آخر. ولذلك أصبحت نظرتهم للتاريخ نظرة تقديس وإجلال؛ لأنه يفسر لهم الوجود، ويعلل النشأة الإنسانية والطبيعية.

فإن كان ذلك كذلك عند الغربيين؛ ففي حق المسلم الذي يطلب العلم لخدمة دينه وعقيدته وشريعته أوجب وأحق، لذلك فعلى المسلم الصادق مع ربه، المخلص لدينه ودعوته، المتبع لنبيه ﷺ أن يعتني بدراسة التاريخ، دراسة تخدم

دينه، وتنشر دعوته، وتربط أمته الحاضرة بسلفها الصالح، لا أن يأخذه مجرد معلومات وحكايات وأخبار، لا تسمن ولا تغني من جوع، مجرد إشباع لرغباته وغريزته النفسية.

كلا إن دراسة التاريخ بوجه عام، وتاريخ الأمة المسلمة على وجه الخصوص، لا ينبغي أن يكتفى في دراسته بتحقيق الرغبات والحاجات الدونية، بل من أجل الوصول إلى القمة العلية، ألا وهي إحياء الأمة المسلمة بكتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ ومعرفة كيفية التعامل مع سنن النهوض والصعود بالأمم، واجتناب سنن السقوط والهبوط في الأمم.

ولهذا قال تعالى حاثًّا عباده على النظر في تاريخ الأمم: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ [غافر: ٨٢] فإذا تكرر ذلك صح القول بأنّ لدراسة التاريخ ثمرات وفوائد جلية ومتعددة، يجدها دارس التاريخ خلال دراسته للتاريخ؛ فمن هذه الثمرات والفوائد، التي يجب أن يقف عليها ويتأملها دارس التاريخ وخصوصًا الدعاة إلى الله تعالى، نذكر منها:

المطلب الأول: الفوائد التربوية: لقد تقرر في محكمات الشريعة أن الله ﷻ قد خلق الخلق لعبادته وحده سبحانه، وأناط بالمسلم في هذه الحياة، وظيفة تحقيق حقيقة العبادة له سبحانه بمفهومها الكامل الشامل لكل جوانب الحياة، ووجه النشاط البشري بأن يحقق كمال الخضوع والمحبة له سبحانه وتعالى، وقد شرع له سبحانه لتحقيق هذه الغاية عدة وسائل تربوية، فمن تلك الوسائل دراسة تاريخ الأمم والنظر في أحوالهم، واقتباس العبر والعظات من حالهم ومآلهم، كما أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بالاقتداء بركب النبيين الأطهار -عليهم الصلاة والسلام- فقال

تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وكذلك أمر المؤمنين بذلك فقال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ذلك بأن الاقتداء بالنبيين والصالحين، والشهداء والعلماء العاملين، والدعاة المخلصين في صبرهم وجهادهم، وتحملهم المشاق في سبيل نصرة العقيدة الصحيحة، وإقامة الدين القويم لهو عامل أساسي من عوامل التربية الإسلامية الراشدة.

بل أمرنا سبحانه بالنظر والتدبر في أحوال ومآلات الأمم السالفة، الكافرة منها والمؤمنة على حد سواء؛ فقال جل شأنه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠] ولذلك يجب على المسلمين في هذا العصر الاعتناء بدراسة التاريخ الإسلامي، وبالأخص السيرة النبوية، وتاريخ الخلفاء الراشدين، والفتوحات الإسلامية؛ لأن ذلك يبعث في الأمة روح التدين والالتزام، والزهد في الدنيا الفانية، والرغبة في الحياة الباقية، وحب التضحية والجهاد في سبيل الدين العظيم ابتغاء مرضات رب العالمين.

فإذا ما أحسن عرض التاريخ الإسلامي في أحسن صورة؛ فإنه يكون من أنفع الوسائل التربوية في مجال إحياء الأمم وتربيتها، بالأحداث والسلوك؛ لأن التربية بالأحداث والسلوك من أهم وسائل التربية القرآنية، لذلك نجد أنّ القرآن الكريم عنى بهذا النمط من التربية في مواضع كثيرة جداً، كما جاء عقب غزوة أحد في آخر سورة "آل عمران" من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وكذلك ورد في السُّنة المُطهرة والسيرة النبوية تقرير لمبدأ التربية بالأحداث والسلوك، ولذلك شواهد كثيرة يقول الدكتور محمد أمين المصري -رحمه الله- بهذا الصدد: "لدراسة التاريخ قيمة تربوية من حيث تأثيرها في عقل الدارس، وإكسابه عادات خاصة في التفكير؛ فتنشأ لديه العادة التاريخية في تناول الحقائق، والأسلوب التاريخي في التفكير فيها؛ لأن التاريخ طريقة بحث تقوم على النقد والمقابلة، والتحقيق ووزن قيم الأدلة، وربط السبب بالنتيجة، مع التعليل للحوادث وإرجاعها إلى دوافعها".

المطلب الثاني: إدراكُ السنن الربانية: لقد تقرر فيما سبق أن للتاريخ فوائد تربوية جمة، ذكرنا منها التربية بالأحداث والسلوك والاقتداء، والآن نتأمل في فوائد دراسة التاريخ التي منها التعرف على السنن الربانية وإدراكها في هذا الكون الكتاب المنظور والمقروء؛ فمطالعة التاريخ بتدبر تساعد على اكتشاف هذه السنن الربانية، ومعرفتها، وكيفية استمطارها وجلبها أو صرفها.

وبهذه الروح وهذه النفسية في قراءة التاريخ نستطيع أن نحدد الغرض المطلوب منا شرعًا امتثال أوامر الله ﷻ الذي قد أرشدنا إلى التدبر والتفكير والتأمل في سننه الكونية والبشرية، الخارقة والجارية منها، وكيفية التعامل معها في كل الحالات؛ فقد جاء في محكم التنزيل قوله تعالى آمرًا عباده بالنظر في سنن من قبلهم فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال جل وعلا: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣] وقال تبارك وتعالى ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥].

وبعد ذلك؛ فلا شك أن من قرأ التاريخ بهذه العقلية الواعية؛ فإنه يجده قد حوى بين دفتيه من الحوادث والأخبار والسنن المتشابهات، والمواقف المتمثلات ما

يدفعه إلى كشف سنن الله في خلقه سواء منها الجارية والخارق، وبذلك يستطيع أن يسعى للحصول على سنن التمكين، والابتعاد عن سنن التدمير، واقتفاء سنن الصالحين والمجاهدين، واجتناب سنن المجرمين المفسدين.

كما هو مقرر بأن التاريخ يعيد نفسه؛ فمن عرف سنن الله في خلقه والتزمها، زادته صلابة وقوة في المواقف التي ترضي الرب تبارك وتعالى، بخلاف من يجهلها؛ لأنّ من يجهل مصدر الأحداث وسنن الله ﷻ فإنه يكون في حيرة وخوف وقلق لا يعلمه إلا الله.

ولكن لا يغيب عنا -ونحن بصدد الحديث- عن السنن الربانية أنها تنقسم إلى نوعين:

النوع الأول: يسمى بالسنن الخارقة.

النوع الثاني: يسمى بالسنن الجارية.

السنن الخارقة:

ويقصد بها التي يجريها الله ﷻ على خلاف مألوف الناس على يد رسول من رسله؛ تأييدًا له في دعوته ضد قومه المستنكرين والمستنكفين عن دعوة الحق سبحانه، أو تكريمًا له وتثبيتًا كما قال تعالى حين جعل عصا موسى # حية تسعى فقال: ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ [طه: ١٩، ٢٠].

السنن الجارية:

وهي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: قسم متعلق بالأمور الطبيعية الكونية.

يُقصد به سنن الله في تعاقب الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر في فلك واحد، وفق ناموس محدد، قدره الله لها تقديرًا، قال سبحانه: ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٤٠].

القسم الثاني: قسم متعلق بالأمور الشرعية.

يقصد به أوامر الله ونواهيه، ووعده ووعيده، وهي ثابتة لا تتبدل ومطردة غير مقيدة، كسنته في نصر أوليائه وإهانته لأعدائه، كما لا يخفى أن الله ﷻ إذا حكم في الأمور المتماثلة بحكم ما؛ فإنّ ذلك لا ينقد ولا يتبدل ولا يتحول؛ فهو ﷻ لا يفرق بين المتماثلين، ولا يجمع بين المختلفين كما قال تعالى: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥].

المنهج المقارن

عناصر الدرس

العنصر الأول : مفهوم المنهج المقارن ١٧١

العنصر الثاني : أدلة عموم دعوة النبي ﷺ وعالميتها ١٨٢

مفهوم المنهج المقارن

المنهج المقارن:

مفهومه: مجال الدراسة الدينية التي تحلل أوجه التشابه والاختلاف بين الإسلام وغيره، والذي من خلاله يتبين عظمة الإسلام، وأنه هو الدين العالمي لكل البشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

والقرآن الكريم يضع جذور علم مقارنة الأديان عندما يقول: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، فالمجادلة بالحسنى هي مفهوم هذا العلم، بل ورد في القرآن الكريم بعض الآيات التي تحمل اتجاه المقارنة كقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ففي الآية مقارنة بين التوحيد والتعدد، وبيان أن التعدد سبب الفساد.

ومثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُ﴾ [النحل: ١٧] ففي الآية نوع من المقارنة؛ فالخالق الأعظم لا يمكن أن يماثله هذا النوع من الآلهة، التي لا تستطيع أن تخلق ذبابًا، ولو اجتمعت هذه الآلهة لخلقه، كما أن القرآن الكريم تحدث عن الرسالات السماوية والأديان الوضعية؛ فتحدث عن اليهود والنصارى، وتحدث عن عبدة الأصنام والطاغوت والملائكة، وسماها القرآن أديانًا مع بطلانها؛ فقال تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦].

وقد أفادت كتب السنة أن رسول الله ﷺ كان يحاور اليهود والنصارى، والذي كان ينتهي غالبًا بإسلام من يحاورهم ومن معهم من أقوامهم.

أما عن الخطوات: فإنه من النماذج الرائعة للدعوة اعتمادًا على مسلمات الخصم، والتي من خلالها تتبدى خطوات المقارنة، وهي: رد أبي عبيدة الخزرجي على دعوة حنا مقار له إلى النصرانية، وكان ذلك من خلال رسالتين متبادلتين بينهما:

الأولى: من القسيس إلى أبي عبيدة، يورد له فيها شبهات حول الإسلام، ويدعوه إلى الإيمان بالمسيح، والدخول في النصرانية.

الثانية: من أبي عبيدة يرد فيها على ما أثير من الشبهات، وإبطال دعوة القسيس له إلى النصرانية، بإبراز ما اعتمد عليه في دعوته تلك من مغالطات مع اعتماد أبي عبيدة في الرد على مسلمات القسيس التي يؤمن بها.

وسنختار بعضًا من رسالة حنا مقار، التي يدعو فيها أبا عبيدة إلى النصرانية، وما يقابلها من رد أبي عبيدة في رسالته إليه؛ مبرزين ما اعتمد عليه في رده على دعوة القسيس:

أولًا: من رسالة القسيس إلى أبي عبيدة: "أما بعد حمد الله الذي هدانا لدينه، وأيدنا بيمينه، وخصنا بابنه ومحبوبه، ومد علينا رحمته بصلبه يسوع المسيح إلهنا، الذي خلق السموات والأرض وما بينهن، والذي فدانا بدمه المقدس، ومن عذاب جهنم وقانا.

ورفع عن أعناقنا الخطيئة التي كانت في أعناق بني آدم؛ بسبب أكله من الشجرة التي نهي عنها، فخلصنا المسيح بدمه وفدانا بدمه، أهرق دمه في مرضات جميع ولد آدم، إذ كان الذنب باقيًا في أعناق جميعهم، فكلهم تخلص إلا من كفر به وشك فيه، فإذا أردت أن يتغمدك الله برحمته وتفوز بجنته فآمن بالله، وقل: إن المسيح ابن الله الذي هو الله، والروح القدس ثلاثة أقانيم في أقنوم واحد؛

فستنجح وترشد، ألم تسمع في الكتاب الذي جاء به صاحب شريعتك أنه روح الله وكلمته، وأنه كان وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وأين من هو أوجه في الدنيا والآخرة من المسيح ابن الله، في الكتاب الذي جاء به صاحب شريعتك أنه أحيا الموتى، وكفى بذلك دليلًا على أنه هو الله".

وبتأمل هذا الجزء من الرسالة نجد أن القسيس دعا أبي عبيدة إلى أمرين:

أولهما: الإقرار بصلب المسيح؛ تكفيرًا عن خطيئة بني آدم بسبب أكل أبيهم آدم من الشجرة التي نُهي عنها، حيث تعلق الذنب بأعناق كل بني آدم.

ثانيهما: الإيمان بأن عيسى إله، وأنه هو الله؛ لأنه أحيا الموتى وأيد بعض الحواريين لإحياء الموتى، فعلوا مثل ما فعل، وبين أن الإيمان بذلك هو سبب التخلص من خطيئة آدم التي ورثها أبناؤه عنه، وتعلقت بأعناقهم.

لذلك سنختار من رسالة أبي عبيدة ما رد به على هاتين القضيتين الصلب والألوهية.

ثانيًا: رد أبي عبيدة على القسيس فيما دعاه إليه:

أ. يقول في رده على دعوى الصلب: "ثم قلتَ: لا ينكر صلبه -أي: عيسى- إلا كافر، وما ذلك إلا ضلالات ابتدعتموها، ومحالات على رعاع الأعاجم أجزتموها، وايم الله إنكم لفي شك ما لكم به من علم إلا إتباع الظن، وإلا فأخبرني أيها المغرور ما معنى قول يهوذا الإسخريوطي، وهو من الحواريين تلاميذ المسيح، ارتد عنكم بزعمكم ودل عليه بظلمكم حين خرج مع اليهودي إلى طلبه، قال له: إني لأستحي منه، ولذا فسوف أجعل الأمارة عليه حيث إنكم لا تعرفونه بعينه، أن أقبله؛ فإذا فعلت فأنتم وذاك". فهذا يشهد أن اليهود لم تكن تعرفه، وهذا منصوص في إنجيلكم.

ومن نصوصكم أيضًا: "أنهم حين أحاطوا بعيسى ومن معه، خرج بنفسه إليهم وقال: من تطلبون؟ قالوا: يسوع الناصري، قال: أنا هو؛ فنظروا إلى يهوذا نظرة تساؤل عن الإشارة التي اتفقوا معه عليها ففعلها، فقبضوا عليه بظنكم، أخبرني كيف آمنتم والحال كما رويتم، أن يكون قد عمدت إلى سواه، حيث كانت لا تعرفه، ورفعه الله كما رفع أخنوخ النبي؟ ولعلكم صدقتم صدقتم يهوذا الإسخريوطي في دلالته عليه".

وفي نص إنجيلكم أنه مرتد كافر ملعون، فشهادته إذًا غير جائزة، أو لعله عندما عاينه وأدركته الندامة، جعل الأمارة على غيره من التلاميذ، وسارع التلميذ إلى وقايته بنفسه، والدليل على قيام هذا الاحتمال: أنه في نص الإنجيل الذي بأيديكم "أن يهوذا الإسخريوطي أدركته الندامة، وأعاد لهم الثلاثين درهمًا التي كان بها، إذ أعلمهم أنه ليس هو ذلك المقبوض عليه؛ فقالت اليهود: وما علينا؟ فأنت ترى هذه الندامة -وهذا القول لليهود- وتقرأها في أناجيلكم، وقلتم: إنه خنق نفسه، وتأويل المفسرين منكم في خنق نفسه، أنه أراد الإسراع عاجلًا إلى جهنم، قبل نزول عيسى إليها؛ ليخرج من فيها حين فداهم بدمه من عذابها؛ فأراد يهوذا أن يكون من جملة المخرجين.

وقلتم: إن عيسى أبى إلا أن يكون -أي: يهوذا- فيها من المخلدين، فأما اليهود فإنها قتلت رجلًا لم تعينه بإقرار كتابكم، ولم تعرف إلا بشهادة يهوذا الإسخريوطي أنه ذلك المطلوب، وأما أنتم فلا كتاب عندكم صادق بتحقيق ذلك، ولا خبر قاطع للحجة، كيف لا ونصوص الإنجيل والكتب النصرانية متضافرة دالة على عدم صلب عيسى # ، ووقوع الشبه على غيره، وذلك من وجهين:

أحدهما: جاء في "الإنجيل": أن المصلوب قد استسقى اليهود؛ فأعطوه خلًّا ممزوجًا بمرارة، فذاقه ولم يشربه، فنادى: إلهي إلهي لِمَ خذلتني. والأناجيل كلها مصرحة بأنه # كان يطوي أربعين يومًا وليلة، ويقول للتلاميذ: إن لي طعامًا لستم تعرفونه، ومن يصبر على العطش والجوع أربعين يومًا وأربعين ليلة؛ كيف يظهر الحاجة والمذلة والمهانة لأعدائه بسبب عطش يوم واحد، هذا لا يفعله أدنى الناس، فكيف بخواص الأنبياء، أو كيف بالرب تعالى على ما تدعونه؟! فيكون حينئذ المدعي للعطش غيره، وهو الذي شبه لكم.

ثانيهما: إلهي إلهي، لِمَ خذلتني. هو كلام يقتضي عدم الرضا بالقضاء، وعدم التسليم لأمر الله تعالى، وعيس # منزه عن ذلك؛ فيكون المصلوب غيره، لا سيما وأنتم تقولون: إن المسيح # نزل ليؤثر العالم على نفسه، ويخلصه من الشيطان ورجسه؛ فكيف تروون عنه مت يؤدي إلى خلاف ذلك، مع روايتكم في توراتكم "أن إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وهارون -عليهم السلام- لما حضرهم الموت كانوا مستبشرين بلقاء ربهم؛ فلم يجزعوا من الموت، ولم يهابوا مذاقه، لم يعيبوه مع أنهم عبيد الله، والمسيح بزعمكم ولد ورب، فكان ينبغي أن يكون أثبت منهم، ولما لم يكن ذلك دل على أن المصلوب غيره".

ويقول في رده على دعوى الألوهية: "أخبرني أيها الجاعل إلهه المسيح من حيث هو روح، لم تظلم آدم وأنتم تقولون وتوافقون أن الله نفخ فيه من روحه بعد أن سواه من تراب؟ فلماذا أوجبت الألوهية لعيسى، ولم توجبها لآدم، وأنت تقر له بروح من الله في حجاب من تراب، ما أزين بك أن تقول: إن الله خلق عيسى وأمه آية للناس عبدًا ورسولًا، وهي صديقة مباركة وكانا يأكلان الطعام، وأكل الطعام هنا كناية عن التغوط.

وقد كان يجب لله تعالى لو سبق في حكمه أن يكون إنسانًا وينزل لمقابلة عباده، كما زعمت أن يمتنع عن التغوط، إذ هو دنية ابتلي بها آدم وبنيه، مبينة لنقصهم واحتقارهم، وهو تعالى المختص بالكمال الموصوف بالعظمة والجلال؛ فلا يليق به تلك الدنية، ولا نعلم في فرق ملتكم من يقول: إن عيسى لم يكن يتغوط ولا يبول، حاشا الله أن يحقر خلقًا له بدنية، يراها أخس الآدميين عارًا على نفسه ثم يتشبه بعبيده فيها، بل كان يتركها دون غيرها من صفات الإنسانية.

أليس من الواضح عند ذوي العقول أنه لما لم يلزم من عدم الأب والأم البشريين لآدم # ، أن يكون ابنا لله تعالى؟ ولما لم يبعد خلق آدم من التراب لم يبعد أيضًا خلق عيسى # من الدم الذي كان يجتمع في رحم أمه -عليهما السلام- ، فلو أنصفت وطلبت الحق لعلمت أن ذلك من البيان، ما يبلغ إلى الغاية القصوى في تحصيل المرام من هذه المسألة؛ لكنك قد اتخذت التقليد دليلًا على عدم النظر والتأمل في الأمور مذهبًا؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

أخبرني أيها المسكين: متى ادعى عيسى # الإلهية تصريحًا؟ أو متى ذكر الأقانيم التي تقولونها توضيحًا؟ ألم تقرأ في إنجيلك الكائن بين يديك عن عيسى أنه قال حين خرج من السامرة ولحق بالجليل أنه لم يكرم أحد من الأنبياء في وطنه، وفي الإنجيل للوقا: أنه لم يقبل أحد من الأنبياء في وطنه فكيف تقبلونه؟ وحسبك هذا من دليل على أنه ما ادعى غير النبوة المعلومة.

وفي الإنجيل لمرقص: "أن رجلًا أقبل على المسيح وقال له: أيها المعلم الصالح، أي صلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية؟ فقال له: لماذا تدعوني صالحًا؟ ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله، ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا، قال له: أية الوصايا؛ فقال يسوع: لا تقتل، ولا تسرق، ولا تزني، ولا تشهد بالزور، أكرم أباك وأمك".

وفي الإنجيل ليوحنا: "أن اليهود لما أرادت القبض عليه، وعلم بذلك رفع بصره إلى السماء، وقال: قد دنا الوقت يا إلهي فشرفني لديك، واجعل لي سبيلًا إلى أن أملك كل ما ملكتني، الحياة الباقية، وإنما الحياة الباقية أن يؤمنوا بك إلهًا واحدًا، وبالمسيح الذي بعثت، وقد عظمتك على أهل الأرض، واحتملت ما أمرتني به فشرفتني لديك".

وفي الإنجيل: أن عيسى قال لتلاميذه: "لا تسبوا أباكم على الأرض؛ فإن أباكم الذي في السماء وحده، لا تدعوا معلمين؛ فإنّ مُعملكم المسيح وحده" فقوله: "لا تسبوا أباكم على الأرض" معناه: لا تقولوا أنه على الأرض، ولكنه في السماء، ثم أنزل نفسه حيث أنزله الله تعالى، وقال: لا تدعوا معلمين؛ فإن معلمكم المسيح وحده. فها هو ذا قد سمى نفسه معلمًا في الأرض لهم، وشهد أن إلههم في السماء واحد.

وفي الإنجيل للوقا: "أن عيسى أحيا الميت بباب مدينة نائين، عندما أشفق لأمه لشدة حزنها عليه، فقالوا: إن هذا النبي لعظيم، وإن الله قد تفقد أمته".

وفي الإنجيل ليوحنا: "أن عيسى قال لليهود: لستُ أقدر أن أفعل من ذاتي شيئًا؛ لكنني أحكم بما أسمع؛ لأنني لست أنفذ إرادتي، بل إرادة الذي بعثني" وفي الإنجيل ليوحنا أيضًا أنه أعلن صوته في البيت، وقال لليهود: قد عرفتموني في موضعي، ولم آتِ من ذاتي، ولكن بعثني الحق، وأنتم تجهلونه؛ فها هو ذا قد جعل نفسه وموضعه معلومين عند اليهود، وجعل الله عندهم مجهولًا، وقال: إنه لم يأتِ من ذاته، ولكن الله قد بعثه؛ فما زاد في دعواه شيئًا على ما ادعاه غيره من الأنبياء - عليهم السلام.

وفي الإنجيل: أنه قال ليهود بعد حوار طويل، وكلام كثير، مذكور بينه وبينهم في ذلك المجلس، حين قالوا له: إنما أبونا إبراهيم، قال: إن كنتم بني إبراهيم فاقتفوا

أثره، ولا تريدوا قتلي، على أني رجل أديت إليكم الحق الذي سمعته من الله، غير أنكم تقتفون أثر آبائكم؛ قالوا: لسنا أولاد زنا، وإنما نحن أبناء الله وأحباؤه، فقال: لو كان أباكم لحفظتموني؛ لأني رسول منه -أي: من الله- خرجت مقبلًا، ولم أقبل من ذاتي، ولكن هو بعثني، ولكنكم لا تقبلوا وصيتي، وتعجزون عن سماع كلامي، إنما أنتم أبناء الشيطان، وتريدون إتمام شهواته، إلى كلام كثير ذكر في الإنجيل، الذي بأيديكم عما كان بينه وبين اليهود في ذلك.

وفي الإنجيل أيضًا: "أنه كان يمشي يومًا في إسطوان سليمان؛ فأحاطت به اليهود وقالت له: إلى متى تخفي أمرك؟ إن كنت المسيح الذي ننتظره فأعلمنا بذلك، ولم يقولوا: إن كنت الله؛ لأنهم لم يعلموا من دعواه ذلك، ولا اختلاف عند اليهود أن الذي انتظروه هو إنسان نبي، ليس بإنسان إله كما تزعمون، وفي الإنجيل الذي عنه أن اليهود لما أرادوا القبض عليه، فبعثوا لذلك الأعوان، وأن الأعوان رجعوا إلى قوادهم؛ فقالوا: لما لم تأخذوه؛ فقالوا: ما رأينا آدميًّا أنصف منه، فقالت اليهود: وأنتم أيضًا مخدوعون، أترون أنه آمن به أحد من القواد، أو من رؤساء أهل الكتاب"!.

إنما آمن به من الجماعات من يجهل الكتاب، فقال لهم: نيقوديموس، وهو من كبار القسيسين: أترون أن كتابكم يحكم على أحد قبل أن يسمع منه؟ فقالوا له: اكشف الكتاب ترى أنه لا يجيء من الجليل نبي، فما قالت اليهود ذلك إلا لأنه أنزل لهم نفسه منزلة نبي فقط، ولو علمت من دعواه إدعاء الألوهية؛ لقالت يومئذ تقبيحًا له وتحريضًا على قتله. وكثير من هذا في الإنجيل يطول ذكره، ولا محالة أنك إن سمحت لنفسك بالانقياد إلى الحق وخلعت الهوى علمت أن ذلك كذلك.

وفي الذي اتخذتموه دليلًا على صلبه من كلام عاموس النبي: أن الله قال على لسانه: ثلاثة ذنوب أقبل لبني إسرائيل، والرابعة لا أقبلها، وهي: بيعهم الرجل الصالح حجة عليكم لا لكم؛ لأنه لم يقل بيعكم إياي، ولو قال: بيعهم إلهًا متساويًا معي، ويجري تأويل قوله هنا على وجهين:

أولًا: أما أن يكون عنى بالمبيع عيسى كما تزعمون؛ فقولوا حينئذ: إنه الرجل الصالح، أو العبد الصالح، كما قال عاموس وليس بالإله المعبود.

ثانيًا: وأما أن يريد بالمبيع غيره، وهو الذي شبه لليهود فابتاعوه وصلبوه، ويلزمكم وقتئذٍ إنكار صلوبية عيسى # ، ثم جعلت حجة على إجلال منزلة عيس عن آدم، والاعتلاء به إلى منزلة الألوهية أنه أحيا ميتًا، ولم يرد أن يكون الله تعالى قد جعل الله ذلك برهانًا على نبوته، ودلالة على صدق رسالته، ثم لم تلبس أن أوجبت ما نفيت، وأقررت بما أنكرت، وكنت كالقائم القاعد في الحال الواحد، وذلك حين قلت: إن عيسى في حال الألوهية التي تصفونه بها، قد أيد نفرًا من الحواريين الموتى بزعمكم، وجعلهم رسلًا إلى الأجناس فأحيوا الموتى بزعمك.

فما الذي أوجب أن يكون المسيح في حال الألوهية قد أيد بذلك بشرًا وجعله رسولًا إلى الأجناس، ومنع أن يكون الله ﷻ يؤيد بشرًا ويجعله رسولًا إلى الناس؛ فإن كان المسيح من أجل إحياء ميت هو الله؛ فكل من أحيا ميتًا بزعمك فهو الله، وبإجماع من جميع الملل الثلاثة أن إلياس النبي أحيا الموتى، وكذلك اليسع، فلما تظلمون بعضا دون بعض.

تعقيب على رد أبي عبيدة، من خلال ما أورده أبو عبيدة الخزرجي في رسالته ردًّا على قضية الصلب، والدعوة إلى الإيمان بألوهية المسيح، نجد أنه التزم المنهج التالي:

أولًا: رده على الصلب:

١. الاعتماد على مسلمات الخصم، وما يؤمن به؛ حيث إنه اعتمد في ذلك على ما يؤمن به خصمه من نصوص التوراة والإنجيل، ومع أنه لم يورد في رده آية قرآنية واحدة؛ إلا أنه استفاد فكريًّا من منهج القرآن، في منهج الرد، وتنظيم الأجوبة والرد على المغالطات.

٢. ومن خلال هذه المسلمات أبرز النقاط التالية وركز عليها:

أ. عدم معرفة اليهود بشخص عيسى، وهذا يحقق احتمالًا بأن المأخوذ للصلب، قد يكون شخصًا غير عيسى، وهذا تشكيك في الرواية.

ب. تناقض الأناجيل فيما بينها، عندما ذكرت الرواية، ولو كانت حدثت فعلًا اختلفت فيها.

ج. الطعن في شهادة يهوذا الإسخريوطي؛ حيث ذكرت الأناجيل أنه كافر ملعون؛ فكيف يؤخذ بشهادته، بينما لعنته أناجيلهم.

د. ندم يهوذا على فعله ورد الثلاثين درهمًا إليهم، وأعلمهم بأنه ليس المقبوض عليه عيسى، فينهض هذا احتمال أن يهوذا قد أدركته الندامة قبل وصوله مع رجال الشرطة؛ فعين لهم أحد التلاميذ على أنه عيسى، ولم يُنكر التلميذ رغبة منه في إنقاذ معلمه فأخذ وصلب.

٣. بعد التشكيك في الروايات والشخص المصلوب استدل بنصوص من الإنجيل على أن المصلوب ليس هو عيسى، وإنما شخص آخر يشبهه، وأورد شاهدًا بذلك عندما احتاج عيسى إلى الماء، ولم يصبر يومًا واحدًا؛ بينما تذكر الأناجيل أنه كان يجوع ويعطش أربعين يومًا، لا يحتاج إلى طعام أو شراب،

ويقول عندئذ: إلهي إلهي، لما شبقتني -أي: تركتني- عندما اشتد عطشه، ويرتب على ذلك أن أن هذا الشخص الذي لم يصبر على العطش هو غير عيسى، وهو المصلوب، وينتهي إلى أن الأناجيل ليست قاطعة في أمر صلبه، بل فيها اختلافات كثيرة وشكوك عديدة.

ونوجز منهج الرد الذي التزمه أبو عبيدة في الخطوات الآتية:

أولًا: البدء بمسلمات الخصم، واعتماده عليه كمسلمات معلومة الجواب؛ لا خلاف عليها.

ثانيًا: إثبات بطلان التأليه، وإثبات نبوة عيسى ورسالته، ثم أبطل الصلب وشكك فيه؛ حيث إنه في رسالة القسيس كان مقدمة لدعوته إلى الإيمان بإلوهية المسيح.

ثالثًا: الاعتماد في بطلان الدعوة بشقيها الصلب والألوهية، على مناقشة نصوص العهدين القديم والجديد.

رابعًا: الرد على عقيدة التثليث، وجره إلى الاعتراف بغموضها.

خامسًا: الوصول إلى الغاية: إثبات الوحي ونبوة عيسى، وأن الوحي من عند الله، وعيسى رسولٌ أيده الله بالمعجزات، وقد اعتمد هذا المنهج على الأسلوب العقلي، فهو مجادلة بالحسنى، ونموذج جيد لما يجب أن تكون عليه دعوة غير المسلمين، يعتمد على فهم عقيدة الخصم، وركائزها عنده والرد عليها بأسلوب منظم، ملزم للخصم بالإقرار بالحق، والانتهاء عن الباطل، والتمادي فيه.

تطبيقاته من القرآن والسنة: محمد -صلى الله عليه وسلم- رسول عام، وبقية الرسول خصوصيين، ولعل ذلك من الأدلة وأنصعها على عالمية الدعوة

الإسلامية، وأن عالمية محمد وعموم دعوته أمر لم تنفرد الشريعة الإسلامية بتقريره، وإنما قررته الشرائع السابقة. في بشارات الأنبياء السابقين بمحمد ﷺ فإنهم أخبروا عنه، وبشروا به رسولًا للبشرية جمعاء، وسوف نسوق الآن أدلة على عموم دعوته، وعالميتها من القرآن الكريم.

أدلة عموم دعوة النبي ﷺ وعالميتها

محمد نبي الله إلى الناس كافة:

جاء القرآن صريحًا بأن الله تعالى أرسل محمدًا إلى الناس كافة، بخلاف من سبقه من الرسل؛ فإنهم أرسلوا إلى أممهم فقط، جاء عن نوح # أنه أرسل إلى قومه وحدهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ [نوح: ١].

وكذلك هود # قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥]، وصالح فإنه أرسل إلى قومه كذلك قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وشعيب كذلك قال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وكذلك موسى؛ فإنه أرسل إلى قومه كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥]، وكذلك عيسى فإنه أرسل إلى بني إسرائيل كما قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٩].

فكل هؤلاء الأنبياء أرسلوا إلى أقوامهم خاصة، ولم تكن رسالتهم إلى الناس كافة؛ أما محمد ﷺ فإن الآيات القرآنية صريحة تامة بأنه أرسل إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨] أي: ما أرسلناك إلى قومك خاصة، بل أرسلناك إلى الخلق جميعًا عربهم وعجمهم، أسودهم وأحمرهم، ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١].

والحقيقة أنّ الله تعالى اختص محمدًا وميزه بالرسالة إلى الناس كافة، ولم يرد في القرآن أن أحدًا من الرسل السابقين لمحمد ﷺ ادعى أن رسالته عامة للناس، كما أنه لم يذكر في آية من آيات الكتاب الكريم أنّ محمدًا كانت رسالته خاصة بقومه، أو بجنس بعينه، أو بمكان بذاته، أو بزمان معين؛ حيث إن القرآن ذكر صراحة أن محمدًا ﷺ أرسل ليكون للعالمين نذيرًا قال تعالى: ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٤].

ولم تقتصر الآيات على أن محمدًا أرسل نذيرًا للعالمين، بل زاد بأنه أرسل رحمة للعالمين قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وجوب إيمان الرسل بمحمد ﷺ:

نورد فيما يأتي آيات نزلت بالمدينة المنورة تثبت أن إرادة الله اقتضت إرسال رسل إلى الأمم، يتبعهم رسول يأتي بعدهم إلى الناس كافة، يجب عليهم وعلى سائر الناس الإيمان به، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلۡ

﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨١- ٨٥].

تقرر هذه الآيات أن الدين عند الله واحد، وهو ما كان عليه إبراهيم وسائر النبيين الذين اختارهم الله واصطفاهم بالرسالة إلى أممهم، وتقرر كذلك رسالة محمد، وتوجب الإيمان به وتصديقه؛ فقد أخذ الله تعالى الميثاق على جميع النبيين، وعلى أتباعهم بأنّ ما يتنزل عليهم من كتاب، وإن عظم أمره أن يؤمنوا بمن يأتي بعده من رسل مصدقًا لما معهم وأن ينصروه.

وإنك لتتصفح الكتب السماوية، وتبحث في قصص الأنبياء والرسل الواردة فيها؛ فتجد أن محمدًا -صلوات الله عليه- جاء مصدقًا للكتب السماوية السابقة لهم، ومؤمنًا بكل الأنبياء الذين أرسلوا إلى أمم الأرض من قبله، والحقيقة أن الرسول الذي يصطفيه الله ويتوجه بشرف البعثة إلى الناس كافة يكون أهلًا لهذا الشرف؛ لأنه يرى الناس أمامه سواسية، والعالم الإنساني وحده لا يفرق بين شعب وآخر، ولا بين أمة وغيرها، وقد كان هذا شأن محمد؛ فإنه آمن هو ومن اتبعه بكل الأنبياء، كما آمن بالكتب التي أنزلت عليهم.

وقد أوجبت هذه الآيات الإيمان بالأنبياء جميعهم؛ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى، وكل النبيين، كما أوجبت على الأنبياء أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد، وأن يؤمن به من أدركه من أتباعهم، وكان مسك الختام فيها قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن صميم شريعة الإسلام: أنها تحتم الإيمان بكل الأنبياء والرسل، وعدم التفرقة بينهم، وعلى ذلك؛ فالإيمان برسول دون رسول تفريق بين الرسل، وقبول جزء من الحق وترك آخر، وهو كفر يجعل الدين أهواء، واقتداء أعمى، وذلك مما يُفرق الشعوب، ويباعد بين الأرواح، وينشر الضغائن، ولا يزيد الناس في الدنيا إلا عدوانًا وفي الآخرة إلا خسرانًا.

وفي صدد هذا المعنى يقول تعالى: ﴿ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَسِرِينَ ﴾ أي: أن من يبتغي دينًا غير الإسلام؛ فهو من الخاسرين في الآخرة، ومن خسر الآخرة؛ فهو خاسر للدنيا حتمًا، ولم يرسل الله محمدًا ﷺ إلى الناس كافة، وإلى العالمين رحمة فحسب؛ وإنما أرسله ليبشر بدين واحد للناس جميعًا، أساسه الإيمان برسول كل أمة من أمم الأرض، وهذا أمر لا يعارضه الناس حيث إنه يدعو إلى المساواة بينهم، والوحدة بين جميع الأمم.

أما من السنة النبوية، فعن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة؛ يهودي ولا نصراني، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار)). إن هذا الحديث يتفق مع صريح القرآن الكريم، في وجوب إيمان أهل الذمة برسالة النبي محمد ونبوته، ولا يعد الكتابي مؤنًا إلا إذا حقق هذا الشرط؛ فها هو النبي ﷺ يقسم بالله على أن كل يهودي، وكل نصراني بلغته الدعوة المحمدية، ولم يؤمن بها؛ فهو في عداد الكافرين، الذين حقت عليهم كلمة العذاب.

فلا معنى لادعاء بعض الكتابيين أنهم مؤمنون موحدون، مع تركهم الإيمان بمحمد ﷺ ودعوته، وقد سماهم القرآن كفارًا، مع أنه لقبهم بأهل الكتاب؛ لكي يأنسوا بالإسلام، وفي الكتاب المعجز قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٦]، وقال

أيضًا: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: ((أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي؛ كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهورًا ومسجدًا؛ فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان، ونصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة)).

من خصائص الدعوة الإسلامية عموميتها لجميع البشر، وذلك ما تصدر به هذا الحديث، في هذه الرواية وكأن بقية الخصائص التي ذكرها النبي ﷺ ما جاءت إلا لتعضيد هذه الخاصية الأساس.

كيف يستفيد الداعية من هذا المنهج؟

إنه ليس تعصبًا منا أن ندعو الناس جميعًا إلى الدخول في الإسلام، وأن تتوحد البشرية على أساسه ومنهاجه؛ فالإسلام هو الدين الذي بعث ﷻ به الأنبياء والرسل جميعًا؛ فواجب على كل من وصل إليه هذا الدين أن يعتبره دينه، وأن يؤمن به، ويتبع منهاجه.

وفي الواقع أن انتهاء النبوة وختمها بمحمد ﷺ كان ضرورة لا يمكن بدونها أن تتم الوحدة الإنسانية بحال من الأحوال، وعلى ذلك، فإن النبوة في حد ذاتها تعتبر أمرًا عامًّا، وكلما اقترب الوقت بين الأنبياء، كانت الحاجة ماسة إلى وحدة عامة، أي: وحدة عالمية، ولم تكن تلك الوحدة ممكنة، إلا ببعث نبي عالمي نبي للناس كافة.

وبهذا وحده تمكنت فكرة توحيد الجنس البشري على يد محمد بن عبد الله ﷺ أن تبلغ حد الكمال، وهكذا نجد أن الإله الواحد، والإنسانية الواحدة، والمنهج الواحد الذي نادى به الإسلام، واختلف به عن غيره من الرسالات، بل وامتاز به عنها، أقوى عامل نفسي للبشرية يطمئنها، ويبلغها درجة الأمن النفسي التي تحن إليه منذ خلقت، وتحاول أن تصل إليه سالكة إليه ما وجدت من السبل، وما هداها إليه تفكير أبنائها.

غير أنها كانت في نهاية كل سبيل من تلك السبل، لا تجد نفسها عندما تريد من الأمن والطمأنينة، وإنّما تجدُ نفسها أمام مزيد هائل من القلق والحيرة والاضطراب؛ فتفر مذعورة مُرتدة من حيث أتت، ثم تستأنف البحث العلمي عن سبيل آخر، وما أن تسلكه وتستمر فيه؛ وتدنو من نهايته؛ حتى تلقى نفس المصير.

ولا نقول ذلك جزافًا أو إلقاءً للكلام على عواهنه، وإنما يسندنا في ذلك التاريخ، وتؤيدنا الوقائع المادية الملموسة؛ فقد بلغ حد التواتر أن الإنسانية وصلت يومًا إلى درجة الأمن النفسي والاطمئنان، عندما سلكت طريق الإسلام، واتبعت منهج القرآن، وآمنت بوحدة الله، ووحدة الإنسان ووحدة المنهج.

شريعة ناسخة وشرائع منسوخة:

الشريعة الإسلامية ناسخة لكل الشرائع التي قبلها، وهذا دليل عالميتها، قال أبو محمد بن حمد بن سعيد بن حزم في كتابه (المحلى): مسألة: "نسخ ﷻ بملته كل ملة، وألزم أهل الأرض جنهم وإنسهم اتباع شريعته التي بعثه بها، ولا يقبل من أحد سواها، وأنه # خاتم النبيين لا نبي بعده، برهان ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾" [الأحزاب: ٤٠].

ثم إن الدعوة الإسلامية ناسخة لكل الشرائع قبلها لأسباب كثيرة منها:

أولًا: بقاء معجزة الدعوة الإسلامية، وهي القرآن الكريم مع فناء معجزات الرسالات الأخرى.

ثانيًا: استكمال الدعوة الإسلامية لسائر ما يحتاجه البشر في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرى؛ فالإسلام أسمى سائر النظم المدنية، لأنه يشمل الحياة بأسرها، إنه يهتم اهتمامًا واحدًا متساويًا بالدنيا والآخرة، وبالنفس والجسد، وبالفرد والمجتمع، إنه لا يهتم فقط لما في الطبيعة الإنسانية من وجوه الإمكان إلى السمو، بل يهتم أيضًا لما فيها من قيود طبيعية، أنه لا يحملنا على طلب المحال، ولكنه يهدينا إلى أن نستفيد أحسن الاستفادة مما فينا من استعداد، وإلى أن نصل إلى مستوى أسمى من الحقيقة، حيث لا شقاق ولا عداء بين الرأي وبين العمل.

إنه ليس سبيلًا بين السبل، ولكنه السبيل الوحيدة، وأن النبي ﷺ الذي جاء بهذه التعاليم ليس هاديًا من الهداة، ولكنه الهادي الوحيد؛ فاتباعه في كل ما فعل وما أمر اتباع لما يجب على الإنسانية أن تتبعه، وإطراح شيء مما جاء به تنكب من الإنسانية لجادة الطريق، وانحراف عن الهدف، وضلال ما بعده ضلال.

منهج التزكية

عناصر الدرس

العنصر الأول : مفهوم التزكية لغة واصطلاحًا ١٩١
العنصر الثاني : جهاد النفس يوصل إلى الأخلاق الحميدة ١٩٥

مفهوم التزكية لغة واصطلاحًا

منهج التزكية:

التزكية: مجاهدة النفس وحملها على طاعة الله تعالى، والابتعاد عن معاصيه.

والمجاهدة: مصدر جاهد يُجاهد ومُجاهدة، وهو مأخوذ من مادة "ج هـ د"، التي تدل على المشقة. يُقال: جهدتُ نفسي وأجهدت والجهد الطاقة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: ٧٩] ويُقال: إن المجهود اللبن الذي أخرج زبده، ولا يكادُ ذلك يكون إلا بمشقة ونصب.

وقال الجوهري: "الجَهد والجُهد الطاقة. وقرئت الآية الكريمة بالوجهين: جُهدهم وجَهدهم".

قال الفراء: "الجُهد بالضم الطاقة، والجَهد المشقة".

وقال ابن منظور: "الجهد والجهد الطاقة والمشقة، وبذل الوسع مصدر من جهد، والمجاهدة مصدر جاهد، والمجاهدة فطام النفس عن الشهوات، ونزع القلب عن الأماني والشهوات".

النفس لغةً:

النفس في اللغة: الروح، يُقال: فرِحت نفسه. ومن معاني النفس أيضًا: العظمةُ والكبر والعزة والهمة، وعينُ الشيء وكنهه، وجوهره، والأنفة، والعين التي تُصيب المعين، أي: من أصابته العين الحاسدة.

النفس اصطلاحًا:

النّفس هي الجوهر البخاري اللطيف، الحامل لقوة الحياة والحس، والحركة والإرادة.

مُجاهدة النفس اصطلاحًا:

أي: مُحاربة النفس الأمارة بالسوء، بتحميلها ما يشق عليها بما هو مطلوب في الشرع، وقال المناوي: "وقيل: المجاهدة هي حمل النفس على المشاق البدنية، ومخالفة الهوى، وقيل: هي بذل المستطاع في أمر المطاع، أي المولى ﷻ".

منزلة مجاهدة النفس: قال ابن علان: المجاهدة مفاعلة من الجهد، أي: الطاقة؛ فإن الإنسان يجاهد نفسه باستعمالها فيما ينفعها حالًا ومآلًا، وهي تجاهده بما تركن إليه.

قال ابن حجر -رحمه الله- في قوله -يعني البخاري-: باب من جاهد نفسه في طاعة الله ﷻ يعني: بيان فضل من جاهد، والمراد بالمجاهدة كف النفس عن إرادتها من الشغل بغير العبادة، وقال ابن بطال: جهاد المرء نفسه هو الجهاد الأكمل، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

ويقع بمنع النفس عن المعاصي، وبمنعها من الشبهات، وبمنعها من الإكثار من الشهوات المباحة؛ لتتوفر لها في الآخرة، قلت: ولئلا يعتاد الإكثار فيألفه، فيجره إلى الشبهات؛ فلا يأمن أن يقع في الحرام.

كيفية المجاهدة:

عن أبي عمرو بن بجيد، من كرم عليه دينه هانت عليه نفسه، قال القشيري: أصل مجاهدة النفس فطمها عن المألوفات، وحملها على غير هواها، وللنفس

صفتان: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات. فالمجاهدة تقع بحسب ذلك، قال بعض الأئمة: جهاد النفس داخل في جهاد العدو؛ فإن الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس؛ لأنها تدعو إلى اللذات المفضية إلى الوقوع في الحرام، الذي يسخط الرب.

والشيطان هو المعين لها على ذلك ويزينه لها، فمن خالف هوى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدة نفسه حملها على اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه، وإذا قوي العبد على ذلك سهل عليه جهاد أعداء الدين.

الأول: الجهاد الباطن.

الثاني: الجهاد الظاهر.

وجهادُ النفس أربع مراتب: حملها على تعلم أمور الدين، ثم حملها على العمل بذلك، ثم حملها على تعليم من لا يعلم، ثم الدعاء إلى توحيد الله وقتال من خالف دينه وجحد نعمه، وأقوى المعين على جهاد النفس جهاد الشيطان؛ بدفع ما يلقي إليه من الشبهة والشك، ثم تحسين ما نهي عنه من المُحرمات، ثم ما يفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشبهات.

وتمام المجاهدة: أن يكون متيقظًا لنفسه في جميع أحواله؛ فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات، وقال الغزالي -رحمه الله-: قد اتفق العلماء على أن لا طريق إلى سعادة الآخرة إلا بنهي النفس عن الهوى، ومُخالفة الشهوات. فالإيمان بهذا واجب، وأما علم تفصيل ما يُترك من الشهوات وما لا يُترك فلا يدرك إلا بطريق الشرع.

وطريق المجاهدة الربانية لكل إنسان تختلف بحسب اختلاف أحواله، والأصل فيه أن يترك كل واحد ما به فرحه من أسباب الدنيا؛ فالذي يفرح بالمال أو بالجاه، أو

بالقبول في الوعظ، أو بالعز في القضاء والولاية، أو بكثرة الأتباع في التدريس والإفادة؛ فينبغي أن يترك أولًا ما به فرحه؛ فإنه إن مُنع عن شيء من ذلك، وقيل له ثوابك في الآخرة لم ينقص بالمنع؛ فكره ذلك وتألم به؛ فهو ممن فرح بالحياة الدنيا واطمأن بها، وذلك مهلك في حقه.

ثم إذا ترك أسباب الفرح فليعتزل الناس، ولينفرد بنفسه، وليراقب قلبه؛ حتى لا يشتغل إلا بذكر الله تعالى، والفكر فيه، وليترصد لما يبدو في نفسه من شهوة ووسواس؛ حتى يقمع مادته مهما ظهر؛ فإن لكل وسوسة سببًا، ولا تزول إلا بقطع ذلك السبب والعلاقة، وليلازم ذلك بقية العمر؛ فليس للجهاد آخر إلا بالموت.

وقال ابن حجر -رحمه الله- في (شرح المشكاة) في شرح حديث ربيعة بن كعب عندما سأل النبي ﷺ المرافقة في الجنة جاهد نفسه بكثرة سجوده، حصلت له تلك الدرجة العلية، التي لا مطمع في الوصول إليها إلا بمزيد الزلفى عند الله في الدنيا، بكثرة السجود المومئ إليه بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

فكل سجدة فيها قرب مخصوص لتكفلها بالرقي إلى درجة من درجات القرب، وهكذا حتى ينتهي إلى درجة المرافقة لحبيبه ﷺ فنتج عن هذا الذي هو على منوال قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] أن القرب من رسول الله ﷺ لا يحصل إلا بالقرب من الله تعالى، وأنّ القُرب من الله تعالى لا يُنال إلا بالقرب من رسوله ﷺ فالقُربان متلازمان، لا انفكاك لأحدهما عن الآخر ألبتة، ومن ثم أوقع تعالى متابعة رسوله ﷺ بين تلك المحبتين؛ ليعلمنا أن محبة العبد لله ومحبته للعبد متوقفتان على متابعة رسوله ﷺ.

جهاد النفس يوصل إلى الأخلاق الحميدة

جهاد النفس يوصل إلى الأخلاق الحميدة:

وجهاد النفس أساس كبير في تهيئ الإنسان للخلافة في الأرض، وحتى تطهر تلك النفس بالمجاهدة؛ فإن لذلك أسبابه ودواعيه، يقول الراغب: "والذي يطهر النفس العلم والعبادات الموظفة التي هي سبب الحياة الأخروية، كما أن الذي يطهر به البدن، هو الماء الذي هو سبب الحياة الدنيوية". ولذلك سماها: "الحياة" وسُمي ما أنزل الله تعالى في كتابه الماء، فقال: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فسمى العلم والعبادة حياة، من حيث إن النفس متى فقدتهما هلكت هلاك الأمد، كما قال في وصف الماء: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ﴾، [الأنبياء: ٣٠]. وطهارةُ النفس تتحقق بإصلاح الفكر وبالتعلم، حتى يميز بين الحق والباطل في الاعتقاد، وبين الصدق والكذب في المقال، وبين الجميل والقبيح في الفعال، وإصلاح الشهوة بالعفة حتى تسلس بالجود والمواساة المحمودة بقدر الطاقة، وإصلاح الحمية بإسلاسها حتى يحصل التحكم، وهو كف النفس عن قضاء وتر الخوف، وعن الحرص المذمومين. وبإصلاح هذه القوى الثلاث يحصل للنفس العدالة والإحسان. وتزكية أرواح الرعيل الأول بأنواع العبادات:

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة: ٩].

وقد ربى رسول الله ﷺ أصحابه على تزكية أرواحهم، وأرشدهم إلى الطريق التي تساعدهم على تحقيق ذلك المطلب، من خلال القرآن الكريم؛ ومن أهمها:

أولًا: التدبر في كون الله ومخلوقاته، وفي كتاب الله تعالى؛ حتى يشعروا بعظمة الخالق وحكمته ﷻ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ثانيًا: التأمل في علم الله الشامل، وإحاطته الكاملة بكل ما في الكون، بل ما في عالم الغيب والشهادة؛ لأن ذلك يملأ الروح والقلب بعظمة الله، ويطهر النفس من الشكوك والأمراض، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنعام: ٥٩، ٦٠].

ثالثا: عبادة الله ﷻ من أعظم الوسائل لتربية الروح وأجلها قدرًا، إذ العبادة غاية التذلل لله -سبحانه- ولا يستحقها إلا الله وحده، ولذلك قال ﷻ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

والعبادات التي تسمو بالروح وتطهر النفس نوعان:

النوع الأول: العبادات المفروضة: كالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وغيرها.

النوع الثاني: العبادات بمعناها الواسع الذي يشمل كل عمل يعمله الإنسان أو يتركه، بل كل شعور يقبل عليه الإنسان تقربًا به إلى الله تعالى، بل يدخل فيها كل شعور يطرده الإنسان من نفسه تقربًا به إلى الله تعالى، ما دامت نية المُتعبد بهذا العمل هي إرضاء الله ﷻ فكل الأمور مع نية التقرب إلى الله ﷻ عبادة يُثاب صاحبها، وتربي روحه تربية حسنة.

إن تزكية الروح بالصلاة وتلاوة القرآن، وذكر الله تعالى، والتسبيح له سبحانه أمر مهم في الإسلام؛ فإن النفس البشرية إذا لم تتطهر من أدرانها، وتتصل بخالقها؛ لا تقوم بالتكاليف الشرعية الملقاة عليها، والعبادة والمداومة عليها تعطي الروح وقودًا وزادًا ودفعًا قويًّا إلى القيام بما تؤمر به، يدل على هذا أمر الله والرسول ﷺ في ثالث سورة نزلت عليه بالصلاة والذكر، وترتيل القرآن قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨﴾ [المزمل: ١ - ٨].

فالاستعداد للأمر الثقيل والتكاليف الشاقة هو بقيام الليل، والمداومة على الذكر والتلاوة، وقد حرص رسول الله ﷺ بتوجيه من ربه ﷻ على تربية الصحابة من أول إسلامهم على تطهير أرواحهم وتزكيتها بالعبادة، وكان أصحاب رسول الله ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب واستخفوا بصلاتهم.

ولما خاف ﷺ في بداية الإسلام على أصحابه، وعرف أنّ الكفار لا يقرونهم يمارسون الصلاة وقراءة القرآن علناً دخل بهم دار الأرقم، وصار يصلي بهم، ويعلمهم كتاب الله ﷻ، ولولا أهمية تزكية الروح بالعبادة والصلاة والتلاوة لأمرهم بتركها عند الخوف، حتى بعد أن اكتشفت قريش المكان الذي يصلي فيه الرسول ﷺ بأصحابه، لم يترك الرسول ﷺ الصلاة والتلاوة لأجل الخوف.

وقد حضّ الله تعالى في القرآن المكي على إقامة الصلاة، وأثنى على الذين يخشعون في صلاتهم، والذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع؛ لأجل إحياء ليلهم بذكر الله، وعلى الذين يدعون الله ويسبحونه ويذكرونه، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤﴾ [المؤمنون: ١- ٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ۩ ١٥ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٣ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ٢٤ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٢٥﴾ [السجدة: ١٥- ٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ٧٨ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: ٧٨، ٧٩]

وقال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنۡ ءَانَآيِٕ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ١٣٠ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ

﴿أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢)﴾ [طه: ١٣٠- ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠)﴾ [ق: ٣٩، ٤٠]. وهذه الآيات الأخيرة تدل على أن العدة في حال الضيق والشدة، هي الإكثار من الصلاة والذكر، وتلاوة القرآن، والالتجاء إلى الله سبحانه وحده والإكثار من الدعاء.

إن الصلاة تأتي في مقدمة العبادات التي لها أثر عظيم في تزكية روح المسلم، ولعل من أبرز آثارها التي أصابت الرعيل الأول:

١. الاستجابة لأمر الله تعالى وإظهار العبودية له سبحانه: وقد أثنى الله تعالى على عباده المؤمنين الذين استجابوا لأمره، فقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] ولا تتحقق معاني العبودية الصادقة لله سبحانه، إلا إذا اقترنت بصدق التوجيه إليه سبحانه، والإخلاص له سبحانه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وكان الرعيل الأول يرى أن لكل عمل من أعمال الصلاة عبودية خاصة، وتأثير في النفس، وتزكية للروح؛ فقراءة سورة "الفاتحة" مع التدبر تشعرهم بعبوديتهم لله تعالى؛ فعندما يتلو العبد قول الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] يُثبت كل كمال لله ﷻ ويحمده على ما وفقه إليه من الطاعة، وما أنعم عليه من النعم، وأثنى عليه بصفاته وأسمائه الحسنى.

وكذلك عندما يتلو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] يقر بالتوحيد والاستعانة بالله وحده؛ فالله هو المعبود وهو المستعان، وكل استعانة لا

تكون بالله فهي خذلان وذل، وعندما يقول: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] فهو إقرار من العبد بأنه مفتقر إلى الهداية والثبات على طريق الحق، وأنه محتاج إلى ثمار الهداية والاستزادة منها، والبعد عن سبيل المغضوب عليهم والضالين.

وعندما ينحني للركوع يكبر ربه معظمًا له ناطقًا بتسبيحه؛ فيجتمع في هذا الركن خضوع الجوارح، وخضوع القلب؛ ثم يأتي السجود؛ فيجعل العبد أشرف أعضائه وأعزها متذللًا لله سبحانه ويتبع هذا انكسار القلب وتواضعه؛ فيسجد القلب لربه كما سجد الجسد، وحري به في هذه الحال أن يكون أقرب ما يكون من ربه، وكلما ازداد تواضعًا وخشوعًا لربه في سجوده، ازداد منه قربًا كما في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾ [العلق: ١٩]، وفي الحديث: ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء)) وعندما يعتدل جالسًا يتمثل جاثيًا بين يدي ربه، ملقيًا بين يديه، معتذرًا إليه مما جناه، راغبًا إليه أن يغفر له ويرحمه.

وهكذا تتجلى في كل أفعال الصلاة العبودية لله ﷻ وإقبال العبد على ربه، وتوحيده وتقوية الإيمان به، الذي هو أساس التزكية، وهذه أعظم ثمرة من ثمرات الصلاة، وهي التي تنير للعبد طريق حياته، وتمنحه طهارة القلب وطمأنينة النفس.

٢. مناجاة العبد لربه: وقد بين رسول الله ﷺ مشهدًا من مشاهد هذه المناجاة، قال رسول الله ﷺ: ((قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل؛ فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم، قال الله تعالى: أثنى علي عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين قال: مجدني عبدي، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ؛ قال : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل)).

تعلم الصحابة من النبي ﷺ أن هذه المناجاة من أعظم أسباب تزكية النفس، وتقوية الإيمان إذا هيأ العبد نفسه لها، وأقبل عليها إقبال العبد المتشوق للوقوف بين يدي ربه، الوافد عليه، المنتظر لرحمته وفضله، يستمد العون منه سبحانه في كل أموره وأعماله.

٣. طمأنينة النفس وراحتها : كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى، وقد جُعلت قرة عينه في الصلاة، وقد علم الرسول ﷺ الصحابة كثيرًا من السنن والنوافل ؛ ليزدادوا صلة بربهم وتأمن بها نفوسهم، وتصبح الصلاة سلاحًا مهمًّا لحل همومهم ومشاكلهم.

٤. الصلاة حاجز عن المعاصي : قال الله تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، كان الصحابة } عندما يؤدون صلاتهم ترتاح بها نفوسهم، وتمدهم بقوة دافعة لفعل الخيرات، والابتعاد عن المنكرات، وتغرس في نفوسهم مراقبة الله ﷻ، ورعاية حدوده، والتغلب على نوازع الهوى ؛ ومجاهدة النفس، فكانت لهم سياج منيع حماهم من الوقوع في المعاصي.

كما أيقن الصحابة أن الصلاة تكفر السيئات وترفع الدرجات، قال الله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤] وغير ذلك من الآثار التربوية والنفسية الطيبة التي تتضافر ؛ فيغنمها العبد المصلي، فتؤدي الصلاة دورها في تزكية النفس وطهارتها، ويتحقق قول رسول الله ﷺ : ((والصلاة نور))، فهي نور تضيء لصاحبها طريق

الهداية، وتحجزه عن المعاصي، وتهديه إلى العمل الصالح، وهي نور في قلبه بما يجد من حلاوة الإيمان، ولذة المناجاة لربه، وهي نور بما تمنح النفس من تزكية وطمأنينة وراحة، وبما تمد من أمن وسكينة.

وهي نور ظاهر على وجه المقيم لها في الدنيا، تتجلى بها وضاءة الوجه وبهاؤه، بخلاف تارك الصلاة، وهي نور له يوم القيامة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

كان الصحابة يكثرون من الذكر والدعاء وتلاوة القرآن الكريم، والاستماع إليه، واغتنام الساعات الفاضلة في قيام الليل، ومجاهدة النفس على الخشوع والتدبر وحضور القلب؛ فكان ذلك من أعظم القربات إلى الله تعالى، وله آثار عظيمة في تزكية النفس، وسمو الروح؛ وترقيتها في مقامات الكمال، فمن أعظم ما ظفر به الصحابة من آثار الذكر والدعاء والتلاوة مناجاة الله وتحقيقهم في مقامات العبودية، التي تعلي مكانتهم عند الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: ((يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب مني شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة)).

ومن أعظم أنواع الذكر التي مارسها الصحابة الكرام } تلاوة القرآن الكريم، فقد عظمت محبة الله في قلوبهم، وازدادت خشيتهم له ﷻ فقد شفى القرآن نفوسهم من أمراضها، وتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله سبحانه:

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤] وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

وكان للصحابة مع الدعاء شأنًا عظيمًا؛ فقد علمهم النبي ﷺ بأنه من أجلى مظاهر العبودية والمناجاة لله ﷻ قال رسول الله ﷺ: ((الدعاء هو العبادة)) ولقد أمر ﷻ عباده بالدعاء، وتوعد من يستكبر فيترك الدعاء، وكأنه مستغنٍ عن ربه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال ابن كثير -رحمه الله تعالى-: "يستكبرون عن عبادتي أي عن دعائي وتوحيدي"، كان النبي ﷺ يبين لهم حاجة القلب إلى غذاء دائم من ذكر ودعاء وتلاوة قرآن، ليكون ذلك تحصينًا لهم من الأمراض والآفات، وبين لهم ما يُستحب للمسلم من الأدعية والأذكار في الصباح والمساء، وعند دخول المنزل أو الخروج منه، وعند دخول السوق أو الأكل أو اللبس، وغير ذلك من الأعمال اليومية؛ حتى يبقى في وقاية دائمة من كل مرض.

فإذا أصيب بمرض عارض كالقلق والكآبة والاضطراب العصبي، أو غيرها كانت تلك الأذكار والدعوات البلسم الشافي الذي تطمئن به القلوب وتحيا به النفوس، ومن بين تلك الأذكار والدعوات المأثورة التي علمها رسول الله ﷺ لأصحابه فقد كان ﷺ يقول في الشدة وعند الكرب: ((لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم)).

فقد علم رسول الله ﷺ أصحابه كيف يلجئون إلى الله سبحانه وقت الضيق ليجدوا المأمن والسكينة، فلا يفزعوا ولا يقلقوا وهم موقنون بأن الله معهم، وأنه ناصرهم ومتولي أمرهم، ومؤيدهم وأنه يجيب دعاء المضطرين، قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

إن الذكر والدعاء وتلاوة القرآن، وقيام الليل، والنوافل بأنواعها لها أثر عظيم في تزكية النفس، وسمو الروح ومهما كتبنا في هذا الموضوع؛ فلا يمكن أن تحيط به صفحات ولا كتب، وإنما هذا جزء من كل وفيض من غيض، والله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ [الشمس: ٧- ٩] وقال ﷻ: ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ ﴾ [القيامة: ١: ٤] وقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وهذا رسولنا ﷺ هو قدوتنا في ذلك في تزكية النفس، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: "صليتُ مع رسول الله ﷺ ليلة فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء، قلنا: وما هممت؟ قال: أن قعد وأزر النبي ﷺ".

وعن حذيفة قال: ((صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح "البقرة"؛ فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعة؛ فمضى فقلت: يركع بها، ثم افتتح "النساء" فقرأها ثم افتتح "آل عمران" فقرأها يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم؛ فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن

حمده، ثم قام طويلًا قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى؛ فكان سجوده قريبًا من قيامه)).

وعن عائشة < قالت: ((كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر أحيا الليل، وأيقظ أهله، وشد المئزر)).

كيف يستفيد الداعية من منهج التزكية في مجال الدعوة الإسلامية:

أولًا: إخضاع النفس والهوى لطاعة الله ﷻ.

ثانيًا: إبعادها عن الشهوات وصد القلب عن التمني والتشهي.

ثالثًا: تعود الصبر عند الشدائد على الطاعات وعن المعاصي.

رابعًا: طريق قويم يوصل إلى رضوان الله تعالى والجنة.

خامسًا: قمع للشيطان ووساوسه.

سادسًا: نهي النفس عن الهوى فيه خير الدنيا والآخرة.

سابعًا: من جاهد نفسه وأدبها؛ سما بين أقرانه وفي مجتمعه.

ثامنًا: سوء الظن بالنفس يعين على محاسبتها وتأديبها.

تاسعًا: من يجاهد نفسه يمتلك ناصية الخير ويصبح حسن الأخلاق.

عاشرًا: تحقق إنكار الذات وتصفي الجماعة من الأثرة الضارة بالجماعة والمجتمع.

ولا شك أن هذه العوامل تعين الداعية على أداء رسالته على أكمل وجه.

منهج النقد الذاتي

عناصر الدرس

العنصر الأول :	مفهوم منهج النقد الذاتي، وأهمية محاسبة النفس وأركانها	٢٠٩
العنصر الثاني :	خطوات محاسبة النفس	٢١٩
العنصر الثالث :	كيف يستفيد الداعية الداعية في مجال الدعوة من محاسبة النفس؟	٢٢٢

مفهوم منهج النقد الذاتي، وأهمية محاسبة النفس وأركانها

منهج النقد الذاتي: مفهومه:

النقد الذاتي هو: أن يحاسب الإنسان نفسه.

المحاسبة لغةً:

مصدر حاسب يحاسب، وهو مأخوذ من مادة "ح س ب" التي تدل على العد، تقول: حسبت الشيء أحسبه حسبًا وحسبانًا وحسابًا، وحسابة إذا عددته.

وقال ابن منظور: "الحساب والمحاسبة عدك الشيء، وحسب الشيء يحسبه بالضم، حسبًا وحسابًا وحسابةً عده وحاسبه من المحاسبة، ورجل حاسب من قوم حسب وحساب، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢] أي: حسابه واقع لا محالة، وكل واقع فهو سريع، وسرعة حساب الله أنه لا يشغله حساب واحد عن محاسبة الآخر، وقوله ﷻ: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] أي: كفى بك لنفسك محاسبًا".

المحاسبة اصطلاحًا:

قال المناوي: المحاسبة هي استيفاء الأعداد فيما للمرء أو عليه.

محاسبة النفس اصطلاحًا:

قال الإمام الماوردي: محاسبة النفس أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن فكان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل.

أهمية محاسبة النفس:

قال الغزالي -رحمه الله: اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح، وكما أن التاجر يستعين بشريكه؛ فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه؛ فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنّما مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها. قال الله تعالى: ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة.

والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة، إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها، كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله، وكما أن الشريك يصير خصمًا منازعًا يجاذبه في الربح؛ فيحتاج إلى أن يشارطه أولًا، ويراقبه ثانيًا، ويحاسبه ثالثًا، ويعاقبه أو يعاتبه رابعًا.

والعقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولًا، فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط، ويرشدها إلى طريق الفلاح، ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة؛ فإنه لو أهملها لم يرَ منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال، كالعبد الخائن إذا خلا له الجو، وانفرد بالمال.

ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها، ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى، وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء؛ فتدقيق الحساب في هذا مع النفس، أهم كثيرًا من تدقيقه في أرباح الدنيا، مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء، ولا خير في خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم؛ لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائمًا، وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائمًا، وقد انقضى الخير وكذلك قيل:

أشد الغم عندي في سرور ❖ تيقن عنه صاحبه انتقالا

فحتم على ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر ألا يغفل عن محاسبة نفسه، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها، وخطراتها وخطواتها؛ فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشترى بها كنز من الكنوز، لا يتناهى نعيمه أبد الآبدين، فانقباض هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك، خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل.

فإذا أصبح العبد، وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس؛ كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته، فيقول للنفس: مالي بضاعة إلا العمر، ومهما فني فقد فني رأس المال، ووقع اليأس من التجارة وطلب الربح. وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه، وأنسأ في أجلي، وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يومًا واحدًا؛ حتى أعمل فيه صالحًا، فاحسبي أنك قد توفيتي، ثم قد رددتي؛ فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لها قيمة.

قال صاحب المنازل: المحاسبة لها ثلاثة أركان:

الركن الأول:

أن تقايس بين نعمته وجنايتك، يعني: تقايس بين ما من الله وما منك؛ فحينئذ يظهر لك التفاوت، وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته، أو الهلاك والعطب، وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب، والعبد عبد، ويتبن لك حقيقة النفس وصفاتها، وعظمة جلال الربوبية، وتفرد الرب بالكمال والإفضال، وأن كل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة

نفسك، وبربوبية فاطرها وخالقها؛ فإذا قايست ظهر لك أنها منبع كل شر، وأساس كل نقص، وأن حدها الجاهلة الظالمة، وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته لها ما زكت أبدًا، ولولا هداه ما اهتدت، ولولا إرشاده وتوفيقه لما كان لها وصول إلى خير ألبتة.

وأن حصول ذلك فها من بارئها وفاطرها وتوقفها عليه كتوقف وجودها على إيجاده، فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود، فكذلك ليس لها من ذاتها كمال الوجود، فليس لها من ذاتها إلا العدم؛ عدم الذات، وعدم الكمال، فهناك تقول حقًّا: أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي.

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات؛ فتعلم بهذه المقايسة أيهما أكثر وأرجح قدرًا وصفة، وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك، وما منك خاصة، قال: وهذه المقايسة تشق على من ليس له ثلاثة أشياء: نور حكمة، وسوء الظن بالنفس، وتميز النعمة من الفتنة.

يعني: أن هذه المقايسة والمحاسبة تتوقف على نور الحكمة، وهو النور الذي نور الله به قلوب أتباع الرسل، وهو نور الحكمة بقدره ترى التفاوت وتتمكن من المحاسبة، ونور الحكمة ها هنا هو العلم الذي يميز به العبد بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والضار والنافع، والكامل والناقص، والخير والشر. ويبصر به مراتب الأعمال راجحها ومرجوها، ومقبولها ومردودها، وكلما كان حظه من هذا النور أقوى كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم.

وأما سوء الظن بالنفس؛ فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، ويلبس عليه؛ فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالًا؛ فإن المحب يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك: فعين الرضا عن كل عيب كليلة، كما أن عين

السخط تبدي المساوي. ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بنفسه؛ فهو من أجهل الناس بنفسه.

وأما تمييز النعمة من الفتنة: فليفرق بين النعمة التي يرى بها الإحسان واللطف، ويُعان بها على تحصيل سعادته الأبدية، وبين النعمة التي يرى بها الاستدراج؛ فكم من مستدرج بالنعم، وهو لا يشعر؛ مفتون بثناء الجهال عليه، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه، وأكثر الخلق عندهم أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح، ذلك مبلغهم من العلم.

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله؛ فهو نعمة حقيقية، وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء في صورة النعمة، والمحنة في صورة المنحة؛ فليحذر فإنما هو مستدرج، ويميز بذلك أيضًا بين المنة والحجة، فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى؛ فإن العبد بين منة من الله عليه، وحجة منه عليه، ولا ينفك عنهما، فالحكم الديني متضمن لمنته وحجته.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

والحكم الكوني أيضًا متضمن لمنته وحجته؛ فإذا حكم له كونًا حكمًا مصحوبًا باتصال الحكم الديني به؛ فهو منة عليه. وإن لم يصحبه الديني فهو حجة منه عليه، وكذلك حكمه الديني إذا اتصل به حكمه الكوني؛ فتوفيقه للقيام به منة منه عليه، وإن تجرد عن حكمه الكوني صار حجة منه عليه، فالمنة اقتران أحد الحكمين بصاحبه، والحجة في تجرد أحدهما عن الآخر؛ فكل علم صحبه عمل يرضي الله سبحانه؛ فهو منة وإلا حجة، وكل قوة ظاهرة وباطنة صحبها تنفيذ

لمرضاته وأوامره؛ فهي منة، وإلا فهي حجة، وكل حال صحبه تأثير في نصرة دينه والدعوة إليه فهو منه منة، وإلا فهو حجة، وكل مال اقترن به انفاق في سبيل الله وطاعته لا لطلب الجزاء والشكور فهو منة من الله عليه وإلا فهو حجة.

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده؛ فهو منة عليه وإلا فهو حجة، وكل قبول في الناس وتعظيم ومحبة له اتصل به خضوع للرب وذل وانكسار، ومعرفة بعيب النفس والعمل، وبذل النصيحة للخلق فهو منة، وإلا فهو حجة، وكل بصيرة وموعظة وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد اتصل به عبرة ومزيد في العقل، ومعرفة في الإيمان؛ فهو منة وإلا فهو حجة.

وكل حال مع الله تعالى أو مقام اتصل به السير إلى الله، وإيثار مراده على مراد العبد فهو منة من الله، وإن صحبه الوقوف عنده والرضا به وإيثار مقتضاه من لذة النفس به وطمأنينتها إليه، وركونها إليه فهو حجة من الله عليه.

فليتأمل العبد هذا الموضع العظيم الخطر، ويميز بين مواقع المنن والمحن، والحجج والنعم، فما أكثر ما يلتبس ذلك على خواص الناس، وأرباب السلوك، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الركن الثاني:

والركن الثاني من أركان محاسبة النفس هو أن يميز ما للحق عليه من وجوب العبودية، والتزام الطاعة واجتناب المعصية، وبين ما لك وما عليك؛ فالذي لك هو المباح الشرعي، فعليك حق ولك حق، فأدِّ ما عليك يؤتك ما لك، ولا بد من التمييز بين ما لك وما عليك، وإعطاء كل ذي حق حقه، وكثير من الناس يجعل كثيرًا مما عليه من الحق من قسم ما له، فيتحير بين فعله وتركه، وإن فعله رأى أنه فضل قام به لا حق أداه.

وبإزاء هؤلاء من يرى كثيرًا مما له فعله وتركه من قسم ما عليه فعله أو تركه، فيتعبد بترك ما له فعله؛ كترك كثير من المباحات، ويظن ذلك حقًّا عليه، أو يتعبد بفعل ما له تركه ويظنه ذلك حقًّا عليه.

مثال الأول: من يتعبد بترك النكاح، أو ترك أكل اللحم أو الفاكهة مثلًا أو الطيبات من المطاعم والملابس، ويرى لجهله أن ذلك مما عليه، فيوجب على نفسه تركه أو يرى تركه من أفض القرب وأجل الطاعات، وقد أنكر النبي ﷺ على من زعم ذلك؛ ففي الصحيحين: "أن نفرًا من أصحاب النبي ﷺ سألوا عن عبادته في السر فكأنهم تقالوها؛ فقال أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم، أما أنا فلا أتزوج النساء، وقال الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش، فبلغ النبي ﷺ مقالتهم فخطب، وقال: ((ما بال أقوام يقول أحدهم: أما أنا فلا آكل اللحم، ويقول الآخر: أما أنا فلا أتزوج، ويقول الآخر: أما أنا فلا أنام على فراش، لكني أتزوج النساء، وآكل اللحم وأنام وأقوم، وأصوم وأفطر؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني)).

فتبرأ ممن رغب عن سنته، وتعبد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات رغبة عنه، واعتقادًا أن الرغبة عنه وهجره عبادة، فهذا لم يميز بين ما عليه وما له.

المثال الثاني: من يتعبد بالعبادات البدعية التي يظنها جالبة للحال، والكشف والتصرف، ولهذه الأمور لوازم لا تحصل بدونها ألبتة، فيتعبد بالتزام تلك اللوازم فعلًا وتركًا، ويراها حقًّا عليه، وهي حق له، وله تركها كفعل الرياضات والأوضاع التي رسمها كثير من السالكين بأذواقهم ومواجيدهم واصطلاحاتهم، من غير تمييز بين ما فيها من حظ العبد والحق الذي عليه، فهذا لون وهذا لون.

الركن الثالث:

من أركان المحاسبة ما ذكره صاحب (المنازل) فقال: "أن تعرف أن كل طاعة رضيتها منك فهي عليك، وكل معصية عيرت بها آخاك فهي إليك".

رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه، وجهله بحقوق العبودية، وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله، ويليق أن يُعامل به، وحاصل ذلك: أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها، وعيوب عمله وجهله بربه وحقوقه، وما ينبغي أن يعامل به، يتولد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها.

ويتولد من ذلك من العجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا وشرب الخمر والفرار من الزحف ونحوها، فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها، وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات؛ لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها، كما يليق بجلاله وكبريائه وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجل المواقف وأفضلها، فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧] قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر؛ ثم جلسوا يستغفرون الله ﷻ، وفي الصحيح: ((أن النبي ﷺ

كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثًا، ثم قال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام))، وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها، وقضاء فرض الحج واقتراب أجله فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر: ١- ٣].

ومن ها هنا فهم عمر وابن عباس { أن هذا أجل رسول الله ﷺ أعلمه به؛ فأمره أن يستغفر عقيب أداء ما كان عليه، فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء؛ فاجعل خاتمته الاستغفار كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل وخاتمة الوضوء أيضًا أن يقول بعد فراغه: "سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، اللهم اجعلني من التوابين، واجعلني من المتطهرين". فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها فلا جهل أصحاب الدعاوى وشطحاتهم.

ولله در الشيخ أبي مدين حيث قال: "من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء، وأحواله بعين الدعوة، وأقواله بعين الافتراء، وكلما عظم المطلوب في قلبك، صغرت نفسك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله، وكلما شهدت حقيقة الربوبية، وحقيقة العبودية وعرفت الله، وعرفت النفس وتبين لك أن ما معك من البضاعة؛ لا يصلح للملك الحق، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته، وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله، ويثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضله".

التعيير بالذنب وفائدة الاعتبار:

قوله: "وكل معصية عيرت بها أخاك فهي إليك، يُحتمل أن يريد به أنها صائرة إليك ولا بد أن تعملها". وهذا مأخوذ من الحديث الذي رواه الترمذي في جامعه

عن النبي ﷺ: ((من عَيّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله))، قال الإمام أحمد في تفسير هذا الحديث: "من ذنب قد تاب منه". وأيضًا ففي التعيير ضرب خفي من الشماتة بالمعير، وفي الترمذي أيضًا مرفوعًا: ((لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك)).

ويُحتمل أن يريد أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه، وأشد من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به، وما أحدث له من الذلة والخضوع والازدراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب، أنفع له، وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه، فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله، وما أقرب هذا المذل من مقت الله، فذنب تُذل به لديه أحب إليه من طاعة تذل بها عليه.

وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المعجب لا يصعد له عمل، وإنك إن تضحك وأنت معترف خير من أن تبكي وأنت مُذل، وأنين المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المذلين.

ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلًا هو فيك ولا تشعر؛ فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر؛ فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر وراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبين.

قد قال النبي ﷺ: ((إذا زنت أمة أحدكم فليقم عليها الحد ولا يثرب))، أي: لا يُعير من قول يوسف # لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾، [يوسف: ٩٢]. فإن الميزان بيد الله، والحكم لله؛ فالسوط الذي ضرب به هذا العاصي بيد مقلب

القلوب، والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب، ولا يأمن كرات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله، وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به وأقربهم إليه وسيلة: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤].

وقال يوسف الصديق: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣] وكانت عامة يمين رسول الله ﷺ ((لا ومقلب القلوب))، وقال: ((ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ﷻ إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، ثم قال: اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك)).

خطوات محاسبة النفس

محاسبة النفس نوعان:

النوع الأول: قبل العمل.

النوع الثاني: بعد العمل.

النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يُبادر بالعمل؛ حتى يتبين له رجحانه على تركه. قال الحسن -رحمه الله-: "رحم الله عبدًا وقف عند همه؛ فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر".

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل وهو ثلاثة أنواع:

الأول: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي، وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور: وهي: "الإخلاص في

العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وحصول المراقبة فيه، وشهود منة الله عليه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله؛ فيحاسب نفسه هل وفى هذه المقامات حقها، وهل أدى بها في هذه الطاعة".

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لم فعله، وهل أراد به الله والدار الآخرة؛ فيكون رابحًا أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به.

وقال الغزالي في بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل: "اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق؛ فينبغي له أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويُحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم؛ حرصًا منهم على الدنيا، وخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم؛ فلا يبقى إلا أيامًا قلائل، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد، ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة الخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك".

قال عمر بن الخطاب > : "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية".

قال أنس بن مالك > : "سمعت عمر بن الخطاب > يومًا وقد خرجت معه حتى دخل حائطًا؛ فسمعته يقول، وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط:

"عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخٍ، والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك".

كذلك قال عمر بن الخطاب > لفضيل بن زيد الرقاشي: "لا يلهينك الناس عن ذات نفسك؛ فإن الأمر يخلص إليك دونهم، ولا تقطع النهار بكيت وكيت، فإنه محفوظ عليك ما قلته، ولم ترَ شيئًا أحسن طلبًا، ولا أسرع إدراكًا من حسنة حديثة لذنب قديم".

وقال مالك بن دينار -رحمه الله-: "رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألست صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله ﷻ فكان لها قائدًا".

وعن وهب بن منبه قال: "مكتوب في حكمة آل داود: حُق على العاقل ألا يغفل عن أربع ساعات؛ ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويُحمد؛ فإن في هذه الساعة عونًا على تلك الساعات وإجمامًا للقلوب.

وحق على العاقل ألا يُرى ظاعنًا إلا في ثلاثة زاد لميعاد، أو مرمة لمعاش، أو لذة في غير محرم، وحق على العاقل أن يكون عارفًا لزمانه، حافظًا للسانه، مقبلًا على شأنه".

تطبيقات ذلك من القرآن والسنة:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۝٢٠ ﴾ [الحشر: ١٨- ٢٠].

وعن حنظلة الأسيدي > وكان من كتاب رسول الله ﷺ قال: لقيني أبو بكر؛ فقال: "كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة، فقلت: سبحان الله ما تقول؟ قال: قلت نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والحنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا، قال أبو بكر: فوالله إنا لنلقى مثل هذا.

فانطلقت أنا وأبو بكر، حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: ((وما ذاك؟)) قلت: يا رسول الله، نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا؛ فقال رسول الله ﷺ: ((والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر؛ لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات)).

وعن شداد بن أوس، عن النبي ﷺ قال: ((الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)).

كيف يستفيد الداعية في مجال الدعوة من محاسبة النفس؟

كيف يستفيد الداعية في مجال الدعوة من محاسبة النفس؟

كان السلف الصالح } يعطون القدوة في تقواهم ومحاسبتهم، وفي إلزامهم أنفسهم بالعقوبة إذا قصروا، وفي عزمهم على الطاعة إذا تساهلوا، ولا بأس أن نذكر بعض النماذج والأمثال ليستفيد منها الدعاة إلى الله ﷻ:

روي عن عمر الفاروق > : "أنه خرج إلى حائط -أي: بستان- ثم رجع وقد صلى الناس العصر فقال: "إنما خرجت إلى حائطي ورجعت وقد صلى الناس العصر، حائطي صدقة على المساكين".

قال الليث: "إنما فاتته الجماعة"، وروي عنه أيضًا: "أنه شغله أمر عن المغرب حتى طلع نجمان فلما صلاها أعتق رقبتين".

وحكي عن الصحابي الجليل أبو طلحة: "أنه كان في الصلاة فمرت أمامه قبرة - أي: طائر كالعصفور- فتشاغل عن الصلاة في النظر إليها حتى نسي كم صلى، فتصدق بحائطه على المساكين عقوبة على نسيانه، وانصرافه عن الخشوع".

ومما يذكره الرواة: "أن تميم الداري نام ليلة لم يقم يتهجد فيها لله حتى أصبح؛ فألزم نفسه سنة لا ينام يتهجد فيها بالعبادة عقوبة لما صنع".

ومرّ حسان بن سنان ببيت قد بني فقال: "متى بُني هذا؟ ثم أقبل على نفسه فقال: تسألين عما لا يعنيكي؛ لأعاقبنك بصوم سنة فصامها عقوبة على تدخله فيما لا يعنيه".

ولا بأس أن ينهج الداعية نهج السلف الصالح في محاسبة النفس، ومعاقبتها إذا رأى نفسه مقصرًا في مسئولية، ومتخليًا عن حق من حقوق الله أو العباد، كأن يعاقب نفسه بالتصدق بمبلغ معين، إذا قصر مثلًا في صلاة الجماعة، أو يعاقب نفسه بالصيام بأيام محدودة إذا تكاسل عن صلاة التهجد، أو أن يعاقب نفسه بركعات معدودة من صلاة النفل إذا تساهل في زيارة إخوانه الأصفياء.

وفي تقديري: أن الداعية إلى الله إذا عاقب نفسه في حال التقصير بمثل هذه العقوبات؛ فإنه -ولا شك- يتدرج سريعًا نحو التقوى، ويسير حثيثًا في طريق الروحانية، ولا بد أن يصل في نهاية المطاف إلى منازل المتقين الأبرار.

وهذا يدفعنا إلى الحديث عن مجاهدة النفس، ومدى استفادة الداعية منها لدعوته:

المجاهدة:

الأصل فيها قوله تعالى في سورة "العنكبوت": ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، والمجاهدة معناها كما تدل عليها الآية: أن المؤمن إذا أخلد بحكم الكسل والاسترخاء، والتثاقل إلى الأرض، وأصبح لا يؤدي النوافل في حينها، ولا الطاعات في أوقاتها؛ فعليه أن يجاهد نفسه على أن يؤدي طاعة النافلة أكثر مما كان يؤديها من قبل، قصرًا وإلزامًا، واندفاعًا وحماسًا؛ حتى تصبح طاعاته في المستقبل عادة كريمة من عاداته وخلقًا أصيلًا من أخلاقه.

وحسبه قدوة في هذا الاعتياد وهذا التخلق الرسول ﷺ، الذي كان كما تروي عائشة > يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، ولما سألته > : لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فأجابها ﷺ بقوله: ((أفلا أكون عبدًا شكورًا)).

وتقول عائشة > فيما رواه الشيخان: ((كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر - أي: من رمضان- أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجد وشد المئزر)) وهذه المجاهدة في الإقبال على الله بالنوافل والطاعات؛ قد أمر بها وحض عليها رسول الله ﷺ في أكثر من حديث؛ ليكون الدعاة والعلماء وورثة الأنبياء أول المتحققين بها والمبادرين إليها.

فمن توجيهاته ﷺ في هذا الصدد: ما رواه البخاري عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه)).

وهكذا يكون الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان؛ فإنهم يقتفون أثر رسول الله ﷺ ويقتدون به ﷺ.

المنهج التجديدي

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	مفهوم المنهج التجديدي	٢٢٧
العنصر الثاني	:	الإسلام صالح لكل زمان ومكان، قابل للتجديد والمعاصرة	٢٣٥
العنصر الثالث	:	كيف يستفيد الداعية في مجال الدعوة من منهج التجديد؟	٢٣٩

مفهـــوم المـــنهج التجديـــدي

المنهج التجديدي:

مفهومه:

جدد يجدد تجديدًا، أي: سيره جديدًا، والجديد ما لا عهد لك به، والجديد ضد القديم، ويُقال: هو من جد الشيء جدة، فهو جديد، أي: حدث بعد أن لم يكن شيئًا، واستجد الشيء استحدثه وسيره جديدًا.

قال الفيومي: "جدد فلان الأمر وأجده واستجده إذا أحدثه فتجدد هو، وقد يستعمل استجد لازمًا، والجديد و الجدد وجه الأرض، ورجل جديد إذا كان ذا حظ من الرزق، والجديد الموت، والجديدان الليل والنهار" هذه هي معاني التجديد التي وردت في اللغة.

ويعتبر مفهوم التجديد من أكثر المفاهيم التي تنازعتها التيارات الثقافية والفكرية المختلفة، وقد انعكس هذا التنازع على المفهوم ذاته من حيث معناه ودلالاته، وواقعيًّا يصل الباحثون لمسلمة هي أن التجديد على المستوى النظامي والحركي، قد تخفق أهم جهوده؛ نظرًا لعدم وضوح التأصيل الفكري والمنهجي لعملية التجديد.

في تأكيد واضح على أهمية الربط بين النظرية والفاعلية في مجال التجديد الحضاري، والتجديد في اللغة العربية من أصل الفعل تجدد، أي: صار جديدًا، جدده أي: صيره جديدًا، وكذلك أجده واستجده، وكذلك سُمي كل شيء لم تأت عليه الأيام جديدًا.

ومن خلال هذه المعاني اللغوية يمكن القول: إن التجديد في الأصل معناه اللغوي يبعث في الذهن تصورًا تجتمع فيه ثلاثة معاني متصلة:

الأول: أن الشيء المجدد قد كان في أول الأمر موجودًا وقائمًا وللناس به عهد.

الثاني: أن هذا الشيء أتت عليه الأيام فأصابه البلى وصار قديمًا.

الثالث: أن ذلك الشيء قد أعيد إلى مثل الحالة التي كان عليها قبل أن يُبلى ويخلق. ولقد استخدمت كلمة جديد، وليس لفظ التجديد في القرآن الكريم بمعنى البعث والإحياء والإعادة غالبًا للخلق، وكذلك أشارت السنة النبوية لمفهوم التجديد من خلال المعاني السابقة المتصلة: الخلق، الضعف، أو الموت، الإعادة، الإحياء، ويعتبر حديث التجديد عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد دينها)) رواه أبو داود.

من أهم الإشارات إلى مفهوم التجديد في السنة النبوية، وقد تعلقت بهذا الحديث مجموعة من الأفكار أهمها:

١. تجديد الدين:

هو في حقيقته تجديد وإحياء وإصلاح لعلاقة المسلمين بالدين، وبالتفاعل مع أصوله والاهتداء بهديه، لتحقيق العمارة الحضارية وتجديد حال المسلمين، ولا يعني إطلاقًا تبديلًا في الدين أو الشرع ذاته.

٢. زمن التجديد:

اعتبر بعض الباحثين أن الإشارة الواردة في الحديث، عن زمن التجديد على رأس كل مائة سنة؛ إنما هي دلالة على حقيقة استمرارية عملية التجديد، وتقارب زمانه بحيث يصبح عملية تواصل وتوريث.

٣. المجدد:

اجتهد العلماء في توصيف وتحديد المجدد على رأس كل مائة سنة، لكن البعض يرى أن المُجدد يقصد به الفرد أو الجماعة، التي تحمل لواء التجديد في هذا العصر أو ذاك، ويجوز تفرقهم في البلاد. ويعرفهم ابن كثير بأنهم: "حملة العلم في كل عصر"، ويُعد التجديد مفهومًا مناقضًا لمفهوم التقليد ويقصد بالتقليد محاكاة الماضي بكل أشكاله وشكلياته.

ولقد أدى التقليد إلى انفصال بين الوحي والعقل، وكأنهما متضادان لا يمكن الجمع بينهما، وبناء على ذلك؛ فإن عملية التجديد تعتبر ضرورية لإعادة ضبط العلاقة بين الوحي والعقل، حتى لا تضطرب الأمور فيصير التجديد نابعًا من الخارج "التقليد الغربي"، أو مرتدًا نحو الماضي لمحاولة إعادته "تقديس التراث"، ولكنها تعني أن العقل هدفه تكريم الإنسان، وأساس تحمله للأمانة وقاعدة التكليف، والالتزام بقواعد الاستخلاف.

ويتيح الربط بين فكرة التجديد والخبرة التاريخية الغربية أبعادًا جديدة، حيث يُعتبر مفهوم التجديد لدى الغرب إفرازًا لصراع حادٍ بين الكنيسة من جانب، وسلطة المعرفة والعلم والعقل من جانب آخر، مما دفع الأخيرة للاتجاه نحو تجاوز كل النظريات الدينية، تحت مسمى التجديد.

يرتكز مفهوم التجديد في الفكر الغربي على أساسين:

الأول: لا ترى عملية التجديد إلا بمنظور التكيف، في إطار من نسبية القيم وغياب العلاقة الواضحة بين الثابت والمتغير، إذ تعتبر كل قيمة قابلة للإصابة بالتبدل والتحول، وعلى الإنسان أن يستجيب لهذه التغيرات بما أسمته التكيف.

ولم يطرح الفكر الغربي قواعد لعملية التجديد وحدوده وغاياته ومقاصده.

الثاني: يغلب على مفهوم التجديد في الفكر الغربي عملية التجاوز المستمرة للماضي، أو حتى الواقع الراهن؛ من خلال مفهوم الثورة والذي يشير إلى التغيير الجذري، والانقلاب في وضعية المجتمع، وتبدو فكرة التجاوز مرتبطة بالفكر الغربي، الذي يقوم على نفي وجود مصدر معرفي مستقل عن المصدر المعرفي البشري المبني على الواقع المشاهد أو المحسوس المادي.

ومقارنة بالفكر الغربي القائم على تجاوز الماضي وغياب المعايير الثابتة للتجديد فإن مفهوم التجديد في الفكر الإسلامي يعني العودة إلى الأصول، وإحيائها في حياة الإنسان المسلم بما يمكن من إحياء ما اندرس، وتقويم ما انحرف، ومواجهة الحوادث والوقائع المتجددة من خلال فهمها، وإعادة قراءتها تمثلًا للأمر الإلهي المستمر بالقراءة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

وفي الواقع يرتبط مفهوم التجديد بشبكة من المفاهيم النظرية المتعلقة بالتأصيل النظري للمفهوم، والمفاهيم الحركية المتعلقة بالممارسة الفعلية لعملية التجديد.

على سبيل المثال يتشابك مفهوم التجديد مع مفهومي الأصالة والتراث؛ حيث يُقصد بالأصالة تأكيد الهوية والوعي بالتراث دون تقليد جامد، وتلك المقاصد جزء من غايات التجديد، كما يشتبك التجديد مع مفهوم التغريب، الذي يعبر عن عملية النقل الفكري من الغرب، وهو ما قد يحدث تحت دعوى التجديد.

وعلى صعيد المفاهيم الحركية تُطرح مفاهيم مثل: التقدم، والتحديث، والتطور، والتقنية، والنهضة؛ لتعبر عن رؤية غربية لعملية التجديد، نابعة من الأخبار التاريخية الغربية ومستهدفة لربط عملية التجديد في كل الحضارات بالحضارة الغربية؛ باعتبارها قمة التقدم وهدفًا للدول الساعية نحو التنمية، كما تظهر مفاهيم مثل: "الإصلاح" و"الإحياء". وهي نابعة من الرؤية الإسلامية

لعملية التجديد ؛ حيث التجديد هو إحياء لنموذج حضاري وُجد من قبل ، ولم تحدث تجاهه عمليات التجاوز والخلاص.

ويتضح مما سبق مدى الارتباط بين مفهوم التجديد فكرًا وممارسة ، وبين الخبرة التاريخية والمرجعية الكبرى النهائية للمجتمع. والمجدد الحقيقي هو من يجدد الدين بالدين ، أما من يريد تجديد الدين من خارجه -أي : بمفاهيم مستوردة وأفكار دخيلة- فهو أبعد ما يكون عن التجديد الحق.

إنّ حركة الناس لا تقف لحظة واحدة ، ومنذ القدم والإنسانية في تطور دائم في كافة جوانبها ، إنه تطور يشمل الإنسان ظاهرًا وباطنًا ، ويشمل الحركة مظهرًا واتجاهًا ، ويشمل الفكر عمقًا وهدفًا ، ويشمل المادة تصورًا ووظيفة وطاقة ، إنه تطور ملموس تنطق به الحضارات ، ويشهد له ما تركه الإنسان من آثارًا وعمران وأفكار وعلوم.

وما زال التطور ماض في طريقه لا يمكن لقوة ما أن تمنعه أو تصده ، وبخاصة في عالم تلاقت فيه الأفكار ، وتلاحمت خلاله الحضارات والمفاهيم ، وصار ما يحدث في أقصى الأرض يتردد صداه في كافة أرجاء الكون بعد ثوان معدودات.

والخالق العليم بخلقه وعباده يعلم ما يحدث للناس والدين إرادة الله ﷻ لهم وقدره فيهم ؛ لذلك عدد الرسل إليهم ، ونوع الرسالات التي أوحى بها إليهم ، وجعل لكل رسول رسالة تتضمن دين الله تعالى لقومه خاصة ؛ ليناسب ما هم فيه من فكر عقلي ، وحضارة مادية ، وضرورات يحتاجون إليها ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ [فاطر : ٢٤].

إن كوكبة الرسل والأنبياء من لدن آدم # إلى محمد ﷺ بلغت عددًا لا يُحصى حيث ذكر الله تعالى بعضهم في القرآن الكريم ، ولم يذكر الآخرين ، وكل رسول

منهم دعا بدين لله تعالى خص به قومه، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء: ١٦٣- ١٦٥].

فرسل الله جميعًا جاءوا بوحي الله تعالى، وبلغ كل منهم دين الله لقومه خاصة؛ كما أمره الله تعالى والسبب في هذا التنوع هو اختلاف كل قوم عن غيرهم، بسبب ما نالوه من تطور أو تغيير أو وعي وإدراك؛ فلو كانت البشرية على نمط ثابت لا يتغير لاستمرت دعوة نوح # صالحة لهذه البشرية الثابتة، ولما احتاج الناس إلى رسالة جديدة.

ولكن التطور فرض نفسه كما أراد الله تعالى له؛ ولذا تعددت الرسالات وجاء الرسل، وصار لكل قوم منهج خاص بهم يرتبط بهم ويعد تجديدًا لدين الله تعالى الذي جاء به الرسول السابق، ولو كان تكرارًا حرفيًّا لما دعت الحاجة إليه.

إن الدين في مجمله عقيدة وشريعة وأخلاق، وليست كلها تتأثر بالتطور والتغيير؛ لأن العقيدة تدور حول أركان ثابتة لا تتغير أبدًا؛ فوحدانية الله لا تكون عددًا، وصفاته العلى لا تتغير ولا تتبدل، وهو سبحانه رب العالمين، ومنزل الكتب، ومرسل الرسل، وإليه أمر الناس في الدنيا والآخرة. إن هذه أمور لا تتغير؛ ولذا جاء الرسل جميعًا بعقيدة واحدة، تتضمن أركانًا واحدة، هذه العقيدة هي الدين المشار إليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩].

وفي قوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

وأساسيات هذه العقيدة هي توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له سبحانه وتعالى؛ ولذلك رأينا كل رسول من رسل الله -عليهم الصلاة والسلام- يدعو إلى توحيد الله تعالى، وإلى أن تكون العبادة لله خاصة، وإلى التعريف بما لله من صفات تليق به سبحانه وتعالى، وما يتصل بالتوحيد من إيمان بالرسل والملائكة والكتب الإلهية، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، حلوه ومره.

فقضية العقيدة إذًا ثابتة خالدة، والدعوة إليها ضرورة حتمية، ومصلحة اجتماعية، وفطرة إنسانية، وكان ضلال الناس دائمًا في عقيدتهم بعدما لعب الشيطان بهم وزيَّن لهم الهوى؛ فعددوا الآلهة وألفوا لها نسكًا، وعبدوها من دون الله؛ فمنهم من جعل إلهه صنمًا، ومنهم من اتخذه وثنًا، ومنهم من أقامه بيتًا، ومنهم من أشعله نارًا، ومنهم من عبده شخصًا أو شجرًا أو نجمًا وهكذا.

ولذا تعددت الرسالات وخاطب كل رسول قومه بما فيهم من علة، وبما يناسبهم من حديث، وبما يقنعهم من دليل؛ حتى تكون الرسالة واضحة بينة كما أراد الله لها.

إن هذا التغاير بين الرسالات لا يمس جوهر العقيدة، وإنما يدور مع الأعراض التي تؤيدها وتثبتها، إنه يكون في الوسائل والأساليب والكيفيات واللسان، إنّ واقع كل فريق من الناس، واختلاف كل قوم عن غيرهم أدى إلى تغاير الرسالات في هذه النواحي؛ لأن مراعاة حال الناس أمر ضروري، حين التوجه إليهم إذ لا بد من لسان يفهمونه، وخطاب يدركون معناه وسلوك يقبلون عليه، وخلق يلتقي مع عواطفهم واتجاهاتهم ونفسياتهم وثقافاتهم.

إن من يبني بيتًا لا بد أن يلاحظ طبيعة الأرض التي يبني عليها ؛ ليتفق عمله مع جغرافياتها وتكوينها، ويؤسس للبناء الذي يريده بما يناسبه حتى يدوم ويفيد.

لقد تغيرت شخصية كل رسول عن الرسل السابقين ؛ حيث كان اختيار كل واحد من قومه ليكون أعرف بطبائعهم، وأعلم بأحوالهم واتجاهاتهم، وليتمكن من تبليغهم ومحاورتهم بما يليق بهم، والقرآن الكريم واضح في تأكيد هذه الحقيقة، وفي تبيين أن كل رسول بُعث لقومه بعد اختيار الله ﷻ وتكليفه بالرسالة، وقد تميز بين قومه بتسامي الخلق، وكمال الرشد، وصدق التوجه، والإخلاص لدعوته قومه إلى الله تعالى.

لقد أدى تغيير الناس إلى تغيير شخصيات الرسل ؛ فمنهم أولو العزم الذين أبلوا بلاءً حسنًا، وصبروا صبرًا جميلًا في الدعوة، وعاشوا وسط معارضات عديدة ومتميزة وهم: "نوح وإبراهيم وموسى عيسى ومحمد عليهم صلوات الله وسلامه". ومنهم غير أولي العزم وقد أدوا ما كلفوا به حسب مراد الله تعالى.

ولعل سر تغيير المعجزات وتنوعها، كان لملائمة من ظهرت لهم المعجزة ؛ لأنها تدعوهم إلى الله بلسان الحال، وتؤكد صدق الرسل في دعوى الرسالة وتؤيد سائر القضايا التي ينادي بها، وكأن الله تعالى يقول للناس صدق عبدي فيما يبلغ عني. ولهذا كانت المعجزات الحسية هي الغالبة مع رسل الله تعالى، فلما تغير الناس، ونضجت الأفكار وترقت العقول جاء القرآن الكريم.

لقد كانت المعجزة مع كل قوم من جنس ما تفوقوا فيه ؛ لتكون أدعى إلى التصديق، وأقوى إلى البرهنة على الحق، وأشد تأثيرًا في القلوب والعقول، وأيسر في التسلم ؛ لأن القوم سيقارنونها بما عندهم من شأن يشبه المعجزة، وحينئذ تؤدي بهم المقارنة إلى اكتشاف أن المعجزة التي يشاهدونها خارقة لمألوف علمهم وعاداتهم ؛ الأمر الذي يجلهم يسلمون بصدق الرسول في دعوته.

إن قوم موسى # تفوقوا في السحر، ولذلك كانت المعجزة إليهم جعل العصا ثعبانًا، وإخراج اليد من الجيب بيضاء لامعة من غير مرض أو ضر لقوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ﴾ [طه: ١٧ - ٢٣].

وكانت معجزة عيسى # إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى؛ لتفوق بني إسرائيل في الطب، وتمسكهم بالمادة يقول الله تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وكما تنوعت الرسل واختلفت المعجزات، تعددت اللغات التي جاء بها الرسل، وبلغوا بها دين الله تعالى، وذلك أمر لا بد منه، الله ﷻ يقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤].

الإسلام صالح لكل زمان ومكان، قابل للتجديد والمعاصرة

وحين ننظر إلى الإسلام دين الله تعالى الذي ختم به الرسالات والرسل، نلمس حقيقة ما احتوى عليه من مزايا جعلته صالحًا لكافة الظروف التي ظهر فيها من ناحية المكان والزمان والناس، قابلًا للتجديد والمعاصرة لما فيه من مرونة وسعة، ولذلك التقى مع المدعوين ودخل قلوبهم، ووجدوه لباسًا يتوافق مع رغباتهم وأمانيهم، ويفتح أمامهم باب الخير والسلام، ويهديهم للتي هي أقوم.

وهكذا في كل عصر ومع سائر الناس، ومزايا الإسلام هذه هي التي تجعله صالحًا على الزمن كله وللناس أجمعين، إن الإنسان دين الله # تعالى، جاء متوافقًا مع الحيثيات الكونية والإنسانية التي ظهر فيها وأثناءها، وفي نفس الوقت وضع الله فيه من عوامل الحيوية والتجديد ما يجعله صالحًا على الزمن كله وفي سائر الأمكنة، وكلف المؤمنين أن يؤدوا واجبهم تجاه الإسلام؛ لتستمر صلاحيته، ولأن التطور لا ينتهي.

و تغيير الأحوال أمر دائم ومستمر، نزل الوحي بتعاليم الإسلام على صورتين هما:

الصورة الأولى: وهي تتعلق بالأمور الثابتة التي لا تقبل تغييرًا، لأنها بذاتها وحقيقتها صالحة لكل الناس في كل زمان ومكان، وقد جاءت تعاليمها واضحة مفصلة محددة؛ ليستمر تطبيقاتها واحدة لا تتغير، ويشمل أركان العقيدة والعبادات المفروضة المحددة وبعض تشريعات الأسرة.

الصورة الثانية: وهي تتصل بالأمور المتغير القابلة للتطور، تبعًا لما يعتري الناس من تغيير، وقد نزل الوحي لها بوضع المبادئ العامة، والأسس الكلية التي تضبط شرعية المتغيرات ليستمر لها حكم في دين الله تعالى.

إن اشتمال الوحي على هاتين الصورتين يوضح قابلية الإسلام للتطور والتجديد، وهذا ما يجعله صالحًا لكل زمان ومكان، إن هذه الحقائق تؤكد قضية ثابتة، وهي: أن الإسلام جاء متفقًا مع واقعه الذي ظهر فيه أولًا، وفي نفس الوقت اشتمل على أساسيات التجديد ومبادئ الالتقاء مع تطور المدنية، ومستجدات الفكر والحضارة كما أراد الله تعالى.

لقد قضت إرادة الله أن يظهر دينه في وسط القرن السابع الميلادي، وأن يختار لتبليغه محمدًا ﷺ وأن يجعل الجزيرة العربية مكان ظهوره ومركز انطلاقه إلى

العالم كله، وهذه الحيثيات التي قدرها الله -تبارك وتعالى- تؤكد الملائمة التامة والتوافق الدقيق بين الإسلام، وبين سائر الحيثيات التي كانت موجودة يوم ذاك، وذلك قدر إلهي خالص أحاط به الرسالة الخاتمة: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

نلحظ ذلك في مكان ظهوره الأول حيث رأينا قدر الله وحكمته في توجيه مسار الأحداث نحو التمكين لدينه بين الناس.

الخطوات العملية للتجديد في الخطبة:

من أهم وسائل الخطاب الديني في العصر الحاضر وفي كل العصور الخطبة، وهي وسيلة ممتازة للتبليغ والدعوة، بل هي أقدر وسيلة على الإطلاق للتأثير في نفوس المدعوين، إذا أُحسن القيام بها على الوجه الأكمل، والخطب كثيرة أنواعها عظيمة أغراضها، بديعة آثارها فمنها: خطبة الجمعة، ومنها خطبة العيدين، ومنها خطبة الكسوف والخسوف، ومنها خطبة الاستسقاء، ومنها خطبة الحاجة، وغير ذلك ولكل شروط وأركان تُطلب من كتب الفقه المعتبرة.

وأوجب هذه الخطب خطبة الجمعة؛ ولكي يحسن الداعية المجدد القيام بخطبه على أكمل وجه عليه أن يراعي الأمور الضرورية الآتية، وهي تعم الخطب بأنواعها المختلفة. والخطوات المطلوب تحقيقها تشمل الأمور الآتية:

أولًا: دراسة أحوال المخاطبين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها؛ حتى يستطيع أن يحدد الأسلوب المناسب لعرض الخطبة على أكمل وجه.

ثانيًا: تحديد الموضوع المراد الخطابة حوله بدقة، ويشترط فيه أن يراعي الأحوال السابقة لدى المخاطبين، وأن يراعي المناسبات القائمة، والأحداث الجارية، وأن يكون واضحًا ويحتاجه المخاطبون.

ثالثًا: جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن الموضوع المراد مباشرة أولًا؛ ثم الآيات التي تتحدث عنه بغير مباشرة، ويُستعان في ذلك بما سبق ذكره أولًا ثم الآيات التي تتحده بغير مباشرة.

رابعًا: جمع الأحاديث النبوية الصحيحة والحسنة، والتي تخدم الموضوع مع مراعاة ما سبق ذكره كذلك.

خامسًا: جمع الآثار والأقوال والأمثال والحكم والأشعار التي تخدم الموضوع.

سادسًا: جمع الأحكام الشرعية الفقهية والعقيدية التي يحتاجها الموضوع.

سابعًا: جمع القصص والتواريخ الماضية، والأحداث الجارية مما يحتاجها الموضوع.

ثامنًا: تصنف المجموع إلى عناصر مترابطة فيما بينها، على أن يكون لكل عنصر عنوان واضح له ما يؤيده من مجموع الأدلة والشواهد.

تاسعًا: كتابة الموضوع مرتبًا بعناصره وأدلته مع جمل الربط والتوضيح التي يحتاجها الموضوع.

عاشرًا: التدريب على الأداء منفردًا أمام مرآة؛ ليشاهد نفسه بنفسه، وليقوم أداء نفسه بنفسه، وليكن أمينًا مع نفسه صادقًا في التقاط عيوبها؛ ليعالجها قبل ظهورها أمام المدعوين، وليكن دقيقًا في حساب مدة الأداء منفردًا، ثم يضيف إليها مدة عشر دقائق أخرى يحتاجها عند الأداء الفعلي أمام المدعوين، وبالتالي يستطيع أن يحدد الزمن الفعلي الذي تستغرقه الخطبة؛ فيقتصر فيها أو يطول حسبما استبان له من ذلك.

الحادي عشر: تدوين الملاحظات العامة حول الموضوع وأدلته، ومدى ترابطها، ومدى دلالتها على الموضوع، ومدى تحقيقها للغرض، وكذلك أسلوب

العرض، وطريقة الأداء، ومدة العرض، ثم الملاحظات الخاصة حول تسلسل العناصر، ومستوى لغة الخطاب، ومدى الإثارة والتشويق فيها، ومدى ارتباطها بأحوال المدعوين، ومراعاتها للأحداث الجارية، وما الجديد في العرض؟ ومدى التجديد في المعالجات المطروحة ونحو ذلك.

كيف يستفيد الداعية في مجال الدعوة من منهج التجديد؟

كيف يستفيد الداعية في مجال الدعوة من منهج التجديد؟

إنه ليحسن بالداعية أن يستفيد من الوسائل الحديثة لتبليغ الدعوة من راديو، وتلفاز، ونت، وفضائيات، وصحيفة، ومجلة، وكتاب، وغير ذلك.

ولقد استخدم الرسول ﷺ الوسائل المتاحة في عصره، لما رجع النبي ﷺ من الحديبية كتب إلى ملوك الأرض، وأرسل إليهم رسله؛ فكتب إلى ملك الروم وغيره يدعوهم إلى الإسلام، وعلى ذلك فإن الداعية عليه أن يستفيد في مجال الدعوة من الوسائل المتاحة في العصر الحديث.

الوسائل السمعية:

الوسائل السمعية يراد بهذه الوسائل ما تصل بواسطته الرسالة الدعوية إلى سمع المدعو مع عينه وجوارحه الأخرى، وهي كثيرة العدد متنوعة الصور، ومنها:

أولًا: المذياع:

والمذياع هو ناقل الصوت عبر الأثير، إن المسئولين عن الإرسال الإذاعي يعملون على إرضاء المستمعين، وإشباع حاجاتهم الفكرية والثقافية؛ ولذا نرى تعدد

البرامج المرسلة وتنوعها ودقة توجهها إلى عقل ونفس الناس، إننا من خلال المذياع نسمع الرأي والتحليل، والفكرة والتعليق، والحدث والتوابع، ونسمع الكلمة والقصة والتمثيلية والحديث والأخبار وغير ذلك.

والمسئولون عن الإرسال الإذاعي يعتمدون على مندوبين ومراسلين، ووكالات الأنباء في جهات العالم المختلفة لمعرفة الأحداث والأخبار فور وقوعها، ولاكتشاف اتجاهات الرأي العام، ورغبات الجمهور كما يقومون بعد كل فترة بأخذ الآراء لاستبيان توجهات المستمعين من أجل الاستمرار في البرامج المفيدة، وتعديل ما يحتاج إلى تعديل، واستحداث برامج أخرى وهكذا. والإذاعة وسيلة حسنة للدعوة الإسلامية لما يلي:

أولًا: الإذاعة تسهل وصول الفكرة الإسلامية إلى كل مكان، وبمختلف لغات العالم من خلال الإذاعات الموجهة باللغات الأجنبية، وبذلك يصل الإسلام بلا عائق أو صد؛ لأن المعارض لا يمكنه إغلاق الغلاف الجوي، أو التحكم فيه بصورة مطلقة.

ثانيًا: يتمكن الدعاة بواسطة المذياع من مخاطبة كافة فئات المجتمع، بعدما يعدون البرامج المختلفة، ويناقشون خلالها قضايا المرأة والعمل والتجارة والشباب والتعاليم، ويحللون الأحداث، ويفسرون الظواهر ويقدمون الحلول لحاجات الجماهير.

ثالثًا: يمكن مخاطبة الإنسان بواسطة المذياع أيًّا كانت حالته، لأنه سيسمع الكلمة المذاعة وهو في بيته أو في عمله، أو وهو يستريح، أو وهو يأكل، وهكذا.

رابعًا: يصاحب الدعاة من خلال المذياع الناس في سفرهم، وفي إقامتهم ويذكرونهم وهم بعيدون عنهم، فالمسلم إذا ذهب للحج أو سافر للتجارة، أو

ذهب للحقل يصطحب معه المذياع، يتابع معه البرنامج الذي يرغب ويريد بلا عناء أو مشقة.

خامسًا: يتمكن الدعاة بواسطة هذه الوسيلة من التركيز على موضوع معين، فمثلًا ينصحون بالكلمة المباشرة وبالتمثيل الهادف، وبالحوار بين طرفين، وبالأنشودة الدينية، وهكذا.

سادسًا: يتمكن الدعاة من متابعة الأحداث والمناسبات فور ظهورها؛ فيوصلونها للناس ويقومون بتحليلها، وبيان حكمتها الدينية كشهر رمضان وأشهر الحج؛ إذ تهتم الإذاعات الدينية ببيان الأحكام الفقهية بكل عناية، ومتابعة أحوال المسلمين معها، وتوضيح كيفية الاستفادة المثلى منها وربط المسلمين بعضهم ببعض خلالها وبواسطتها.

والاستفادة بوسيلة الإذاعة في الدعوة إلى الله تعالى تحتاج إلى ما يلي:

أولًا: دقة الرسالة الدعوية، وذلك يتم بواسطة إعداد جيد من قبل المؤسسة المشرفة أو الدعاة القائمين بالإرسال؛ لأن وقت برامج الإذاعة قصير، وهذا يحتاج إلى الدقة في اختيار الموضوع، والدقة في اختيار الكلمات، والدقة في طريقة العرض، والدقة في استخدام المثيرات الصوتية التي تساعد على انتباه المستمعين.

ثانيًا: أن يعد مقدمو البرامج الدعوية الإجابة عن كل سؤال محتمل؛ لأن المستمع بعيد، وقد يعتريه سؤال ما فإذا ما قدم الداعية المرسل الإجابة ضمن برنامجه؛ فإنه يحقق بذلك فائدة عظمى، وعلى الداعية المرسل أن يضع نفسه في بيئة المستمعين، ويبحث عن أحوالهم وطبائعهم وكيفية خطابهم؛ حتى يتمكن من مناقشة كافة تصوراتهم خلال رسائله الدعوية.

ثالثًا: أن يكون الدعاة مقدمو البرامج الدعوية نماذج تطبيقية للإنسان المسلم، الذي يعملون لوجوده في الناس، وبذلك يكون لحديثهم أثر ولدعوتهم قبول، ولا يصح مطلقًا أن يُقدم للحديث عن الإسلام رجل مشهور بعدم التزامه الديني، أو امرأة لا تطبق صورة الإسلام في لباسها وحجابها، وذلك لأن الالتزام العملي للمتحدث يضفي على حديثه رونقًا واستحسانًا.

ثانيًا: الشرط:

من الوسائل المستحدثة التي يمكن الاستفادة بها في تقديم الإسلام والدفاع عنه الشريط الإسلامي؛ وهو يحتاج لجهد بسيط، إلا أنه لا بد له من تركيز عقلي في اختيار الموضوعات التي يقوم بتسجيلها ونشرها، وبواسطة الشريط يمكن نقل الخطب والمحاضرات، وتسجيل الكتب والتاريخ الإسلامي، وتتميز هذه الوسيلة برخص تكاليفها، وإمكانية تداولها، وهي دعوة يقوم بها من لا يقدر على الدعوة بنفسه.

ولقد رأينا تطبيق نموذج عملي مع الشرائط المسجلة؛ حين قام بعض المخلصين من المسلمين يتخير مجموعة من الشرائط ذات الموضوعات الهامة، وتوزيعها هدايا على الجيران والزملاء وأصحاب المسجد والعمل. ويمكن للشريط أن يُسجل الرسائل المباشرة، وينقل مضمونها إلى الناس ويكون هو وسيلتها حينئذ.

ثالثًا: الرسائل:

يهتم الشباب بالتعارف عن طريق الرسائل البريدية، ولا يحتاج الأمر إلا إلى نشر الرغبة في التعارف بإحدى الصحف والمجلات التي تهتم بذلك، وسرعان ما يأتي رد عديد من شباب العالم يوافقون على هذا التعارف الذي يعتمد على المراسلة، وخلال مرحلة التعارف الأولى يبين كل طرف للآخر اسمه وثقافته واهتمامه ودينه وطريقته في التفكير ورغبته في مشاركة الآخر والتعاون معه.

وبهذا الأسلوب يمكن عرض الإسلام على الآخر شيئًا فشيئًا ؛ عن طريق الحوار المنتظم والإقناع الدقيق، ويحتاج هواة المراسلة إلى الصدق والصراحة، والإحساس بالأخوة والمودة، وبخاصة في القضايا التي يناقشونها معًا، والمراسلة الآن سهلة وسريعة للاستعانة بالمخترعات الحديثة خلالها، وكذلك الرسائل عبر التليفون المحمول.

رابعًا: الملصقات:

تتضمن الملصقات دعوة في كلمات قليلة تذكر بالله وتأمر بالخير، وتدعو إلى المعروف وفائدتها تعم كثيرًا من الناس، يقرءونها حين رؤيتها في مكان العمل، أو في الطريق، أو عند باب البيت. وقد رأيت كلمات دعوية كتبت على أحد جوانب العملة الورقية، ونقشت في العملة المعدنية، وكانت محل اهتمام المالك لها. ويمكن ابتداع صور عديدة من الملصقات يستفيد بها الناس في الأماكن العامة والخاصة.

الرسائل المكتوبة:

استعمل الإنسان منذ ظهور الكتابة بطريقته البدائية ؛ إذ كانت الكلمات صورة أو نباتًا أو حيوانًا، وكان المكتوب عليه جلدًا أو خشبًا أو حجرًا أو زرعًا وهكذا، وأدى قلة عدد الكتاب قديمًا إلى الاعتماد على الحفظ والمشافهة.

واستفاد النبي ﷺ بهذه الوسيلة ؛ فأرسل إلى الملوك والرؤساء كتبًا تتضمن دعوتهم إلى الإسلام، وفي العصور الحديثة تطورت الكتابة والطباعة بصورة رائعة، وأصبح من الممكن الاستفادة بهذه الوسيلة في الدعوة إلى الله تعالى، بصور عديدة منها: الكتاب، يعد الكتاب وسيلة للدعوة إلى الله تعالى ؛ لأن المؤلف حين يضع كتابه يقدم خلاله دراسة كاملة تحليلية لموضوعات هامة مثل:

الانفصام بين العقيدة والسلوك الأسباب والعلاج، ظاهرة الوهن في المجتمع المسلم، الدعوة المثالية في القرية المصرية، العولمة الفكرية وموقف الإسلام منها، الداعية المثالي بين التصور والواقع المحافظة على نفسية المدعوين.

الصحيفة اليومية:

الصحيفة اليومية وسيلة اتصال جماهيري؛ لأنها تصل للجماهير الغفيرة، ويجد الجميع خلالها مرادهم؛ لأنها تحتوي على أبواب وموضوعات شتى، وقد اصطلح على أن الصحيفة هي التي تصدر كل يوم، أو مرة في كل أسبوع بحجم معين، وصفحات كبيرة معدودة، أما المجلة الأسبوعية فعدد صفحاتها كبير يشبه الكتاب، وتهتم بالصور مع الحدث، وتتناول بالتحليل والتعليق في كافة موضوعاتها. وتتميز الصحيفة عمومًا بما يلي:

أولًا: متابعة الأخبار في العالم كله بواسطة المندوبين، والمراسلين، ووكالات الأنباء.

ثانيًا: سهولة الحصول على الصحيفة يوميًّا لقلة ثمنها، ولأن المشرفين على الصحف يتبارزون في السبق إلى القارئ.

ثالثًا: تخدم الصحيفة الجانب الذي قامت له؛ فهناك الصحف الاقتصادية والزراعية والسياسية، ويجب أن تظهر صحف الدعوة لتهتم بنشر الإسلام وتبليغه للناس.

رابعًا: الصحف الإسلامية الجادة هي التي لا تنشر الصور العارية، ولا الأخبار الفاضحة، ولا الإعلانات المحرمة، وإذا أشارت إليها كأحداث فإنها تقدمها بشكل منفر، وعلى الدعاة أن يهتموا بهذه الوسيلة لخطورتها ولأهميتها عند القراء ولانتشارها الواسع.

المنهج العاطفي

عناصر الدرس

العنصر الأول : المنهج العاطفي، وخطواته، ومواطن استعمالاته، وخصائصه ٢٤٧
العنصر الثاني : العقيدة هي أساس الإسلام ٢٥٣
العنصر الثالث : بعض أحوال أهل الآخرة ٢٥٨

المنهج العاطفي، وخطواته، ومواطن استعمالاته، وخصائصه

المنهج العاطفي:

تعريفه: قال ابن منظور: "تعطّف عليه: وصله وبره، وتعطّف على رحمه: رقّ لها، والعاطفة الرحم، ورجل عاطف وعطوف عائد بفضله حسن الخلق". قال الليث: "العطاف الرجل الحسن الخلق العطوف على الناس بفضله"، ويمكننا تعريف المنهج العاطفي بتعريفين هما:

الأول: النظام الدعوي الذي يرتكز على القلب، ويحرك الشعور والوجدان.

الثاني: مجموعة الأساليب الدعوية التي ترتكز على القلب، وتحرك الشعور والوجدان، وذلك لأن النظام الدعوي لا يظهر إلا بمجموعة أساليب التي تُعد كيفيات لتطبيقه.

خطواته من أبرز أساليب المنهج العاطفي ما يلي:

أولًا: أسلوب الموعظة الحسنة وأشكاله كثيرة منها:

١. الخطابة.
٢. التذكير بنعمة الله على عبده المستوجبة شكره.
٣. مدح الداعي للمدعو أو ذمه، وذلك بذكر خصائصه ومزاياه، أو بذكر معايبه وأخطائه.
٤. الترغيب والترهيب وذكر الثواب والعقاب.
٥. الوعد بالنصر والتمكين.

٦. قصّ القصص العاطفية المؤثرة، وما إلى ذلك من أساليب تدخل في باب الموعظة الحسنة، وقد نصَّ القرآن الكريم على أسلوب الموعظة الحسنة نصًّا صريحًا، وأمر باستخدامه قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ [النحل: ١٢٥].

ثانيًا: إظهار الرأفة والرحمة بالمدعوين، ويكون بكلمة طيبة مؤثرة مثل المناداة بكلمة يا أبتي، يا بني، يا قومي، وقول الداعي للمدعو إني أحبك، وأخشى عليك، وما إلى ذلك، أو بمشاركة وجدانية في موقف، أو بمساعد شخصية في أزمة، وهكذا قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ثالثًا: قضاء الحاجات، وتقديم المساعدات، وتأمين الخدمات، وتنوع هذا الأسلوب بتنوع الحاجات المطلوبة، والمساعدات المقدمة مادية كانت أو معنوية، قليلة كانت أو كثيرة، فجميع هذه الأساليب وأمثالها تشكل ما يُسمى بالمنهج العاطفي.

مواطن استعمال المنهج العاطفي:

يستعمل المنهج العاطفي في حالات متعددة، ومواطن متنوعة يحسن بالداعية أن يتعرف عليها؛ ليتمكن من استخدام المنهج المناسب في الموطن المناسب، ولعل من هذه المواطن والحالات:

١. حالة دعوة الجاهل؛ لأن الجاهل بحاجة إلى الرفق والاهتمام به، وتعليمه ما يفيده عن طريق ترغيبه بالعلم، ووعده بالخير الكبير من ورائه.

٢. حالة دعوة من تجهل حاله، ولا يُعرف مستوى إيمانه قوةً أو ضعفًا، فيعمل الداعية على كشف حاله باستثارة عواطفه، وكوامن نفسه؛ ليحدد الداعي حاجته، ويختار الأسلوب الذي يناسبه.

٣. في دعوة أصحاب القلوب الضعيفة كالنساء، والأطفال، واليتامى، والمساكين، والمصابين والمرضى، وما إلى ذلك.

٤. في دعوة الآباء للأبناء، ودعوة الأبناء للآباء، ودعوة الأقارب، والأرحام، والأصدقاء فيما بينهم.

٥. في مواطن ضعف الدعوة والشدة على المدعوين؛ ليحرك الداعية مشاعر المعادين، ويستميل قلوبهم لدعوته فيستجيبوا له، أو يخفف من شدتهم وبطشهم إلى غير ذلك من مواطن لا تخفى على الداعية اللبيب.

من خصائص المنهج العاطفي:

للمنهج العاطفي مزايا وخصائص تخصّه، وتتناسب مع طبيعته وأهدافه، من ذلك:

١. لطف أسلوبه، واختيار العبارات المؤثرة.

٢. سرعة تأثر المدعوين به، واستجابتهم لمن يحسن استخدامه.

٣. تخفيف وطأة العدو، أو المخالف، ودفع أذاه.

٤. سرعة التحول في آثاره تبعًا لتحول العواطف والمشاعر.

٥. سعة دائرة استعماله؛ لأن الطابع العاطفي في الناس أغلب من غيره، إلى غير ذلك من خصائص ومزايا تظهر من المقارنة له بغيره من المناهج.

والعاطفة كالفطرة مشاعر يهتزُّ بها القلب لا يُعرف كنهها، لكن ترى نتائجها، اضطراب القلب وخفقاته مع مشاعر الحب، اضطراب القلب وتغير الوجه مع مشاعر الغضب، وهكذا.

والإسلام يعرف العاطفة ويعترف بها، ويوجهها الوجهة الصالحة؛ حبًّا لله ولرسوله ولدينه وللمؤمنين، بغضًا وكرهًا للكفر والفسوق والعصيان، وللكافرين والفاسقين والظالمين، وهو كذلك يردِّد النفس بين الرغبة والرهبة، ويشوقها إلى الجنة، وقد تضافرت الآيات الكريمة التي تتحدث عن الجانب
العاطفي في الإسلام يقول الله -تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم
مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ
وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١) وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا
تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا
طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ
أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا (٣)﴾ [النساء: ١ - ٣]

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا
مَّعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ
وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ
بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا (٦)﴾ [النساء: ٥: ٦].

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (٣٨)
يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ
سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠) وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى
النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا
وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤٣) فَوَقَاهُ اللَّهُ
سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ
لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٤)﴾ [غافر: ٣٨- ٤٥].

ويقول ﷻ: ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال ﷻ: ﴿ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢ ﴾ [نوح: ١١ - ١٢].

وقال سبحانه: ﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ ﴾ [التحريم: ٨]، ويخوِّف الله ﷻ النفوس من النار، فيقول سبحانه وهو ينذرها: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ٢ ﴾ [الحج: ٢].

وهكذا، وقصص القرآن يشدُّ الناس إلى الحق حين يقرءون مصير أصحاب الحق، وكيف صاروا إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، حين يرى الشهداء في حياة يغبطهم عليها الأحياء:

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠]، وحين يسمعون معها قول رسول الله ﷺ: ((إن أرواح إخوانكم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ترد أنهارها، وتأكل ثمارها، ثم تأوي إلى قناديل من ذهب معلقة تحت العرش، اقرءوا إن شئتم قول الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ ﴾ [آل عمران: ١٦٩])).

ويهزهم ويخوفهم من مصير الباطل والمبطلين، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [فصلت: ١٥- ١٧].

ويعقبها بقوله: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨] ثم يعقبها بمصير الصنف الآخر قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [فصلت: ١٩- ٢٤]، وتمضي بهم العاطفة بألوانها مع الفطرة بألوانها، ومثيراتها إلى الهدف إلى العقيدة.

وقصة نوح مع قومه يقول الله عز وجل على لسان نوح # : ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾﴾ [نوح: ٥ - ٦] إلى قوله ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾ [نوح: ١٠- ١٦].

هذه تتضمن المنهج الذي التزمه نوح # في محاولة ردهم إلى الله، واستثارة فطرتهم وعاطفتهم، ﴿ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾، ﴿ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴾، ﴿ أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ﴾، وبقيتها من سورة هود، وموقفه من ابنه صراع بين عاطفة الأبوة وبين فطرة الإيمان، وموازين الإيمان، وتصحيح كل ميزان مخالف: ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (٤٦) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (٤٧) ﴾. [هود: ٤٥ : ٤٧]

ومع هذه الأخيرة قوله تعالى عن امرأة نوح وامرأة لوط: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾ [التحريم: ١٠].

أما قصة يوسف، ففيها الكثير، ففيها دروس الصبر: الصبر على الأذى في الجب، والصبر على الفتنة في القصر، والصبر على السجن، وفيها ممارسة الدعوة في السجن، وفيها الاستعلاء بالإيمان على الفتنة، وفيها نصر الله مع الصبر.

العقيدة هي أساس الإسلام

هي نقطة الالتقاء بين جميع الأنبياء والمرسلين، قال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ومن ثم كانت دائمًا هي الهدف الأول لكل منهج رباني كريم، أن نعرف الله معرفة علم وعمل، ومعرفة علم به، وبأسمائه الحسنى وصفاته، ومعرفة عمل يهتز معه القلب لهذا العلم، فيتحرك حبًّا لله وشوقًا إليه؛ رجاءً في الله ورغبة إليه، خوفًا

من الله ورهبة منه، مع اعتصام بالله، وتوكل عليه، وحب لدينه ولرسوله وللمؤمنين.

فللعقيدة حديث في غير هذا المكان، ذاك هو الهدف من وراء إثارة الفطرة، وتحريك العاطفة، وما أجمله هدفًا، وما أسماه غاية؛ فالقرآن الكريم في نظرته الكلية إلى الكون والحياة والإنسان قد وضح لنا المنهج العملي في إعداد الإنسان روحًا وتكوينه إيمانيًا، وتربيته نفسيًّا، قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال سبحانه في سورة الحديد: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال جل جلاله في سورة الطلاق: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فلنتأمل في هذه الآيات فماذا نجد أن تقوى الله ﷻ هي أساس الفيوضات والأنوار والعطاء، فبتقوى الله ﷻ يميز المؤمن بين الغث والثمين، ويفرق بين الحق والباطل، وبتقوى الله -جل جلاله- يجعل الله للمتقي نورًا يمشي به في الناس، فيهتدون بهداه، ويستنيرون بنوره، وبتقوى الله سبحانه يجد المتقي المخرج الآمن السليم مهما واجه من مآزق، ومهما لقي من عقبات.

يقول الشهيد سيد قطب -رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ [الأنفال: ٢٩]: "هذا هو الزاد، وهذه هي عدَّة الطريق، زاد التقوى التي تحمي القلوب وتوقظها، وتستجيش فيها أجهزة الحذر والحيطة، والتوقي، وعدة النور الهادي الذي يكشف منحنيات الطريق، وضروبه على مد البصر، فلا تغبشه الشبهات التي تحجب الرؤية الكاملة

الصحيحة، ثم هو زاد المغفرة للخطايا، الزاد المطمئن الذي يكسب الهدوء والقرار، وزاد الأمل في فضل الله العظيم يوم تنفد الأزوار، وتقصر الأعمال إنها حقيقة".

إن تقوى الله تجعل في القلب فرقانًا يكشف له منعرجات الطريق، ولكن هذه الحقيقة ككل حقائق العقيدة، لا يعرفها إلا من ذاقها فعلًا، إن الوصف ينقل مذاق هذه الحقيقة لمن لم يذوقوها.

إن الأمور تظل متشابكة في الحس والعقل، والطرق تظل متشابكة في المنظر والفكر، والباطل يظل متلبسًا بالحق عند مفارقة الطريق، وتظل الحجة تفحم ولكن لا تقنع، وتسكت ولكن لا يستجيب لها القلب والعقل، ويظل الجدل عبثًا والمناقشة جهدًا ضائعًا، ذلك ما لم تكن هي التقوى؛ فإذا كانت استنار العقل، ووضح الحق، وتكشف الطريق، واطمأن القلب، واستراح الضمير، واستقرت القدم، وثبتت على الطريق.

إن الحق في ذاته لا يخفى على الفطرة، ولكنه الهوى هو الذي يحول بين الحق والفطرة، الهوى هو الذي ينشر الغبش، ويحجب الرؤية، ويعني المسالك، ويخفي الضروب، والهوى لا تدفعه الحجة إنما تدفعه التقوى، تدفعه مخافة الله ومراقبته في السر، والعلن؛ ومن ثم هذا الفرقان الذي ينير البصيرة، ويرفع اللبس ويكشف الطريق، فإذا كان للتقوى هذه الأهمية البالغة، فما هي حقيقتها، وكيف الوصول إليها؟

فهي نتيجة حتمية، وثمرة طبيعية للشعور الإيماني العميق، الذي يتصل بمراقبة الله ﷻ والخشية منه، والخوف من غضبه وعقابه، والطمع بعفوه وثوابه، أو هي كما عرفها العلماء: أن لا يراك الله حيث نهاك، وألا يفقدك حيث أمرك. أو هي كما قال البعض: اتقاء عذاب الله بصالح العمل، والخشية منه في السر والعلن.

ومن هنا كان اهتمام القرآن الكريم بفضيلة التقوى، بل كان يأمر بها، ويحض عليها في كثير من الآيات البينات حتى أن القارئ لكتاب الله، لا يكاد يمر على قراءة صفحة أو بضع آيات، إلا ويجد نقطة التقوى مناسبة في الذكر الحكيم هنا وهناك، ومن هنا كان اهتمام الصحابة والسلف الصالح بالتقوى؛ حيث كان يتحققون بها، ويجتهدون لها، ويسألون عنها، فقد ثبت أن عمر بن الخطاب > سأل أُبي بن كعب عن التقوى، فقال له: "أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: بلى. قال: فما عملت؟ قال: شمرت واجتهدت. قال: فذلك التقوى".

وبناءً على هذا المعنى الذي أورده أبي بن كعب في إجابته لعمر { يقول سيد قطب -رحمه الله- في (الظلال): "فذلك التقوى حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوقٍ لأشواك الطريق، طريق الحياة الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب، فيمن لا يملك رجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًّا، وعشرات غيرها من الأشواك، ويكفي التقوى فضلًا وتأثيرًا أنها منبع الفضائل الاجتماعية كلها، والسبيل الوحيد في اتقاء المفاسد والشرور والآثام، بل هي الركن الأساسي في تكوين الفرد النفسي والخلقي لمواجهته سراء الحياة وضراءها، وتمييزه بين طيباتها وخبائثها، وصبره على محنها، ومصائبها".

وأما عن استحضار الموت وما بعده، فلا شك أن المؤمن حين يستحضر في مخيلته أن الموت سوف يأتيه لا محالة، وأنه سوف يسأل في وحدته لا محالة، وأن القبر في حقه؛ إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران، المؤمن حين يستحضر في مخيلته كل هذا فإن قلبه يستشعر خوف الله ﷻ ومراقبته في السر والعلن، بل يندفع بكليته إلى العمل الصالح؛ ليتزود لهذا اليوم الموعود عسى أن

يكون بجوار من أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

وما أحسن ما قال بعضهم:

تزود للذي لا بد منه ❖ فإن الموت ميقات العباد

أترضى أن تكون رفيق قوم ❖ لهم زاد وأنت بغير زاد

من أجل هذا كان النبي ﷺ يأمر أبناء هذه الأمة أن يُكثروا من ذكر الموت، وقاطع اللذات، فقد روى الترمذي عن أبي هريرة > قال: ((أكثروا ذكر هادم اللذات)) يعني: الموت.

ومن أجل هذا كان النبي ﷺ يأمر بزيارة القبور، ويحض على ارتيادها، روى مسلم عن بريدة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها)) وفي رواية ((فمن أراد أن يزور القبور فليزر، فإنها تذكر الآخرة)). ومن أجل هذا كان النبي ﷺ يربي أصحابه على أن يستعدوا للموت، وأن لا يلهيهم الأمل، روى البخاري عن ابن عمر } قال: ((أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل)). وكان ابن عمر } يقول: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك".

ومن أجل هذا كان النبي ﷺ يأمر المسلم بالمسارعة في كتابة الوصية استعدادًا ليوم الرحيل، روى الشيخان عن ابن عمر } أن رسول الله ﷺ قال: ((ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين، إلا ووصيته مكتوبة عنده)) قال ابن عمر: "ما مرت علي ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ قال ذلك إلا وعندي وصيتي"، ومن أجل هذا كان النبي ﷺ يعتبر الذاكرين للموت هم أعقل الناس وأفضلهم.

روى ابن أبي الدنيا والطبراني وابن ماجة والبيهقي، عن ابن عمر أن رجلًا قال للنبي ﷺ: ((أي المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خلقًا، قال: فأي المؤمنين أكيس)) أي: أعقل ((قال: أكثرهم للموت ذكرًا، وأحسنهم لما بعده استعدادًا، أولئك الأكياس)).

وأما عن استعراض الآخرة وأحوالها، فلا شك أن المؤمن الداعية حين يستعرض المواقف التي يقفها أهل الجنة وأهل النار، وحين يتعرَّف على أحوالهم في المحشر عند وضع الميزان، ونشر الكتب، واجتياز الصراط، وحين يطلع على حال من يدخل الجنة، وما أعد الله له من نعيم مقيم، وعلى حال من يدخل جهنم، وما أعد له من شقاء وجحيم، المؤمن الداعية حين يستعرض هذه الأحوال كلها؛ فإنه يكون أكثر إخباتًا وخوفًا لله رب العالمين، بل يندفع بكليته إلى العمل للآخرة؛ ليكون من عداد الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، ويحظى يوم العرض عليه بمقعد صدق عند مليك مقتدر، بجوار الفئة الناجية من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا.

بعض أحوال أهل الآخرة

بعض أحوال أهل الآخرة:

الناس يحشرون حُفاة عُراه روى الشيخان عن عائشة > قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((يحشر الناس حفاة عراة غرلًا؟ قالت عائشة: فقلت الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض، قال: الأمر أشد من أن يهمهم ذلك، الشمس تدنو من رءوس الخلائق))، روى مسلم عن المقداد > قال: سمعت

رسول الله ﷺ يقول: ((تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه)) أي: وسطه ((ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه)).

أيضًا تشهد الأرض على العبد ما عمله على ظهرها، روى ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة > قال قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ [الزلزلة: ٤] قال: ((أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها)) أي: من خير وشر ((تقول عمل كذا وكذا)).

كذلك تشهد الجوارح على ما فعله العبد، روى مسلم عن أنس > قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: ((هل تدرون مما أضحك؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: من مخاطبة العبد ربه، فيقول: يا ربي ألم تجرني من الظلم، يقول الله: بلى، فيقول العبد: إني لا أجيز اليوم على نفسي شاهدًا إلا مني، فيقول الله له: كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا، والكرام الكاتبين شهودًا قال: فيختم على فيه ويقول: لأركانه انطقي، فتنطق بأعماله، ثم يخلي بينه وبين الكلام، فيقول: بعدًا لكنَّ وسحقًا، فعنكن كنت أناضل))، وهذا ما بينه الله سبحانه في سورة يس حين قال: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

ما جاء في ظلمة جهنم وسوادها: روى الترمذي وابن ماجة والبيهقي عن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة)).

ما جاء في أودية جهنم : روى ابن ماجة والترمذي والطبراني عن ابن عباس } عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن في جهنم لواديًا تستعيذ جهنم من ذلك الوادي كل يوم أربعمائة مرة ، أعد للمرائين من أمة محمد ﷺ)).

كيف يستفيد الداعية من هذا المنهج ، وما السبيل إلى التقوى؟ فحسبنا أن نذكر أهم السبل في إذكائها ، وتنميتها ، وترسيخها في قلب المؤمن ونفسيته ، وتغلغلها في أعماق أحاسيسه ومشاعره ، عسى أن ينهج الدعاة نهجها ، ويأخذوا بأحسنها.

أولًا : المعاهدة : الأصل فيها قوله تعالى في سورة النحل : ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل : ٩١] وكيفية المعاهدة أن يخلو المؤمن بنفسه بينه وبين ربه ويقول لها : إنك يا نفسي أعطيتي العهد لله في الوقفات اليومية التي تقفين فيها بين يدي الله سبحانه ، وتناجيه بلسان عربي مبين ، ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ [الفاتحة : ٥ - ٧].

أليس يا نفس في هذه المناجاة إقرار منك على ألا تعبدي إلا الله ، وألا تستعيني إلا به ، وعلى أن تلتزمي طريق الله المستقيم الذي لا يعتريه العوج ، ولا الالتواء ، ألا وهو طريق الإسلام ، وعلى أن تحيدي عن طريق الذين ضلوا وغضب الله عليهم من أهل الملل الأخرى ، فإذا كان الأمر كذلك ، فحذاري يا نفس أن تخيسي بالعهد بعد أن جعلتي الله عليك رقيبًا ، وحذاري أن تتنكبب عن الصراط الذي رسمه الإسلام بعد أن جعلت الله عليكي شهيدًا ، وحذاري أن تتبعي سبيل أقوام ضلوا وأضلوا بعد أن جعلتي الله عليك كفيلًا ، حذاري يا نفس من الكفر بعد الإيمان ، وحذاري من الضلال بعد الهدى ، وحذاري من الفسوق بعد

الالتـزام، ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ ، ﴿ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ ، ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ .

وبتقديري -أخي الداعية- أنك إذا شارطت نفسك كل يوم على أن تلتزم هذه المواثيق التي تعطيها كل يوم وليلة أكثر من سبع عشرة مرة، ثم تحملها حملًا على الوفاء والتنفيذ؛ فإنك -ولا شك- تتدرج نحو التقوى، وتسير في طريق الروحانية، وتصل في نهاية المطاف إلى منازل المتقين الأبرار.

ثانيًا: المراقبة: الأصل فيها قوله -تبارك وتعالى- في سورة الشعراء: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

وقوله -صلوات الله وسلامه عليه- لما سُئل عن الإحسان ((أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)). والمراقبة معناها كما دلت عليها الآية والحديث: استحضار عظمة الله سبحانه في كل الأوقات والأحوال، ومراقبته جل جلاله في السر والعلن.

وكيفية المراقبة أن يراقب المؤمن نفسه قبل البدء بالعمل، وفي أثنائه، هل كان تحركه للعمل والطاعة من أجل حظوظ النفس، وابتغاء الثناء والذكر، أم كان المحرك لها هو مرضاة الله وابتغاء ثوابه.

فإن كان لله -جل جلاله- مشى فيها وأمضاها، وإن كان لهوى النفس أحجم عنها وتركها، وعقد النية، والعزم على أن يستأنف طاعته فيما بعد على أسمى ما يكون من التجرد والإخلاص، ورضوان الله سبحانه وتعالى.

ثالثًا: المحاسبة: والأصل فيها قوله سبحانه في سورة الحشر: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨] والمحاسبة معناها كما دلت عليها الآية: أن يحاسب المؤمن نفسه بعد

مُضي العمل، هل قصد في عمله وجه الله؟ هل داخله في طاعته شيء من الرياء ؟ هل اقترف إثمًا في سبحه في النهار؟ هل أدى حقوق الله وحقوق العباد؟

واعلم أخي الداعية أن المؤمن كما ينبغي أن يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه ويعاهدها على إصلاح النية، والمضي في الطاعة، وتأدية الحقوق، والتحرر من الرياء، كذلك ينبغي أن يكون له ساعة يخلو فيها إلى نفسه في آخر النهار، ويحاسبها على جميع ما كان منها، فإن رأى خيرًا حمد الله على ما سدد ووفق، وسأله التثبيت والمزيد، وإن رأى غير ذلك؛ تاب إلى الله وأناب وندم واستغفر، وعاهده على ألا يعود، وسأل مولاه الحفظ والرعاية وحسن الخاتمة، ورضي الله عن عمر الفاروق حين قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيئوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨].

وحقيقة المحاسبة أن ينظر المؤمن في رأس المال، وفي الربح، وفي الخسارة؛ ليتبين له الزيادة من النقصان على عادة التجار، وبتقديري -أخي الداعية- أنك إذا حاسبت نفسك على الصغيرة والكبيرة، وعقدت العزم على أن تكون لك ساعة آخر النهار تخلو فيها بينك وبين ربك، لتنظر ماذا تقدم ليوم الميعاد؛ فإنك -ولا شك- تتدرج نحو التقوى وتسير في طريق الروحانية، وتصل في نهاية المطاف إلى منازل المتقين الأبرار.

المنهج العقلي

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	تعريف العقل	٢٦٥
العنصر الثاني	:	تطبيقات المنهج العقلي من القرآن والسنة	٢٧٠
العنصر الثالث	:	كيفية الاستفادة من المنهج العقلي في مجال الدعوة	٢٧٧

تعريف العقل

والعقل: الحجر والنُّهى ضد الحمق، والجمع عقول، وعقل يعقل عقلًا ومعقولًا، وهو مصدر، قال سيبويه: "هو صفة"، وكان يقول: إن المصدر لا يأتي على وزن مفعول ألبتة، ويتأول المعقول فيقول: كأنه عقل له شيء أي: حُبس عليه عقله، وأيّدَ وشُدِّد. وعقل فهو عاقل وعقولٌ وعقول من قوم عقلاء.

قال ابن الأنباري: "رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه، مأخوذ من عقلت البعير إذا أجمعت قوائمه، وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها"، أخذ من قولهم: قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع الكلام، والمعقول ما تعقله بقلبك، والمعقول العقل يقال: ما له معقول أي: عقل، والعقل التثبت في الأمور، والعقل القلب، والقلب العقل.

وسمي العقل عقلًا؛ لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي: يحبسه، ويعرف العقاد العقل بقوله: "هو العقل الذي يعصم الضمير، ويدرك الحقائق، ويميز الأمور، ويوازن بين الأضداد، ويتبصَّر، ويتدبر، ويحسن الإدراك والرواية".

وفي (التعريفات) للجرجاني: "العقل جوهر يدرك الغائبات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة"، وقد ورد في القرآن الكريم الحديث عن التفكر، والتدبر، والتعقل والعلم في آيات كثيرة، وكلها دعوات لإعمال العقل، تلك النعمة التي أنعم الله بها على الإنسان، فميَّزه عن الحيوان، وبغيره يعود إلى حيوانيته، قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

والمنهج العقلي في الدعوة إلى الله تعالى لا يكون دفعة واحدة، وإنما لا بد من تغيير النفوس شيئًا فشيئًا، وإعدادها لتقبل أوضاع جديدة، وتهيئة النفوس التائهة لتقبل الحق، كما نهيئ الطفل للفصام بعد الرضاعة، فإن أنت منعته مرة واحدة؛ أصبته بضرر بالغ قد يهلكه، وإن أنت أخذته بالتدريج أعنته على الاعتماد على نفسه.

إما الخطوة الأولى على طريق الإصلاح تبدأ من الداعية نفسه حين يتأكد من سلامة القاعدة التي ينطلق منها للإرشاد والتوجيه، وإلا أصبح كحاطب ليل لا يدري أيَّ شيء يمسك، وصدق الرسول ﷺ حين قال: ((نضَّر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها، فأداها فكما سمعها، فربما مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه))، ((خاطبوا الناس على قدر عقولهم)).

أنت أيها الداعية المسلم تتعامل مع بشر، تعيش في دنيا لها جواذب، ونفس لها شهوات، فإن لم تعرف المداخل والأبواب التي تدخل منها إلى النفس؛ فإن الفشل سيصيبك لا محالة، وأكبر خطأ يرتكبه الداعي مع من يدعو أن يبدأ معه حيث انتهى هو فهمًا، وقولًا، وعملًا، وينسى أولى الخطوات التي بدأها هو نفسه، فقد يكون حاله وقت ذاك أسوأ من حال الذي يدعوه الآن، ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [النساء: ٩٤]؛ ولذلك فإن الداعي لا بد أن يبدأ مع من يدعو من حيث النقطة التي انتهى إليها فهم المدعو، وليس من النقطة التي انتهى إليها فهم الداعي.

واستمع إلى فقه عمر بن عبد العزيز < يقول: "والله لا أستطيع أن أخرج لهم شيئًا من أمر الدين إلا ومعه طرف من الدنيا أستلين به قلوبهم؛ خوفًا من أن ينخرق عليَّ من لا طاقة لي به". قال ابن عقيل في (الفنون): "حرام على عالم

قوي الجوهر أدرك بجوهريته وصفاء نحيزته علمًا أطاقة فحمله أن يرشح به إلى ضعيف لا يحمله ولا يتحمله، فإنه يفسده". ولهذا قال ﷺ: ((نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم)).

وقال ابن الجوزي: "لا ينبغي لعالم أن يملي ما لا يتحمله عقول العوام". وقال البخاري: "قال علي > : حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون، أتحبون أن يُكذب الله ورسوله" أو قال ابن مسعود: "ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلَّا كان فتنة لبعضهم". وكم كان السلف الصالح حكيمًا فقيهًا، واعيًا يخاطب الناس على قدر عقولهم، ولا يحملهم ما لا يطيقون".

ونحن نرى اليوم بعض الإخوة المخلصين لا يلتفت إلى هذا المبدأ، وكل ما يهمه أن يصحح عقائد الناس بطريقة ينفر منها أكثر الناس، وتراهم يخاطبون الناس جميعًا لا فرق عندهم بين عالم وجاهل، أمي ومتعلم، حضري أو ريفي، الكل عندهم سواء في الخطاب، ويناقشون معهم مسائل لو عرضت أئمة كبار؛ لتحرج أن يتكلم فيها.

فإذا عرضوا التوحيد عرضوه بصورة أكاديمية علمية عقلية بصرف النظر عن مستوى المدعو من الثقافة الإسلامية، أو التعليم العام، وليتهم يقرءون ما رواه البخاري عن المقداد بن معد يكرب مرفوعًا: ((إذا حدثتم الناس عن ربهم، فلا تحدثوهم ما يعزب عنهم ويشق عليهم)).

ولقد روى الحاكم في تاريخه عن النضر بن شميل قال: "سئل الخليل عن مسألة فأبطأ بالجواب فيها، قال: فقلت: ما في هذه المسالة كل هذا النظر. قال: فرغت من المسألة وجوابها، ولكني أريد أن أجيبك جوابًا يكون أسرع إلى فهمك".

وانظر إلى ما قاله الشافعي: "لو أن محمد بن الحسن كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا عنه، ولكنه كان يكلمنا على قدر عقولنا فنفهمه" إنها دروس مستفادة من سلفنا الصالح، ومن علمائنا الأجلاء الذين تعلموا منهج الدعوة من رسولهم ﷺ، وهاك درس منها فاسمعه إن شئت: روى البخاري عن أبي معبد مولى ابن عباس } قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: ((إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)).

أرأيت إلى المنهج القويم، والأسلوب الحكيم في دعوة الناس، إنه ﷺ يُعلم معاذ أسلوبًا من أساليب التدرج في الدعوة خطوةً فخطوة، تخفيفًا على العقل في القبول، وتوطئته للتنقل من شيء إلى شيء عن طريق الرغبة والاشتياق، فهل يعي الشباب الداعي إلى الله هذه الدروس المستفادة.

تأخير البيان: هناك حكمة تقول: "لا كل ما يعرف يقال، ولا كل ما جاز قوله جاء زمانه، ولا كل ما جاء زمانه جاء أهله ورجاله". يقول كثير من العلماء بجواز تأخير البيان عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة والعمل، فقد جاء الخطاب بكثير من الفرائض، ولكن لم يبينها الرسول ﷺ إلا عند الحاجة والعمل، فقد فرضت الصلاة ثم لم يبينها الرسول ﷺ إلا عندما تعلمها من جبريل # ، وقال: ((صلوا كما رأيتموني أصلي))، وكذلك الحج فرض ثم بينه عندما حج،

وقال: ((خذوا عني مناسككم))، ويقول ربنا تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ (١٩) ﴾ [القيامة: ١٧- ١٩].

فاتبع أي: فاستمع وأنصت، وبيانه أي: علينا أن تقرأه، ويُحتمل أن يُراد بالبيان بيان مجملاته، وتوضيح مشكلاته؛ فيستدل به على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، كما هو الصحيح في الأصول، فالبيان هنا متأخر عن الاتباع وفي كلام الناس قد يقول الرجل: "لي إليك حاجة مهمة، ولا يبين هذه الحاجة، وقد يقول: وليتك ولاية كذا، وسأبعث إليك مذكرة بتفصيل ما تفعل، كل ذلك حتى يستوعب العقل ما يعرض عليه، وإلا أصبح فتنةً كما أخبرنا ابن عباس مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ يقول: ((لا تحدثوا أمتي من أحاديثي إلا ما تحمله عقولهم، فيكون فتنة عليهم)).

واسمع إلى ما كتبه عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: "إن للإيمان فرائض وشرائع، وحدودًا وسننًا فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعلموا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص".

وقد يقصد بالفرائض الأعمال المفروضة والشرائع أي: العقائد الدينية، وحدودًا يعني: المنهيات، وسننًا أي: المندوبات، سأبينها لكم لا يقصد الأصول فهي معروفة، الرحيم بنا يعلمنا، واسمع إلى فقه الإيمان الفخر، وهو يقول عن طلاق الرجعة: "أن الإنسان مادام مع صاحبه لا يدري هل تشق عليه المفارقة أم لا، فإذا فارقه عند ذلك يظهر، فلو جعل الله الطلقة الواحدة مانعة من الرجوع؛ لعظمت المشقة على الإنسان، إذ قد تظهر المحبة بعد المفارقة".

ثم لما كان كمال التجربة لا يحصل بالمرة الواحدة، أثبت تعالى حق المراجعة بعد المفارقة مرتين، وهذا التدريج والترتيب يدل على كمال رحمته تعالى، ورأفته بعباده.

تطبيقات المنهج العقلي من القرآن والسنة

اعلم أن منهج القرآن الكريم يخاطب في قضية الألوهية مجموع الإنسان كله، لا عقله وحده، ولا وجدانه وحده، ويخاطبه في جميع حالاته حي الوجدان، ومتبلد الحس، منفتح البصيرة ومغلقها، مستثارًا وهادئًا، متطلعًا وخائفًا، ضائعًا وباكيًا، مستقيمًا على أمر الله، وجانحًا عن السبيل، كما أنه وهو يخاطبه يحيط به من كل جانب، ويدخل من كل أقطار نفسه من صفحة الكون المعروضة أمامه من الأحداث الجارية حوله من نفسه وما يجري فيها من مشاهد الدنيا ومشاهد الآخرة، مما تدركه الحواس، ومما لا تدركه، كما تواجهه بحقيقة نفسه عاجزًا ضعيفًا مقرًّا بعجزه في ساعة الكرب، ملتجئًا إلى الله ساعة الشدة، مستكبرًا طاغيًا حين تنتهي، وتمر، ويظن أنه استغنى عن الله.

وبهذه المواجهة الدائمة الشاملة المحيطة يظل بالقلب البشري حتى يتفتح بحقيقة الألوهية، ثم يؤمن بها، ثم يستقر الإيمان في القلب، ثم يستقيم على الإيمان، هنالك أوتار في القلب البشري، أعدها الله ﷻ لتتلقى إيقاعات معينة، فتهتز، فإذا اهتزت انطلقت الفطرة تبحث عن الله، وقد تهتدي في بحثها وقد تضل، ولكنها في كل حال تنطلق إذا اهتزت الأوتار والإيقاعات التي تهزها، لا تنقطع في ليل أو نهار؛ فالكون من أعظم الإيقاعات على أوتار القلب البشري، الكون بضخامته الهائلة التي لا تصل إلى مداها العيون؛ بل لا تصل إلى مداها الأفكار، ضخامة لا يمكن أن ينجو من وقعها الحس، ولو أراد أن ينفلت، ولو كابر أمام الناس، ويهتز وتر في القلب على هذه الضخامة الهائلة، فتنطلق الفطرة تبحث مَن وراء هذه المعجزة من الخالق، ثم تهتدي فتعرف الخالق، أو تضل فتسميه الطبيعة، أو تسميه كائنًا من كان، ومع الضخامة الهائلة دقة معجزة كذلك.

هذا الكون الضخم لا يتحرك خط عشواء إنه يسير في حركة دقيقة، تبلغ حدَّ الإعجاز، هذه الملايين بل ملايين الملايين من النجوم في الكون لا يلتقي اثنان منها في هذا الكون العريض، ولا يقع بينهما صدام إلا أن يشاء الله، تلك أوتار فطرية أودعها الله في القلب البشري؛ لتهتز بما تتلقى من إيقاعات فتنطلق تبحث عن الله، إنها كما تستطيع أن نقول: موحيات العقيدة في القلب البشري.

والقرآن وهو يعرف الناس بالله يوقع على ذات الأوتار المودعة في الفطرة؛ ليهزها فتستيقظ، ويحركها فتنفعل، وفي لحظة انفعالها يقول لها: إنه الله، ثم يقول لها: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، فلو وقف الإنسان لحظة واحدة يرقب ما خلق الله في السموات والأرض، ويستعرض هذا الحشد الذي لا يُحصى من الأجناس والأنواع والهيئات، والأحوال، والأوضاع، والأشكال، ؛ لملأ وطابه بما يغنيه حياته كلها، ويشغله بالتدبر والتفكر، والتأثر ما عاش.

قال الله ﷻ: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٩ - ١٩٥].

إن هذا الدرس لمن أعمق الدروس، إنه يحمل خطًّا أصيلًا من خطوط الإسلام، ويبرزه إبرازًا إن الإسلام لا يكتفي من المؤمنين بالتفكير والتدبر والتذكر، ولا يكتفي منهم بالمشاعر الإيمانية المستكنة داخل القلب، إنما ينبغي أن يتحول هذا كله إلى سلوك عملي واقعي، إنه يبدأ بهذا التقرير: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٩، ١٩٠].

وهذا متصل بالآية السابقة، ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٩] التي تختم الحديث عن أهل الكتاب، وما ينتظرهم من عذاب أليم، وتكون في ذات الوقت وصلة في السياق تصل إلى أولي الألباب، وموقفهم من هذا الملك الهائل، الذي هو ملك الله ﷻ، وهكذا يكون عن ملك الله الواسع وقدرته التي لا تُحدّ؛ نذيرًا للكفار بأنهم لن يستطيعوا الخروج من ملكه، ومن محيط قدرته، ولا النجاة من عذابه.

وبشير للمؤمنين بأنهم في رحمة الله التي وسعت السموات والأرض، وفي رحمته التي تدخلهم الجنة بإذنه، وخلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، وتلك الآيات الكونية كلها ذات وقع عميق على الحث البشري، لا يمكن أن ينجو منه، ولكن فريقًا من البشر ترين على قلوبهم ما يكسبون، فتنطمس بصائرهم، فلا يعودون يلتفتون لتوقيعات الكون على قلوبهم، ولا يتيقظون لدلالاتها الهائلة، دلالاتها على وحدانية الله وقدرته.

أما أولو الألباب، فإنهم لا يوصدون قلوبهم دون توقيعات الكون، فهم عباد ربانيون، لا يفترون عن ذكر الله في جميع أحوالهم وأعمالهم، قلوبهم متصلة بالله، ترجو رحمته وتخاف عذابه، ومن خلال تفكيرهم يهتدون إلى الحقيقة

الكبرى، إن الله خلق السموات والأرض بالحق، يهتدون إلى ذلك بنور الإيمان، وإلا فالعقل وحده عرضة لأن يضل، وكم ضلت عقول وهي تتفكر في خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، فقالت: إنه عبث لا حكمة فيه، ولا غاية وراءه، انظر الوجوديين مثلًا؛ لأنهم يتفكرون وهم محرومون من نور الإيمان الذي ينير الطريق للعقل، فيهتدي إلى الحكمة غاية قال الله ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

إن أولي الألباب يهتدون إلى أن الله لم يخلق هذا باطلًا، فيسبحون الله، وإذ يعلمون أن الكون خُلق بالحق فهم يدركون أنه لا يمكن أن تكون الحياة الدنيا نهاية المطاف، وإلا فهو العبث الذي يتنزه عنه الخالق سبحانه، إذا فلا بد أن تكون هناك رجعى إلى الله، وأن يكون حساب على ما تم في الحياة الدنيا من أعمال قال ﷻ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وإذا عرفوا أن هناك رجعى وثوابًا وعقابًا، فهم يسارعون إلى الاستغاثة من العذاب ﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، ثم يسترسلون في التوسل إلى الله أن يجيرهم من هذه النار، وكأنما يقدمون بين يدي مولاهم المؤهلات التي تؤهلهم لدخول الجنة، والبعد عن النار ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّاۚ﴾ الآيات، إلى أن ينتهي ذلك الدعاء الحار الذي لا شك في صدوره عن قلوب مؤمنة صادقة الإيمان، ففكرت، وتذكرت، وتدبرت؛ فهداها التدبر إلى ما اهتدت إليه من الحق، فتوجهت إلى الله بمشاعر إيمانية صادقة، وتوسل حار إلى الله سبحانه ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ نعم، ولكن متى استجاب سبحانه، هل استجاب للتفكر وهو تفكر، وللتدبر وهو تدبر، وللتذكر وهو تذكر، وللدعاء الحار وهو دعاء، إنه استجاب لهم سبحانه بأنه لا يضيع عمل عامل منهم،

ومعنى ذلك: أن ذلك التفكر، والتذكر، والتدبر، وتلك المشاعر الإيمانية رغم صدقها الذي لا شك فيه ينبغي أن تتحول كلها إلى عمل، وعندئذٍ يستجيب الله سبحانه لذلك الدعاء، يضرب مثلًا من العمل المطلوب، ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابًا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

إن الإسلام لا يعرف التفكر من أجل التفكر، ولا التدبر من أجل التدبر، ولا المشاعر في صورتها الوجدانية الخالصة، ولو كانت هي مشاعر الإيمان، إنما ينبغي أن يتحول ذلك كله إلى عمل وجهاد في سبيل الله، ومن رجع إلى القرآن الكريم يجد ذكر العقل في عدد كبير تارة بالتصريح، وذلك ما يقارب خمسين موضعًا، وتارة يذكر أولي الألباب، كذلك أولي النهى، لكنها مرة واحدة في سورة طه، وأكثر ما ورد ذكر العقل في القرآن الكريم في الكلام على آيات الله الكونية الدالة على علم الله وقدرته، وحكمته، وإرادته، وتصرفه، وعظيم تدبيره.

وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها، ويهتدون بها هم العقلاء من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وفي تفصيل الوصايا الجامعة في سورة الأنعام ﴿ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وكرَّر قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ في عدة مواضع من القرآن كأمره لرسول الله ﷺ أن يحتج على قومه بأن القرآن من عند الله بقوله تعالى: ﴿فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]، وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله تعالى في أهل النار: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وقد حطهم إلى درجة الحيوانات التي لا يهمها في حياتها إلا الأكل والشراب؛ بل أحط منها بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج: ٤٦] والغافلون عن التفكر في هدف وجودهم، وفي مصيرهم لا تزكو نفوسهم، ولا تصعد إلى الكمال: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ ﴾ [الروم: ٨]؛ لأنهم لو تفكروا لرجعوا عن الغفلة، واستطاعوا الإجابة عن الأسئلة المملوء بها الكون؛ لذلك يرفع القرآن من شأن العقلاء المفكرين بقوله: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

وبقوله: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرعد: ٢٠، ٢١]، إلى قوله تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الرعد: ٢٢: ٢٤]، والآيات في ذلك كثيرة إن السور التي يعرضها القرآن لا سيما السور المكية عن الكون شاملة لآفاقه كلها، جامعة لأجزائه، تضع أمام الإنسان آفاق الوجود في إطارها الأكبر، تعرض أحيانًا بإيجاز شامل، وتعبير جامع كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

كما تُعرض أحيانًا مفصلة الأجزاء عن السماء بشمسها وقمرها، وسائر نجومها، والأرض ببرها وبحرها وجبالها، وسهولها، وأنهارها وحيوانها، ونباتها،

وإنسانها، كما في أول سورة النحل، ويعرض أحيانًا أخرى مشاهد معينة، ويشار إلى جانب العظمة في خلقها وإبداعها، وفي حركتها وجريانها، ونظام سيرها، ويوجه النظر إليها بشيء من الإمعان والتفصيل كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٢١]. وفي ذلك دلالة على وحدانية الله وقدرته.

نماذج من السنة النبوية:

دعوة الرسول ﷺ مشركي مكة إلى التوحيد، هذا النموذج لدعوة النبي ﷺ مشركي مكة إلى التوحيد والإيمان بالله معتمدًا فيه على أمر وقر في قلوبهم، وهو صدقه -صلوات الله وسلامه عليه، يذكر المؤرخون أن النبي ﷺ لما أمر بالجهر بالدعوة اتجه نحو جبل الصفا، وصعد إلى أعلاه فنادى ((يا معشر قريش)) فقالت قريش: إن محمدًا ينادي، وأقبلوا إليه يسألونه عن حاجته. ((فقال: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسطح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذبًا قط. قال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زهرة))، وأخذ ينادي على باقي القبائل ((إني لا أملك من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيبًا إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله)).

وقد روي عن ابن عباس { لما نزلت هذه الآية ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه فقال: ((يا بني فلان يا بني فلان يا بني عبد مناف يا بني عبد المطلب، فاجتمعوا إليه أرأيتم لو أخبرتكم خيلًا تخرج

بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جربنا عليك كذبًا، قال: وإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، قال: فقال أبو لهب: تبًّا لك، أما جمعتنا إلا لهذا، ثم قال: ونزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾)).

وبالتأمل في هذه الروايات نجد أن رسول الله ﷺ عندما وجَّه الدعوة إلى مشركي مكة بعد أن ناداهم، ارتكز على أمر يسلمون به جميعًا، ولا يشكون فيه، وجعلهم يعترفون به كمقدمة لدعوته، وهو صدقه ﷺ حيث اشتهر بينهم بالصادق الأمين، وذلك عندما بدأ لقاءه بهم بسؤاله إياهم ((أرأيتم لو أخبرتكم)) إلى آخره، فاعترفوا جميعًا قائلين: "ما جربنا عليك كذبًا قط" فقياسًا إلى تصديقهم له في المقال السابق من وجود الخيل التي تغير عليهم، والخطر الذي ينتظرهم أنذرهم بالعذاب الشديد إن لم يؤمنوا به، ولم يجدوا ما يردون به عليه سوى بذاءة أبي لهب، وكان ذلك خوفًا على مكانتهم من الضياع، أو اتباعًا لهوى النفس.

كيفية الاستفادة من المنهج العقلي في مجال الدعوة

كيفية الاستفادة من المنهج العقلي في مجال الدعوة:

الصفات العقلية التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية:

أولًا: القدرة على الفهم والاستيعاب: من الصفات العقلية التي ينبغي على العاملين في الحركة الإسلامية التحلي والاتصاف بها القدرة على سرعة الفهم والاستيعاب الكامل، والتخطيط المتزن المنظم، وذلك لأن هذا العصر الذي تعيش فيه الدعوة قد تغلغلت فيه الأفكار الاستعمارية، وغزته في عقر داره.

ومن هنا يتوجب على الداعية أن تكون عنده قدرة على الفهم، والتجاوب، وسرعة في التنفيذ، وأن يتسلح بالمعرفة التامة، وأن يفهم دعوته حق الفهم؛ كي يستطيع أن يبلغها حق التبليغ، فالداعية قبل أن يتكلم يعرف ويفهم ما يريد التكلم به؛ حتى لا يقع في حرج، أو مأزق لا يمكن الخروج منه، فينبغي عليه أن يدرس كل خطوة يخطوها إن خطب، أو كتب، أو ناقش، إن سالم أو خاصم، إن مدح أو هاجم.

ولله درُّ الحسن البصري إذ يقول: "العامل على غير علم كالسائر على غير طريق، والعامل على غير ما يريد يفسد أكثر مما يصلح".

فجدير بالداعية أن تتسع مداركه، وأن يفهم دعوته الفهم الصحيح، لا بد له من أن يفهم مقاصدها والإحاطة بأحوالها، ويفهم ما هو متطلب منه بصفته منتسب لها، كما يجدر به أن يفهم من هم أعداؤها، وماذا يريدون منها، والوسائل التي يتبعونها للطعن فيها والنيل منها، ومن حكمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب > في هذا الميدان قوله: "لست بالخبِّ ولا الخبُّ يخدعني".

ثانيًا: النظر الثاقب، والقدرة على الوصول للقرار الحاسم دون تردد؛ لأن الإسلام يكره لأبنائه أن يكونوا مترددين يحتارون في اختيار الصواب؛ لأن الهواجس تكثر في الرأس، فتخلق جوًّا من الريبة والتوجس، ثم يكونون مضطربين، وهذا لا يليق بالدُّعاة.

فينبغي على الداعية إذا ما أراد أمرًا من أمور الدعوة أن يفكر فيه جيدًا، وإذا عزم على تنفيذه يتوكل على الله، ثم يبدأ بالتنفيذ قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فلا مجال بعد العزم للتردد والتأرجح، ومعاودة تقليد الرأي من جديد، فهذا مآله الفشل والسلبية والتأرجح التي لا نهاية له؛ فالأمر رأي وشورى، ثم عزم ومضاء، وتوكل على الله، والله يحب المتوكلين.

ولنا قدوة برسولنا الكريم ﷺ فهو صاحب النظر الثاقب، والقرار الحاسم، وصاحب المشورة، والعزيمة الصادقة، فكان ﷺ يرى الرأي ثم يشاور أصحابه، ثم بعد المشورة يعزم على الأمر، ويتوكل على الله كما حصل له في غزوة أحد؛ حيث استشارهم في طريقة الخروج، وكان رأيه ﷺ أن يترك المشركين يدخلون أزقة المدينة، ثم يقاتلهم ويحشرهم في الأزقة، وكان رأي أصحابه أن يخرج إليهم، فلما رأى الصحابة مصرين على ذلك نزل إلى رأيهم، وحصل ما حصل في غزوة أحد، ومع هذا قال له ربه: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]

والدارس لتصرفات الرسول ﷺ وأحواله لا يكاد يرى فعلًا من أفعاله إلا وفيه جليل الحكمة، وبعد النظر، فينبغي على العاملين في الدعوة الإسلامية أن يتصفوا بصفة التأمل والنظر الثاقب، وتكون عندهم القدرة الكافية لاتخاذ القرار الحاسم دون أي تردد، ودون أي ريب؛ لأن الداعية إلى الله ينظر بنور الله، وهذا النور الإلهي إذا حل في قلب المؤمن يُولد فيه البصيرة الثاقبة، التي يعرف بها الحقائق، ويزن بها الأمور، ويدرك بها الصعاب، ﴿يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥].

ثالثًا: معرفة النفوس: لله جل شأنه الحكمة البالغة بأن ميز كل إنسان عن غيره بميزات عقلية وجسمية ونفسية تختلف من إنسان لآخر، ولا تكاد تجد اثنين متشابهين في كل شيء؛ لهذا كان واجب الدعاة الحرص على النوعية الجيدة، والحائزة على الصفات التي تؤهلها بجدية في الحقل الإسلامي، ومن يكيِّف نفسه على شرائط الإسلام يستطيع أن يتعرف إلى النفوس، وينفذ إليها، ولا بد من توفر القدرة التي تتعمق في دخائل النفوس التي بها يفهم الأشخاص، ويصل إلى قلوبهم من أقرب طريق.

المنهج الفردي (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	تعريف الدعوة الفردية، وبيان صورها، ومشروعيتها	٢٨٣
العنصر الثاني :	أطوار الدعوة الفردية	٢٨٦
العنصر الثالث :	فوائد الدعوة الفردية، والمآخذ عليها	٢٩٠

تعريف الدعوة الفردية، وبيان صورها، ومشروعيتها

تعريف الدعوة الفردية:

هي أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله، وتعني اتصال الداعي بالمدعو اتصالًا شخصيًّا مباشرًا، بهدف الارتقاء به عقيدة وعبادة، وأخلاقًا، وفهمًا، وحركة، حتى تتحقق في المدعوِّ صفات الفرد المسلم الحق، سليم العقيدة، صحيح العبادة، حسن الخلق، مثقف الفكر، قوي البنية، قادر على الكسب، نافع لغيره، حريص على وقته، منظم في شئونه، مجاهد لنفسه.

ويتوفر لديه الاستعداد للقيام بواجب الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، والانتظام في صفوف الدعاة المجاهدين، ويتم ذلك بالاختلاط بالناس عمومًا، ثم انتقاء فرد أو أفراد منهم يتوسم فيهم الداعية الصلاحية؛ لتقبل الدعوة والاستجابة لمبادئها، فيصاحبهم، ويؤاخيهم، ويوجه إليهم الدعوة بصورة فردية مباشرة بما يؤهل هؤلاء المدعوين؛ لأن يكونوا لبنات جيدة متماسكة في بناء الصف المسلم، ونتحدث في هذا الفصل عن الدعوة الفردية من جانبين:

الجانب الأول: ماهية الدعوة الفردية وصورها:

أولًا: ماهيتها، ولعل أبسط وأوضح ما يقال في ماهية، أو في تعريف الدعوة الفردية: أنها التوجه بالدعوة أو الخطاب إلى المدعو على انفراد، أو مع جمع قليل من الناس لهم صفة الخصوص دون العموم.

ثانيًا: صورها: وتؤدى الدعوة الفردية على صورتين:

الصورة الأولى: دعوة فردية تصدر من فرد ينتمي إلى جماعة، وخلاصتها: أن يقوم كل فرد من أفراد هذه الجماعة بصفتها تدعو إلى الله تعالى بواجب الاحتكاك المقصود الهادف بعناصر جديدة في محاولة لجذبها إلى الفكرة أولًا، وإلى الحركة أو الجماعة ثانيًا.

الصورة الثانية: دعوة فردية تصدر من فرد ليس عضوًا في جماعة، وخلاصتها: أن يقوم المسلم بصفته فردًا من الأمة بواجب الدعوة إلى الله عن طريق الخطب، والمحاضرات، والمقالات، والتأليف دون أن يكون لهذه الدعوة سند جماعي، أو تنظيم حركي، ولا شك أن النوع الأول أجدى وأنفع؛ لأنه جهد يُضم إلى جهود أخرى، فتكون الثمرة الطيبة مع قلة التكاليف، وقصر الطريق.

النوع الثاني: وهو الذي يقوم به الوعاظ، والخطباء، والكتاب على كثرة الجهد المبذول في قليل الأثر، لا يوصل إلى ما يحرص عليه المسلمون المخلصون، وهو إقامة حكم الله في الأرض بدليل كثرة الخطب، والمواعظ التي تلقى في العالم الإسلامي كل يوم جمعة من على المنابر، ويسمعها الملايين من البشر منذ سقوط الخلافة الإسلامية وإلى الآن، والنتيجة ماذا؟

وهذا لا يعني أننا نحتقر جهد هؤلاء، وننقص من أقدارهم، كيف وفيهم أناس يدعون إلى الله بحماس وصدق، وإخلاص، ولا يدخرون جهدًا ولا يضيعون لحظة بغير عمل، وإنما الذي نعنيه أن جهد هؤلاء مع ضخامته لا يتناسب مع حجم الثمرة التي تجنى. والسبب أنها جهود مبعثرة لا تربطها رابطة، ولا ينتظمها شمل.

ويمكن أن تؤدَّى الدعوة على صورتين:

الصورة الأولى: الدعوة الفردية اللحظية أو العابرة، وهي التي يقوم فيها الداعية بالاتصال الفردي بالناس أثناء تعامله اليومي معهم، وهذه لا تحتاج إلى جهد

وإعداد، وقد تكون خلال عمل آخر، فلا تأخذ وقتًا خاصًا كالذي يكون في حفل عزاء، أو عيادة مريض، أو مع جار في وسيلة مواصلات، أو أثناء البيع والشراء والتعامل اليومي.

وهذه الصورة تتفق مع الدعوة العامة في الهدف، هو نشر الدعوة والفكر بين جماهير الناس، وكسب تعاطف الرأي العام مع الدعوة والدعاة، وإن اختلفت عنها في المظهر والأسلوب.

الصورة الثانية: الدعوة الفردية المستمرة والدائمة، وهي التي تتطلب جهدًا وإعدادًا، وتستمر لفترات غير قصيرة، وتهدف إلى الوصول بالمدعو إلى أقصى درجات الالتزام الإسلامي، ألا وهي درجة الداعية المجاهد المنتظم في صفوف الدعاة.

الجانب الثاني: مشروعية الدعوة الفردية: وهذه الدعوة بهذا التحديد مشروعة:

أولًا: لورودها في كتاب الله ﷻ وسنة النبي ﷺ ففي كتاب الله يقول الحق -تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، وقال: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الشورى: ١٥]، وقال: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ﴾ [الحج: ٦٧]، وقال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي السنة يقول النبي ﷺ: ((من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله))، وقال ((من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيء، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا))، وقال ﷺ: ((من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان))، وقال ﷺ:

((ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريين وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل)).

والاستدلال بالآيات والأحاديث واضح بيِّن، وخلاصته أن صيغ الخطاب الفردي التي ورد بها التكليف القرآني والنبوي هنا تؤكد المسئولية الفردية في حمل أعباء الدعوة الإسلامية.

ثانيًا: بدأ الأنبياء مهمتهم ورسالتهم في الأرض بهذه الدعوة الفردية، وبهدي هؤلاء الأنبياء اقتدى نبينا محمد ﷺ، كما قال الله ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

أطوار الدعوة الفردية

أطوار الدعوة الفردية:

هناك مراحل ينبغي أن تمر فيها الدعوة الفردية، إذا أراد الداعية أن تؤتي دعوته ثمرتها، وهذه المراحل تختلف من مدعو إلى آخر، فمنهم من يجب أن يتدرج معه حسب ما سطرناه ها هنا، فهذا على كل حال أمر اجتهادي، ومنهم من يمكن أن يتجاوز بعض الأطوار، وهذا الأمر راجع إلى الداعية نفسه، فهو الذي يختار كيف يتعامل مع مدعوه، فمتى عرف أنه لا بد أن يمر مع المدعو بكل الأطوار مر معه، ومتى عرف أنه يمكن أن يتجاوز أي طور من الأطوار التي سنذكرها، فلا يضيع الوقت فيما لا فائدة فيه، وإليك هذه الأطوار.

الطور الأول: وهو أن يوجد الداعية صلة تعارف مع المدعو بحيث يُشعره بأنه مهتم به، وذلك بتفقده ما بين الحين والآخر، والسؤال عنه إذا غاب، وزيارته إذا مرض، هذا كله قبل أن يفتح عليه باب الدعوة، حتى إذا سارت القلوب متقاربة، والأرواح متآلفة، ووجد التهيؤ من المدعو لتقبل دعوة الداعية، طرق الكلام فيما يريد، وليعلم الداعية أنه بقدر نجاحه في هذا الطور مع المدعو يكون التأثير والاستجابة للدعوة، وأي تسرع في هذا الطور قد يُحدث النفرة من المدعو.

الطور الثاني: وهو أن على الداعية أن يعمل على تقوية الإيمان عند المدعو، وذلك أن أصل الإيمان في الغالب موجود إلا أنه تتفاوت نسب الضعف من شخص إلى آخر، وإذا أراد الداعية أن يعالج هذه القضية فعليه أن لا يدخل في الحديث عن الإيمان مباشرة، بل عليه أن يستغل الأحداث بمختلف أنواعها، وعليه أن يربطها بالأدلة الواردة في القرآن والسنة، فمثلًا: حصل مولود لشخص من الأقرباء أو الجيران، فيبدأ الداعية بالكلام حول خلق الله لأبينا آدم، ثم كيف أن الله جعل ذريته من ماء مهين، وكيف جعل رحم المرأة مكانًا لنشوء الجنين، وكيف أوصل له غذاءه طيلة تسعة أشهر، ثم كيف خرج إلى آخر ذلك، ومع ربط جميع المراحل بالقرآن والسنة.

فإنه ما ينتهي من كلامه -إن شاء الله- إلا وقد بدأ الإيمان بالازدياد عند المدعو، مما يجعله متقبلًا لكل ما يُلقى عليه، فإذا شعر الداعية بان المدعو بدأ يتأثر بكلامه وارتفع نوعًا ما انتقل به إلى الطور الثالث.

الطور الثالث: في هذا الطور يبدأ الداعية في إعطاء التوجيهات للمدعو، التي من شأنها أن تُصلح من عبادة المدعو، وسلوكه ومظهره، فلربما كان في عبادته كثير من الأخطاء، أو أنه لا يصلي الصلوات في جماعة، والمسجد منه قريب،

وكذلك يعرفه على العبادات المفروضة، فيعلمه كيفية الوضوء، وكيفية الصلاة، ويأمره بالابتعاد عن السبل التي توصله إلى سخط الله ﷻ.

وأما إذا كان محافظًا على الجماعة ولكن عنده بعض التقصير، فليعمل الداعية على تبصير المدعو بالمعتقد السليم، الذي هو معتقد السلف الصالح ﴿، ويحسن بالداعية أن يبدأ بإهداء وإعارة بعض الكتب، والأشرطة النافعة في مجال العقيدة والإيمان، والترغيب والترهيب، ويعرفه على بعض الشباب الصالحين، ويأمر الشباب الملتزم بالإحاطة بهذا الفرد؛ حتى لا يترك مجالًا لقرناء السوء من اجتذابه مرة أخرى، وبهذا نضمن -بإذن الله تعالى- استمرارية استقامة المدعو.

الطور الرابع: يبدأ الداعية في هذا الطور بتوضيح شمولية الإسلام، وأنه ليس مقصورًا فقط في الصلاة والصوم مثلًا، بل إن الإسلام يجب أن يحكم في كل صغيرة وكبيرة، وبهذا يكون المدعو في هذا الطور قد حوَّل جميع حركاته وسكناته وفق شرع الله ﷻ.

الطور الخامس: وفيه يوضح للمدعو أن الإسلام ليس معناه أن نكون مؤدين للعبادات، متخلقين بالأخلاق الفاضلة، وإلى هنا ننتهي؛ بل يجب أن يوضح له أن الإسلام دين جماعي، نظام حياة وحكم وتشريع، عقيدة وأخلاق، ودولة وجهاد، وأمة واحدة، وأن المسلم لا يمكن أن يكون آخذًا للإسلام من جميع جوانبه إلا إذا فهم هذا الفهم السليم، فإذا فهمنا هذا الفهم السليم للإسلام؛ فإنه -أي: هذا الفهم- سيملي علينا مسئوليات وواجبات يجب أن نقوم بتأديتها؛ امتثالًا لأمر الله حتى يقوم المجتمع على القواعد الصحيحة للإسلام في جميع النواحي السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية إلى آخره.

الطور السادس: فيه يمكن للداعية أن يوضح للمدعو ما يستوجبه الواقع الذي تمرُّ به الدعوة إلى الله، وأنها محتاجة إلى تكاتف الجهود، ولمِّ الشمل، ووحدة الصف

والعلم حتى يتمكن المسلمون من إعادة الخلافة الإسلامية التي كاد لها أعداء الله من الداخل والخارج، حتى أطاحوا بها، ومنذ ذلك الحين والمسلمون يعيشون في هذا الذل والهوان؛ حتى صار أعداؤهم لا يبالون بهم، وهذا كله نتيجة أن المسلمين رضوا بدنياهم، وابتعدوا عن العمل بكتاب الله، وعن سنة نبيهم، وتركوا الجهاد في سبيل الله.

ولهذا يقول النبي ﷺ: ((إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد؛ سلط الله عليكم ذُلًّا لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم))، وقال ﷺ: ((ولينزعنَّ الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفنَّ الله في قلوبكم الوهن، قالوا: وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت)).

الطور السابع: على الداعية أن يحمس المدعو لطلب العلم؛ لأنه لا يمكن أن يعبد الله كما أمر سبحانه إلا بالعلم، فيرغِّب المدعو بمجالسة العلماء العاملين من أهل السنة والجماعة، أصحاب المنهج السليم، ويشعره إذا وُجدت محاضرات، أو جلسات خاصة؛ سواء كان ذلك بالمرور عليه أو بالهاتف كما يحثه على اقتناء الكتب النافعة، وكذا الأشرطة والمجلات إلى آخره.

وينبه المدعو إلى أن خير السبيل لإقامة الخلافة هي سبيل رسول الله ﷺ، وهي سبيل العلم وتربية المجتمع مع تصفيته، وأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وأن المنهج الذي يجب على المدعو أن يتبعه إنما هو منهج السلف الذي هو منهج أهل السنة والجماعة، وأنه مهما حاول المحاولون الذين ابتعدوا عن هذا المنهج أن يعيدوا الخلافة الإسلامية، فإنما مثلهم مثل من يبني بناية على شفا جرف هار يوشك أن يقع.

فوائد الدعوة الفردية، والمآخذ عليها

وعلى ذلك فإن للدعوة الفردية فوائد كثيرة:

الأولى: إن الدعوة الفردية تربي الأفراد تربية متكاملة، فلا تقتصر على جانب واحد وتهمل الباقي، وهذا ما يسمى بالشمولية في التربية، ولهذا فإن الدعوة الفردية تكون أنجح من الدعوة العامة في تربية الأفراد، ولأن الدعوة الجماعية لا يمكن أن تتبع أخطاء الأفراد خطأ خطأ، بل نجد أن الدعوة الفردية من خلالها يمكن التنبيه على كثير من الأخطاء التي يقع فيها الأفراد، وبهذا يمكن استكمال التربية.

الثانية: بالدعوة الفردية يمكن متابعة التطبيق العملي للتوجيهات الملقاة على الأفراد.

الثالثة: بالدعوة الفردية يمكن الرد على كثير من الشبهات التي تلقى على مسامع الأفراد، والتي لا يمكن التحدث بها في الدعوة الجماعية.

الرابعة: بالدعوة الفردية يمكن غرس المبادئ الإسلامية الصحيحة، ويمكن التحدث عنها بكل جدية ووضوح إذا جاء الوقت المناسب لكل مبدأ.

الخامسة: بالدعوة الفردية يمكن إيصال الحق إلى الذين نَفَرُوا أو نُفِّرُوا عن سماعه، وعن مجالسة أهله.

السادسة: إن هذا النوع من أنواع الدعوة طريقة سريعة لكسب أكبر عدد من أنصار الدين.

السابعة: يمكن متابعة الأفراد متابعة دقيقة بخلاف الدعوة الجماعية، فإنه لا يمكن متابعتهم.

الثامنة: هذا النوع من أنواع الدعوة لا يحتاج إلى غزارة علم بقدر ما يحتاج إلى حكمة في الدعوة، فيمكن أن يقوم به أفراد محبون للدعوة.

التاسعة: الدعوة الفردية لا تحتاج إلى كثير معاناة، فهي سهلة، ويمكن أن يقوم بها كل داعية من خلال عمله، فالطالب في مدرسته أو معهده أو كليته، والموظف في مكتبه، والعامل في مصنعه، وهكذا.

العاشرة: مخاطبة المدعو عن قرب وعلى انفراد، الأمر الذي ييسر مفاتحته في كثير من المسائل والقضايا التي لا يمكن تناولها على الملأ، وفي جمع كثير من الناس.

الحادية عشر: المواجهة بين الداعي والمدعو، الأمر الذي يحمل على جمع همته ونشاطه لشعوره بأنه وحده المقصود بالحديث والحوار.

الثانية عشر: ضمانها واستمرارها، ولا سيما في أوقات الشدائد، وساعات التضييق.

الثالثة عشر: كثرة التكرار، فقد تقع في اليوم الواحد عدة مرات.

الرابعة عشر: مستورة عن أعين الناس، ولا سيما الأعداء، الأمر الذي يحمي من الرياء والسمع من ناحية، ويوفر لها الأمن من ناحية أخرى.

الخامسة عشر: تساعد على اكتشاف الطاقات والمواهب، بحيث يوضع صاحب كل طاقة أو موهبة في الموضع الذي يناسبه.

السادسة عشر: توجد صلة ترابط وتعاون بين الداعي والمدعو، بحيث إذا لم يتيسر كسب المدعو إلى صفوف الحركة لم يكن من ورائه خطر ولا ضرر.

السابعة عشر: تكسب صاحبها خبرة وممارسة للدعوة إلى الله التي هي من أوجب الواجبات.

الثامنة عشر: يدفع من يقوم بها إلى مزيد من التحصيل والزاد، كي يتمكن من حسن الأداء.

التاسعة عشر: تحمل من يقوم بها على مجاهدة نفسه حتى يكون أسوة وقدوة للمدعو.

العشرون: تتيح الفرصة للمدعو كي يستفسر عن كل ما يعنُّ له.

وقد يؤخذ على الدعوة الفردية:

١. أن المؤهلين للخطاب قد يكونون كثرة بينما القائمون بها قلة، فيصعب الاستيعاب، ويكون التفلت، ونقول: هذا صحيح، ولا بد من تخريج طائفة كبيرة من الدعاة، تحسن القيام بهذه المهمة، وتسد هذا الفراغ، ولا عذر لأحد فإن الحاجة تفتق الحيلة.

٢. مردودها أو عائدها قليل، ونقول: هذا صحيح، ولكن العبرة ليست بالكم أو العدد، وإنما هي بالكيف أو النوع.

ونفر واحد يتخرج من هذه الدعوة الفردية ربما يكون أجدى على الأمة من عشرات، بل مئات من المولعين بمجرد السماع للدعوة العامة، وإن كان العمل الإسلامي لا يستغني عن النوعين جميعًا أعني: الدعوة الفردية والدعوة العامة.

٣. قد يصاب المدعو لأنه فرد، ولا مجال للمنافسة بشيء من الفتور والسأم والملل، ونقول: هذا صحيح، ولكنا نوصي بالتنويع والتلوين في أسلوب هذه الدعوة.

يقول الأستاذ عبد البديع صقر، وهو يتحدث عن الدعوة الفردية: "مميزاتها أنها كثيرة الحدوث فقد تتفق للإنسان مرات في يوم الواحد، وأنها عابرة لا تحتاج إلى

جهد، ولا إعداد، وقد تكون خلال عمل آخر؛ فلا تأخذ وقتًا خاصًّا، كالذي يكون في حفل عزاء، أو عيادة مريض، أو التهنئة بمولود، وأنها يسيرة ليس فيها التوتر والتحفز الذهني الذي يكون في الحفلات العامة، ولا المجالات الكلامية المجهزة، ويستطيع الداعية أن يكون فيها محررًا من كل قيود النقد، وأنها سهلة يستطيع الإنسان ويستطيع كل مؤمن بدعوته أن يشارك فيها، ولو كان أميًّا، أو غير أهل هذه الصناعة؛ بل هي حقل جيد للتدريب، واختبار المواهب، فكأنها التجربة للميدان الكبير، وأنها مستورة تحمي الداعية من الرياء والسمعة، فكثيرًا ما يصاب بمرض الميكروفون، وداء الصدارة، وأن فيها فرصة للتنفيس؛ حيث يبدي كل واحد ما عنده من وجهات النظر، فكثيرًا ما يستمع الإنسان إلى قضية جديدة بالنسبة له، ثم يعرض له سؤال هام، ولا يجد في المجال العام من يرد عليه، فيبقى مشغولًا به، معرضًا عما يتلوه إلى أن يفهم تلك النقطة التي ساورته من قبل.

وفيها الحديث الحر، فإن المرء يستطيع أن يعرض ما عنده من شكوك، أو تساؤلات، وأن يأخذ ويعطي بحرية كافية، وهذا لا شك أجدى وأنفع؛ فضلًا عن أنه ينشئ الصداقة والمودة بين الداعية وبين من يتصل بهم على هذه الطريقة، وفيها دوام الإمكانية، فإنه خلال أحلك العصور التي مرت بالشعوب لم تتوقف الدعوة المحدودة بل زادت ونشطت، وكأنها التعويض عن الكبت الذي تباشره السلطات أحيانًا؛ لأنها حديث النفس لنفس أخرى، تعاني مثل ما تعاني تلك، وهو ما تعجز كل قوى الظلم عن السيطرة عليه، وفيها من بركات النبوة؛ لأن الأنبياء -صلوات الله عليهم- بدءوا بها، ولم يتوقفوا عنها بل كانت من أساليب حياتهم على الدوام".

أثرها: وقد يبدو لأول وهلة أن الدعوة الفردية بطيئة الأثر، قليلة الإنتاج، ولقائل أن يقول: إنه في المجتمعات الوفيرة العدد ذات الحاجات الملحة للإصلاح، لا يتهيَّأ للملايين أن تصلها الفائدة المأمولة بواسطة الدعوة المحدودة، هذا حق، لكنه مع التسليم بضرورة الدعوة العامة متى تيسرت أسبابها تظل الدعوة الفردية هي الأساس في النجاح للمدى الطويل، وأما الذين تفاهموا على المستوى الفردي، المطمئن، هم دائمًا ركائز الدعوات، وهم الأدوات الفعالة في كل الحركات الإصلاحية التي ظهرت عبر القرون، ومثلهم كمثل الحواريين أتباع الأنبياء، وكمثل تلاميذ الزعماء المصلحين.

وما أشبه الدعوة الفردية بالأساس الذي يقوم عليه البناء، مع أنه الجزء المدفون تحت الأرض، ومثل الدعوة في أثرها كمثل البناء ذاته، فلا يستغني كلاهما عن الآخر، على أن الدعوة الفردية ليست بطيئة الأثر على كل حال، فربما كانت في بعض الظروف أسرع تأثيرًا من الدعوة العامة، وأسلم عاقبة منها.

ويقول الأستاذ فتحي يكن، وهو يتحدث عن الاتصال الفردي المباشر: "للاتصال الفردي حسنات كثيرة لا مجال لحصرها، ولكن يُكتفى هنا بالإشارة إلى أن الاحتكاك الفردي يتيح للدعاة التعرف على العناصر المراد جذبها إلى الدعوة، وتبليغها الفكرة عن كسب، كما يمكِّنه الاحتكاك من الوقوف على أوضاع هؤلاء ومشاكلهم، ويسهل عليهم بالتالي عملية التشخيص والتوجيه والمعالجة؛ بينما لا يتحقق في مجالات الاتصال الجماعي فوائد التأثير المباشر الذي يلامس العلة ذاتها، ويعالج الداء نفسه، وبهذا لا يبقى العمل الإسلامي محصور في عدد من الأفراد الذين يمارسون مهام التوجيه والإرشاد، وإنما يفرض على كل فرد من أفراد الدعوة أن يؤدي دوره الإنتاجي في حدود ما تسمح به إمكانياته، وقدراته،

وطاقاته، وهذا من شأنه أن يحول الجماعة إلى خلية عمل الكل فيها يعمل وينتج، ولا مجال فيها للبطالة والكسل.

ومن محاسن الاتصال الفردي أيضًا أنه يجنب الحركة الإسلامية كثيرًا من مواقف الإحراج التي تفرضها أحيانًا الظروف السياسية، ويعين الدعاة على مواجهة كافة الأسئلة المطروحة بالنقاش الموضوعي، وبالتبسيط والتفصيل، مما لا تتيحه أجواء الاتصال العامة كأجواء الاحتفالات والمهرجانات والمحاضرات.

وبهذا يكون الاتصال الفردي الوسيلة المثمرة المنتجة التي تؤتي أكلها من غير ضجيج، أو ضوضاء، وتبلغ بالحركة الغاية المنشودة منها بأيسر التكاليف، وأقصر الأوقات. وأخيرًا فليضع الدعاة أمام أعينهم باستمرار قول النبي ﷺ: ((لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من الدنيا وما فيها))".

مجالات المدعويين وأصنافهم في الدعوة الفردية:

والدعوة الفردية: تتم في كل المجالات، أو في سائر الميادين، ومع كل الناس؛ بيد أن الظروف التي يمر بها العالم الإسلامي اليوم تقتضي المسارعة باستخلاص العناصر الجيدة المستعدة للتضحية، والبذل، والعطاء، ونظمها في سلك واحد؛ ليصنع بها قدر الله على هذه الأرض، من هنا كانت المفاضلة والتقديم لمجال، أو لميدان على آخر، وكذلك المفاضلة والتفضيل لصنف من الناس على آخر، فمثلًا دعوة المسلم مقدمة على دعوة غير المسلم؛ إذ المطلوب اليوم هو الانتقال بالمسلمين من الواقع المرير الذي يعيشونه، وما فيه من قصور في فهم، أو فتور في عمل، أو ، غلو أو شطط، أو نحو ذلك إلى فهم الإسلام فهمًا سليمًا شاملًا نقيًّا، كما جاء به رسول الله ﷺ، ومتطلبات هذا الإسلام، ثم كيفية تحقيق هذه

المتطلبات، على النحو الذي يمكن للإسلام، ويضمن للمسلمين عز الدنيا وسعادة الآخرة.

ودعوة الأقربين نسبًا وجيرة مقدمة على دعوة الأباعد، نظرًا لكونهم معروفين عند الداعية، ولا يحتاج إلى جمع المعلومات عنهم، وهم كذلك يعرفون، وربما عتبوا عليه إذا أهملهم وذهب إلى الأبعدين، ثم هو مسئول عنهم بين يدي الله ﷻ، فقد أخذ النبي ﷺ على قوم أنهم لا يُفقهون جيرانهم، ولا يُعلمونهم، فتوعدهم بالعقوبة، وأمهلهم سنة للقيام بهذا التكليف، فقال ﷺ: ((ما بال أقوام لا يُفقهون جيرانهم، ولا يُعلمونهم، ولا يعظونهم، ولا يأمرونهم، ولا ينهونهم، وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم، ولا يتفقهون، ولا يتعظون، والله ليعلمنَّ قوم جيرانهم، ويفقهونهم، ويعظونهم، ويأمرونهم، وليتعلمنَّ قوم من جيرانهم، ويتفقهون، ويتعظون، أو لأعاجلنَّهم العقوبة)) وأعاد ذلك مرارًا حتى قال المعنيين بالخطاب: أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة؛ ليفقهوهم ويعلموهم، ويعظوهم، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٨].

وأيضًا اقتداء وتأسيًا برسول الله ﷺ، إذ عندما بدأ رسول الله ﷺ بالدعوة أمره الله تعالى أن ينذر عشيرته الأقربين، فقال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ودعوة الصغير مقدمة على دعوة الكبير من حيث إن الصغير لم يصلب عوده على فكر أو سلوك معين، والتعامل معه أسهل من التعامل مع الكبير الذي اختار طريقه، وكثرت ارتباطاته ومسئولياته، وحقق مركزًا اجتماعيًا، أو مكاسب دنيوية يخشى عليها، ثم إن الصغير الذي يُقبل على الدعوة يدخل مباشرة في الصياغة والتكوين، ولا يبذل الداعية معه وقتًا طويلًا في

تخليته من الشوائب والعادات الجاهلية، وإنما ينصرف إلى تحليته وتعبئته بالفضائل والعادات الإسلامية.

وصغير القوم هو رجل الغد، والناشئة هم مستقبل الأمة، ودعوة المتواضع مقدمة على دعوة المتكبر؛ لأن التواضع دليل على إمكان قبول الحق والعمل به، بينما التكبر دليل على سفه الحق وغمط الناس على أن أتباع الأنبياء والمرسلين كانوا ما بين غني شاكر متواضع، وما بين فقير صابر ضعيف، ودعوة المثقف مقدمة على دعوة الأمي؛ نظرًا للدور الذي يقوم به المثقف في المجتمع، أضف إلى ذلك أن المثقف أقدر من غيره على محاكمة الآراء واختيار الأفكار، ومن يختار الفكرة عن وعي، فإنه في الغالب يلتزم بها.

ودعوة زميل العمل أو المهنة مقدمة على دعوة غيره، نظرًا لأن أفراد كل مهنة بينهم تعاون تلقائي، ومباشر، ومجالات الحديث بينهم مهيأة، ونقاط الاشتراك كثيرة؛ فالطبيب مع الأطباء أقدر منه بين المهندسين، والمحامي مع المحامين أقدر منه بين المعلمين، ودعوة ذي التأثير والمنعة في قومه مقدمة على دعوة من لا أثر له، ولا منعة؛ نظرًا لأن هذا يُسهم في الإسراع في عملية التغيير، وقد يغير كثيرًا في المعادلة لصالح الدعوة، ثم هو اقتداء بالنبي ﷺ؛ إذ كان يدعو، ويقول: ((اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب)).

وهو كذلك محاكاة لأول داعية في المدينة مصعب بن عمير > ؛ إذ لما أحسن دعوة أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ، وأسلما، أسلم بإسلامهما سائر دار بني عبد الأشهل، وهكذا فالداعية الحصيف يتخير لدعوته الموضوع الأهم والأولى، والمجال أو الميدان الأكثر عطاء.

ومن خصائص الدعوة الفردية كذلك:

أنها هي الأساس في بناء صف الدعاة، والعاملين للإسلام، فمن بوتقة الدعوة الفردية تخرج العناصر المتميزة، والنوعيات الممتازة من الرجال الذين يُمثلون القاعدة الصلبة التي تعتمد عليها الدعوات، واللبنات الجيدة المتماسكة التي يتكون منها بناء الدعوة، وصف الدعاة.

وهذا الهدف يختلف عن الهدف المراد من الدعوة العامة؛ إذ أن الدعوة العامة يُراد منها تكوين الشعب المسلم، والرأي العام المتعاطف مع الدعوة والدعاة، والذي يمثل قاعدة عريضة يمكن انتقاء من يصلح منها للانتظام في صفوف الدعاة.

ومن البديهي أنه لا يمكن بناء صف متين من الدعاة بمجرد العمل في الدعوة العامة، مهما كان النشاط فيها مكثفًا، كما أنه لا يمكن تكوين الشعب المسلم، والرأي العام المتجاوب مع الإسلام بمجرد العمل في الدعوة الفردية وحدها، مهما بذل فيها من جهد، وقد يتصوَّر البعض أن الدعوة الفردية بطيئة الأثر، قليلة الإنتاج، والواقع أن الدعوة الفردية من أسرع طرق الدعوة، رغم أن ظاهرها غير ذلك، ورغم أن الاهتمام فيها بالكيف، وليس الكم، والنوعية وليس العدد.

ذلك أنها تضاعف أعداد الدعاة العاملين في متوالية هندسية مستمرة، ومثيرة للعجب، ولإيضاح ذلك نفترض أن داعية ما بدأ العمل في الدعوة الفردية، وبعد عام استطاع أن يكسب للدعوة داعية جديدًا، وبدأ الاثنان معًا في العمل في العام التالي، وفي نهايته استطاع كل منهما أن يكسب داعية جديدًا، وهكذا، فنجد أن العدد يتضاعف بسرعة كبيرة، قد لا يتخيلها البعض.

المنهج الفردي (٢)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	تطبيقات المنهج الفردي من القرآن والسنة	٣٠١
العنصر الثاني :	صور أخرى للدعوة الفردية	٣٠٦
العنصر الثالث :	من مواقف الحكمة الفردية	٣١٢

تطبيقات المنهج الفردي من القرآن والسنة

تطبيقات المنهج الفردي من القرآن والسنة :

يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② ﴾ [المدثر: ١، ٢]، وقال ﷻ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] لما نزلت سورة المدثر تيقن النبي ﷺ أن الله سبحانه كلَّفه بأعباء الرسالة، التي لا يتحملها إلا أهل القوة والعزم من الرسل بعون الله وتوفيقه، مما يزيد هذا العبء ثقلًا وشدة أنه بدأ تحمله في مكة، وهي مركز دين العرب، وبها سدنة الكعبة، والقوامة على الأوثان والأصنام المقدسة عند العرب، فالوصول إذا مقصود من الإصلاح فيها يتطلب جهودًا غير قليلة، بل يزداد عسرًا وشدة عما لو كان بعيدًا عنها، إذا فالأمر يحتاج إلى عزيمة لا تزلزلها المصائب.

وكان من الحكمة تلقاء ذلك أن تكون الدعوة إلى هذا الدين في بدء أمرها سرية فردية، والرسول ﷺ يقول: ((لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من الدنيا وما فيها))، أما عن الاتصال الفردي:

إسلام خديجة بنت خويلد > من حكمة الله ﷻ أن شرح صدر خديجة أم المؤمنين > ، لما جاء به ﷺ، وكان ذلك الاتصال الأول بأقرب الناس إلى صاحب الدعوة ﷺ، فكانت أول من آمن به وصدقت بما جاء من الله، فخفف الله بها عن نبيه ﷺ شيئًا كثيرًا مما يجده من أمر الدعوة ؛ إذ كان لا يسمع شيئًا مما يكرهه من ردٍّ وتكذيب، فيحزنه ذلك إلا فرَّج الله عنه بها إذا رجع إليها، تثبته وتهون عليه أمر الناس.

وقد بشرها ﷺ ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب، وكانت أول من علمه النبي ﷺ الوضوء عقب ما علمه جبريل # مباشرة؛ إذ همز له بعقبه من ناحية الوادي، فانفجرت له عين من زمزم، فتوضأ جبريل ومحمد -عليهما الصلاة والسلام، ثم صلى ركعتين وأربع سجدات، وفي السيرة الحلبية "فقال له: يا محمد إن الله تعالى يقرئك السلام، ويقول له: أنت رسول الله إلى الجن والإنس، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله، ثم ضرب برجله في الأرض، فنبعت عين ماء"، وفي بعض الروايات "حين افترضت عليه الصلاة، وهذه غير الصلاة التي صلاها به عند البيت مرتين صبيحة الإسراء والمعراج".

إسلام علي بن أبي طالب –كرم الله وجهه:

ثم إن علي بن أبي طالب جاء بعد ذلك بيوم، وهما يصليان فقال: يا محمد ما هذا؟ قال: دين الله الذي اصطفاه لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، وأن تكفر باللات والعزى، فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاضٍ شيئًا حتى أحدث به أبا طالب، فكره رسول الله ﷺ أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلم أمره، فقال له: يا علي إذا لم تسلم، فاكتم، فمكث على تلك الليلة، ثم أوقع الله في قلبه الإسلام، فأصبح راضيًا على رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ما هذا؟ فقال: ماذا عرضت علي يا محمد، فقال له: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد، ففعل علي وأسلم، ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب، وكتم على إسلامه، وكان مما أنعم الله به عليه أنه كان في حجر رسول الله ﷺ وعمره إذ ذاك عشر سنين.

وكان النبي ﷺ إذا أراد الصلاة انطلق هو وعلي بن أبي طالب إلى بعض الشعاب بمكة يصليان، ويعودان، فعثر عليهما أبو طالب فقال: يا ابن أخي ما هذا الدين؟ قال: دين الله وملائكته ورسله، ودين أبينا إبراهيم بعثني الله به إلى العباد، وأنت أحق من دعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني، قال: لا أستطيع أن أفارق ديني ودين آبائي، ولكن والله لا تخلص قريش إليك بشيء تكرهه ما حييت. وقال لعلي: ما هذا الدين الذي أنت عليه؟ قال: يا أبتي آمنت بالله وبرسوله، وصليت معه، فقال: إنه لا يدعوك إلا إلى الخير، فالزمه، ثم توالت الاتصالات الفردية من فرد إلى فرد، مأخوذ فيها بعين الاعتبار الأقرب فالأقرب، ثم الأصلح فالأصلح، فكان أن أسلم الصديق الحنين الذي امتاز بأن كان إسلامه بغير كبوة.

إسلام أبي بكر الصديق > : لما عرض رسول الله ﷺ الإسلام على أبي بكر قال له: ((يا أبا بكر إني رسول الله ونبيه بعثني لأبلغ رسالته، وأدعوك إلى الله بالحق، فوالله إنه للحق أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة على طاعة أهل طاعته، وقرأ عليه القرآن، فلم يفر ولم يُنكر، فأسلم، وكفر بالأصنام، وخلع الأنداد، وأقر بحق الإسلام، ورجع وهو مؤمن مصدق، وأظهر إسلامه)).

وفي ذلك قال ﷺ ((ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر ما تردد فيه))، وقال أيضًا ﷺ: ((إن الله بعثني إليكم فقلتم كذبت، وقال أبو بكر: صدق)).

وقد اختلف في أول من أسلم من الصحابة، فقيل خديجة، وقيل أبو بكر، وقيل علي، وقيل غير ذلك، والجمع بين الأقوال إن أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن الصبيان علي، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة،

ومن العبيد بلال، قلت: وهو جمع حسن؛ لأن سابقة خديجة ثابتة في الصحيحين، وغيرهما في حديث بدء الوحي، وعلي كان في حجر رسول الله ﷺ، وقد سبق الحديث عن إسلامه، وقد دعا إلى الله ﷻ من يثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم علي، فأسلم على يديه جماعة لما له من المكانة لدى قومه، منهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وهؤلاء هم الدفعة الأولى.

قال ابن إسحاق: "فانطلقوا -أي: هؤلاء النفر- حتى أتوا رسول الله ﷺ ومعهم أبو بكر }، فعرض النبي ﷺ عليهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، وأنباهم بحق الإسلام، وبما وعدهم الله من كرامة فآمنوا، وأصبحوا مقرين بحق الإسلام".

وقد كلَّف رسول الله ﷺ من أسلم تبليغ من لم يسلم باعتبار الأقرب فالأقرب، وبهذه الطريقة تكاثرت الجماعة المسلمة، وتغلغل الإيمان في نفوسهم حتى تكونت منهم القاعدة الصلبة اللازمة للبناء.

تحديد الهدف:

سبق وأن ذكرنا ما عرضه النبي ﷺ على أبي بكر وعلي من الغاية التي أُرسل من أجلها، وتأكيدًا لذلك نسجل ما عرضه ﷺ على عمرو بن عبسة، وخالد بن سعيد بن العاص، وغيرهما، فإن عمرو بن عبسة لما دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام قال: بما أرسلك ربك؟ قال: ((بأن تعبد الله وحده لا شريك له، وتكسر الأصنام، وتوصل الأرحام، فأسلم))، فقال للنبي ﷺ: فأتبعك يا رسول الله؟ قال: ((لا، ولكن الحق بأهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فائتني)).

وقال ﷺ لخالد بن سعيد بن العاص حينما سأله إلى ما تدعو قال: ((أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع، ولا يبصر، ولا يضر، ولا ينفع، ولا يدري من عبده ممن لا يعبده، قال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله)).

وكان قد رأى في النوم أنه وقف على شفير النار، وأن آتيًا أتاه يدفعه فيها، ويرى رسول الله ﷺ آخذًا بحقويه حتى لا يقع، ففزع من نومه، فقال: أحلف بالله أن هذه الرؤيا حق، فكانت النتيجة ما ذُكر في إسلامه، وقال ﷺ لقريش أثناء المفاوضة ((كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم، تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه)).

فأما الفطر السليمة إذا اتضح لها السبيل المستقيم تسلكه عن إيمان واقتناع، لا تعبأ لأي مخالف، فلما أسلم سعد بن أبي وقاص، وكان بارًّا بأمه قالت له: "والله لا أكلت طعامًا ولا شربت شرابًا حتى تكفر بما جاء به محمد، وبعد يوم وليلة، وكادت أن تموت جوعًا وعطشًا، قال لها سعد: تعلمين يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفسًا نفسًا ما تركت دين هذا النبي، فكلي إن شئت أو لا تأكلين، فلما رأت ذلك أكلت".

وفي رواية مسلم "مكثت ثلاثًا حتى أغشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى﴾ [العنكبوت: ٨]، وفي سورة لقمان: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

وكذلك فعلت لما أسلم ابنها عامر أو عمارة، فقال لها سعد: بما سبق وزاد حتى تتبوئي مقعدك من النار".

وأما الفطر المنتكسة، فإنها تهرب من الحق وتلتوي عنه، إن أول مدرسة في الإسلام كانت بيت رسول الله ﷺ، وسبق أن ذكرنا إسلام خديجة > ، وعلي، وأبي بكر وغيرهم } ، وكلهم تلقوا الإسلام في بيت رسول الله ﷺ.

وها نحن الآن مع صهيب الرومي، وعمار بن ياسر اليمني، وقد مر صهيب ببيت رسول الله ﷺ فرأى عمار بن ياسر، فقال له عمار: أين تريد يا صهيب؟ قال: أريد أن أدخل إلى بيت محمد ﷺ، فأسمع كلامه وما يدعو إليه، قال عمار: وأنا أريد ذلك، فدخلا على رسول الله ﷺ، فأمرهما بالجلوس، فجلس وعرض عليهما الإسلام، وتلا عليهما ما حفظه من القرآن فتشهدا، ثم مكثا عنده يومهما ذلك حتى إذا أمسيا خرجا مستخفيين، فدخل عمار على أبيه وأمه، فسألاه أين كان، فأخبرهما بإسلامه وعرض عليهما الإسلام، وقرأ عليهما ما حفظ من القرآن في يومه ذلك، فأعجبهما فأسلما على يديه فكان رسول الله ﷺ يسميه الطيب المطيب.

صور أخرى للدعوة الفردية

صور أخرى للدعوة الفردية:

الصورة الأولى: دعوة النبي ﷺ الحصين والد عمران، أورد ابن حجر في (الإصابة) قصة إسلام الحصين هذا، فقال: أخرج ابن خزيمة عن عمران بن خالد بن طليق بن محمد بن عمران بن الحصين قال: حدثنا أبي عن أبيه عن جده أن قريشًا جاءت إلى الحصين، وكانت تعظمه، فقالوا له: كلم لنا هذا الرجل، فإنه يذكر آلهتنا، ويسبهم، فجاءوا معه حتى جلسوا قريبًا من باب النبي ﷺ، فقال:

أوسعوا للشيخ وعمران وأصحابه متوافرون، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم، وقد كان أبوك حصينة وخيرًا، قوله حصينة يعني: عاقلًا متحصنًا بدين آبائه وأجداده، ومعتقداتهم.

فقال: ((يا حصين إن أبي وأباك في النار، يا حصين كم تعبد من إله؟ قال: سبعًا في الأرض وواحدًا في السماء، قال: فإذا أصابك الضر من تدعو؟ قال: الذي في السماء. قال: فإذا هلك المال من تدعو؟ قال: الذي في السماء، قال: فيستجيب لك وحده وتشركهم معه، أرضيته في الشكر أم تخاف أن يغلب عليك، قال: ولا واحدة من هاتين، قال: وعلمت أني لم أكلم مثله، قال: يا حصين أسلم تسلم، قال: إن لي قومًا وعشيرة، فماذا أقول؟ قال: قل اللهم أستهديك لأرشد أمري، وزدني علمًا ينفعني، فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم، فقام إليه عمران، فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي -صلى الله عليه سلم- بكى وقال: بكيت من صنيع عمران دخل حصين وهو كافر، فلم يقم إليه عمران، ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلما قضى حقه، فدخلني من ذلك الرقة))

فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: قوموا فشيعوه إلى منزله، فلما خرج من سُدة الباب رأته قريش، فقالوا: صبأ، وتفرقوا عنه.

ولعل الذي حدا بالحصين والد عمران أن يسلم بهذه السرعة سلامة فطرته، وحسن استعداده من ناحية، وقوة حجة الرسول ﷺ وسلامة منطقه من ناحية أخرى، وهكذا منهج الدعوة عرض، وأخذ، وعطاء، وإقناع بالبراهين الواضحة المطابقة للواقع: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

الصورة الثانية: دعوة النبي ﷺ عدي بن حاتم، عن عدي بن حاتم قال: ((جاءت خيل رسول الله ﷺ وأنا بعقرب، وهو منزل من أرض اليمامة، فأخذوا

عمتي وناسًا، فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ فصفُّوا له قالت: يا رسول الله بان الوافد، وانقطع الولد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمُنَّ علي، منَّ الله عليك، فقال: ومن وافدك؟ قالت: عدي بن حاتم. قال: الذي فر من الله ورسوله. قالت: فَمُن عليَّ، فلما رجع ورجل إلى جنبه نرى أنه علي قال: سليه حملانًا، قال: فسألته فأمر لها، قال عدي: فأتتني فقالت: لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها، وقالت: ائته راغبًا أو راهبًا، فقد أتاه فلان فأصاب منه، وأتاه فلان فأصاب منه، قال: فأتيته فإذا عنده امرأة وصبيان، أو صبي، فذكر قربهم منه، فعرفت أنه ليس ملك كسرى ولا قيصر، فقال: له يا عدي بن حاتم ما أفرك، أفرك أن يقال: لا إله إلا الله فهل من إله إلا الله، ما أفرك؟ أفرك أن يقال: الله أكبر، فهل شيء هو أكبر من الله ﷻ، قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر، وقال: إن المغضوب عليهم اليهود، وإن الضالين النصارى)).

وفي رواية أخرى أنه قال: ((لما بلغني خروج رسول الله ﷺ، وكرهت خروجه كراهية شديدة، فخرجت حتى وقعت ناحية الروم. -وفي رواية-: حتى قدمت على قيصر قال: فكرهت مكاني ذلك أشد من كراهتي لخروجه، قال: قلت: والله لولا أتيت هذا الرجل، فإن كان كاذبًا لم يضرني، وإن كان صادقًا علمت قال: فقدمت فأتيته، فلما قدمت قال: الناس عدي بن حاتم، عدي بن حاتم، فخلت على رسول الله ﷺ فقال لي: يا عدي بن حاتم أسلم تسلم ثلاثًا، قال: قلت: إني على دين، قال: أنا أعلم بدينك منك، فقلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم ألست من الركوسية، وأنت تأكل مرباع قومك، قال: قلت: بلى. قال: هذا لا يحل لك في دينك، قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها، فقال: أما إني أعلم الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضَعَفَة الناس، ومن لا قوة لهم، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟ فقلت: لم أرها وقد

سمعت بها، قال: فو الذي نفسي بيده ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز، قال: قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد)).

قال عدي بن حاتم: "فهذه الظعينة تأتي من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها" ولعل الذي حدا بعدي بن حاتم أن يدخل في الإسلام بهذه الصورة المشرقة سلامة فطرته، ونضج فكره من ناحية، وقوة حجة الرسول ﷺ، واهتدائه إلى الطريق التي دخل منها إلى عقل وقلب عدي بن حاتم > من ناحية أخرى.

الصورة الثالثة: دعوة النبي ﷺ الطفيل بن عمرو الدوسي، ذكر ابن إسحاق فقال: كان رسول الله ﷺ على ما يرى من قومه يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرونه الناس، ومن قدم عليهم من العرب، وكان طفيل بن عمرو الدوسي يُحدث أنه قدم مكة، ورسول الله ﷺ بها فمشى إليه رجال من قريش، فكان الطفيل رجلًا شريفًا شاعرًا لبيبًا، فقالوا له: "يا طفيل إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا؛ فرق جماعتنا، وإنما قوله كالسحر يُفرق بين المرء وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنما يُخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمه، ولا تسمع منه.

قال: فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت على ألَّا أسمع منه شيئًا، ولا أكلمه حتى حشوت أذني حين غدوت إلى المسجد قرفصًا أي: قطنًا ؛ فرقًا من أن يبلغني من

قوله، وأنا لا أريد أن أسمعه قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة قال: فقمت قريبًا منه، فأبي الله إلا أن يسمعني بعض قوله، قال: فسمعت كلامًا حسنًا قال: فقلت في نفسي: وثكل أمي، إني لرجل لبيب شاعر ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسنًا قبلته، وإن كان قبيحًا تركته، فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه، فقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي: كذا وكذا، ما الذي قالوا لي. فو الله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بقرفص؛ لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعنيه، فسمعت قولًا حسنًا، فأعرض علي أمرك، فعرض علي الإسلام، وتلا علي القرآن، قال: فو الله ما سمعت قولًا قط أحسن، ولا أمرًا أعدل منه قال: فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عونًا عليهم فيما أدعوهم إليه قال: فقال: ((اللهم اجعل له آية)).

الصورة الرابعة: دعوة معاذ بن جبل وآخرين من بني سلمة عمرو بن الجموح:

ذكر ابن إسحاق فقال: لما قدم الأنصار المدينة بعدما بايعوا رسول الله ﷺ ظهر الإسلام بها، وفي قومهم بقايا على دينهم من أهل الشرك، منهم عمرو بن الجموح، وكان ابنه معاذ قد شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان عمرو بن الجموح قد اتخذ في داره صنمًا من خشب يقال له مناة، كما كانت الأشراف يصنعون يتخذه إلهًا، ويطهره، فلما أسلم فتيان بني سلمة: معاذ بن جبل، ومعاذ بن عمرو بن الجموح في فتيان منهم، ممن أسلم، وشهد العقبة، وكانوا يدلجون بالليل على صنم عمرو ذلك، فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة، وفيها عظم الناس، منكسًا على رأسه، فإذا أصبح عمرو قال: ويلكم

من عدا على إلهنا في هذه الليلة قال: ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله وطهره وطيبه، ثم قال: وأيم الله لو أني اعلم من صنع بك هذا لأخزيته، فإذا أمسى عمرو ونام عدوا عليه، ففعل به مثل ذلك، فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث ألقوه يومًا فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يفعل بك ما ترى، فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك، فلما أمسى ونام عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلبًا ميتًا فقرنوه معه بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة، فيها عزرة من عزر الناس، وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده مكانه الذي كان فيه، فخرج في طلبه حتى وجده في تلك البئر منكسًا مقرونًا بكلب ميت، فلما رآه وأبصر شأنه، وكلمه من أسلم من قومه أسلم يرحمه الله، وحسن إسلامه.

الصورة الخامسة: دعوة النبي ﷺ ضمادًا >: يروي ابن عباس { فيقول: قدم ضماد مكة، وهو رجل من أزد شنوءة، وكان يرقي من هذه الرياح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنون، فقال: أين هذا الرجل، لعل الله أن يشفيه على يديه، فلقيت، فقلت: محمدًا فقلت: إني أرقى من هذه الرياح، وإن الله يشفي على يدي من شاء فهلم، فقال محمد ﷺ: ((إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له)) ثلاث مرات، فقال: والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، فهلم يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه رسول الله ﷺ فقال له: ((وعلى قومك)) فقال: وعلى قومي.

فبعث النبي ﷺ جيشًا فمروا بقوم ضماد، فقال صاحب الجيش للسرية: "هل أصبتم من هؤلاء القوم شيئًا، فقال رجل منهم: أصبت منهم مطهرة، فقال:

ردها عليهم، فإنهم قوم ضماد" وفي رواية فقال له ضماد: أعد علي كلماتك هؤلاء فلقد بلغنا قاموس البحر، وهذا كناية عن غاية بلاغة النبي ﷺ. ولعل السبب في إسلام ضماد بهذه السرعة صفاء فطرته، وسلامة عقله من ناحية، وحكمة النبي ﷺ في دعوته، وحسن تخيره الكلمات التي أسمعه إياها من ناحية أخرى.

من مواقف الحكمة الفردية

مواقف الحكمة الفردية:

كان النبي ﷺ أحكم خلق الله، فقد كان يتألف الناس؛ ليدخلوا في الإسلام، ويصبر على أذاهم، ويعفو عن إساءتهم، ويقابلها بالإحسان، وله ﷺ مواقف في الكرم والجود، والعفو، والحلم، والرفق، والعدل تظهر في النقاط الآتية:

أولًا: موقفه ﷺ مع ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة < أنه قال: ((بعث رسول الله ﷺ خيلًا قبل نجد، فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثمامة بن أثال، سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي يا محمد خير إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان بعد الغد، فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت، فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد فقال: ماذا عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت،

فقال رسول الله ﷺ: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد كلها إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر)) فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ فقال: لا والله، ولكني أسلمت مع رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ، ثم خرج > إلى اليمامة، فمنعهم أن يحملوا إلى مكة شيئًا، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ إنك تأمر بصلة الرحم، وإنك قد قطعت أرحامنا، وقد قتلت الآباء بالسيف، والأبناء بالجوع؛ فكتب رسول الله ﷺ إلى ثمامة أن يخلي بينهم وبين الحمل".

وذكر ابن حجر أن ابن مندة روى بإسناده عن ابن عباس قصة إسلام ثمامة ورجوعه إلى اليمامة، ومنعه عن قريش الميرة، ونزول قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، ثم ثبت ثمامة على إسلامه لما ارتد أهل اليمامة، وارتحل هو ومن أطاعه من قومه، فلحقوا بالعلاء بن الحضرمي، فقاتل مع المرتدين من أهل البحرين.

الله أكبر ما أحكم النبي ﷺ وما أعظمه من موقف، فقد كان ﷺ يتألف القلوب، ويلاطف من يرجى إسلامه من الأشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير.

وهكذا ينبغي للدعاة إلى الله ﷻ أن يعظموا أمر العفو عن المسيء؛ لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حبًّا في ساعة واحدة، لما أسداه النبي ﷺ من العفو والمن بغير مقابل، وقد ظهر لهذا العفو الأثر الكبير في حياة ثمامة، وفي ثباته على الإسلام ودعوته إليه.

ثانيًا: موقفه ﷺ من الأعرابي الذي أراد قتله: روى البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله { : "غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر قال: فقال رسول الله ﷺ: ((إن رجلًا أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف، فاستيقظت، وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف مسلطًا في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال: قلت الله)). قال: فشام السيف، فها هو ذا جالس ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ.

الله أكبر ما أعظم هذا الخلق، وما أكبر أثره في النفوس، أعرابي يريد قتل النبي ﷺ، ثم يعصمه الله منه، ويمكنه من القدرة على قتله، ثم يعفو عنه، إن هذا لخلق عظيم، وصدق الله العظيم إذ يقول للنبي -صلى الله عليه سلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، وهذا الخلق الحكيم قد أثر في حياة الرجل، وأسلم بعد ذلك، فاهتدى به خلق كثير.

ثالثًا: موقفه ﷺ من اليهودي زيد بن سعلة أحد أحبار اليهود: كان النبي ﷺ يعفو عند المقدرة، ويحلم عند الغضب، ويحسن إلى المسيء، وقد كانت هذه الأخلاق العالية من أعظم الأسباب في إجابة دعوته والإيمان به، واجتماع القلوب عليه، ومن ذلك ما فعله مع زيد بن سعلة أحد أحبار اليهود، وعلمائهم الكبار.

جاء زيد بن سعلة إلى رسول الله ﷺ يطلبه دينًا له عليه، فأخذ بمجامع قميصه وردائه، وجذبه وأغلظ له القول، ونظر إلى النبي ﷺ بوجه غليظ، وقال: يا محمد ألا تقضيني حقي، إنكم يا بني عبد المطلب قوم مطل، وشدَّد له في القول،

فنظر إليه عمر وعيناه تدوران في رأسه كالفلك المستدير، ثم قال: يا عدو الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل ما أرى، فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه؛ لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون، وتؤدة وتبسم، ثم قال: ((أنا وهو يا عمر كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التقاضي، اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعًا من تمر))؛ فكان هذا سببًا لإسلامه فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وكان زيد قبل هذه القصة يقول: لم يبقَ شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ، إلا اثنتين لم أخبرهما منه، يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فاختبره بهذه الحادثة، فوجده كما وصف، فأسلم، وآمن، وصدق، وشهد مع النبي ﷺ مشاهده، واستشهد في غزوة تبوك مقبلًا غير مدبر، فقد أقام رسول الله ﷺ براهين عديدة من أخلاقه على صدقه، وأن ما يدعو إليه حق.

المنهج الفردي (٣)

عناصر الدرس

العنصر الأول :	استكمال مواقف الحكمة الفردية	٣١٩
العنصر الثاني :	كيفية الاستفادة من المنهج الفردي في مجال الدعوة الإسلامية	٣٢٨

استكمال مواقف الحكمة الفردية

رابعًا: موقفه ﷺ من الأعرابي الذي بال في المسجد، عن أنس بن مالك > قال: ((بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال: أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، قال: فقال: رسول الله ﷺ: دعوه فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر، إنما هي لذكر الله والصلاة، وقراءة القرآن، قال: فأمر رجلًا من القوم، فجاء بدلو من ماء فشنه عليه)).

وقد ثبت في البخاري وغيره أن هذا الرجل هو الذي قال: ((اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا))، فعن أبي هريرة > قال: "قام رسول الله ﷺ في صلاة وقمنا معه، فقال: أعرابي وهو في الصلاة: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا، فلما سلَّم النبي ﷺ قال: للأعرابي: ((لقد حجرت واسعًا))، يريد رحمة الله.

وتفسر هذه الرواية الروايات الأخرى عند غير البخاري، فعن أبي هريرة > قال: دخل رجل أعرابي المسجد، فصلى ركعتين ثم قال: اللهم ارحمني ومحمدًا، ولا ترحم معنا أحدًا، فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: ((لقد تحجرت واسعًا))، ثم لم يلبث أن بال في المسجد، فأسرع الناس إليه، فقال: لهم رسول الله ﷺ: ((إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين، أهرقوا عليه دلوًا من ماء، أو سجلًا من ماء))، قال: يقول الأعرابي بعد أن فقه: فقام النبي ﷺ إليه بأبي وأمي، فلم يسب، ولم يؤنب، ولم يضرب، النبي ﷺ أحكم خلق الله، فمواقفه وتصرفاته كلها مواقف حكمة مشرفة.

ومن وقف على أخلاقه ورفقه وعفوه وحلمه، ازداد يقينه وإيمانه بذلك، وهذا الأعرابي قد عمل أعمالًا تثير الغضب، وتسبب عقوبته وتأديبه من الحاضرين؛ ولذلك قام الصحابة إليه، واستنكروا أمره، وزجروه فنهاهم النبي ﷺ أن يقطعوا عليه بوله، وهذا في غاية الرفق والحلم والرحمة، ويجمع ذلك كله الحكمة، فقد أنكر النبي ﷺ بالحكمة على هذا الأعرابي عمله، فقال: له حينما قال: "اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا": ((لقد حجرت واسعًا)).

يريد ﷺ رحمة الله، فإن رحمة الله قد وسعت كل شيء، قال: ﷻ: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فقد بخل هذا الأعرابي برحمة الله على خلقه، وقد أثنى ﷻ على من فعل خلاف ذلك حيث قال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠]، وهذا الأعرابي قد دعا بخلاف ذلك، فأنكر عليه النبي ﷺ بالحكمة، وحينما بال في المسجد أمر النبي ﷺ بتركه؛ لأنه قد شرع في المفسدة، فلو مُنع ذلك لزادت المفسدة، وقد حصل تلويث جزء من المسجد، فلو منعه ﷺ بعد ذلك لدار بين أمرين:

الأمر الأول: إما أن يقطع عليه بوله فيتضرر الأعرابي بحبس البول بعد خروجه.

الأمر الثاني: وإما أن يقطعه فلا يأمن من تنجيس بدنه، أو ثوبه، أو مواضع أخرى من المسجد، فأمر النبي ﷺ بالكفِّ عنه للمصلحة الراجحة، وهي دفع أعظم المفسدتين أو الضررين باحتمال أيسرهما، وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما.

وهذا من أعظم الحكم العالية، فقد راعى النبي ﷺ هذه المصالح، وما يقابلها من المفاسد، ورسم ﷺ لأمته والدعاة من بعده كيفية الرفق بالجاهل، وتعليمه، وما

يلزمه من غير تعنيف، ولا سب ولا إيذاء ولا تشديد، إذا لم يكن ذلك منه عنادًا، ولا استخفافًا، ولقد كان لهذا الاستئلاف والرحمة، والرفق الأثر الكبير في حياة هذا الأعرابي وغيره، وقد قال: بعد أن فقه كما تقدم في رواية الإمام أحمد، فقام النبي ﷺ إليَّ بأبي وأمي فلم يسب، ولم يؤنب، ولم يضرب، فقد أثر هذا الخلق العظيم في حياة الرجل.

خامسًا: موقفه ﷺ مع معاوية بن الحكم: عن معاوية بن الحكم السلمي > قال: "بينما أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: واثكل أماه، ما شأنكم تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت، فلما صلى رسول الله ﷺ فأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما قهرني، ولا ضربني، ولا شتمني قال: ((إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير، وقراءة القرآن))، أو كما قال: رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالًا يأتون الكهان، قال: ((فلا تأتهم))، قال: ومنا رجال يتطيرون، قال: ((ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم))، قال ابن الصلاح: فلا يصدنكم، قال: قلت: ومنا رجال يخطون قال: ((كان نبي من الأنبياء يخط، فمن وافق خطه فذاك))، قال: وكانت لي جارية ترعى غنمًا لي قبل أُحد والجوانية، فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك علي، قلت: يا رسول الله أفلا أعتقها، قال: ((ائتني بها، فأتيته بها فقال لها: أين الله؟ قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله، قال: أعتقها فإنها مؤمنة)).

وهذا الموقف من أعظم الحكم البارزة السامية التي أوتيها النبي ﷺ، وقد ظهر أثر ذلك في حياة ونفس معاوية > ؛ لأن النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، ولهذا قال معاوية > : ما رأيت معلمًا قبله، ولا بعده أحسن تعليمًا منه.

سادسًا: موقفه ﷺ مع الشاب الذي استأذنه في الزنا، عن أبي أمامة > قال: إن فتًى شابًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مه مه، فقال له: ((ادنه ادنه، فدنا منه قريبًا، قال: أتحبه لأمك؟ قال: لا. والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم، قال: أتحبه لابنتك؟ قال: لا والله يا رسول الله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم، قال: أفتحبه لأختك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم، قال: أتحبه لعمتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لعماتهم، قال: أفتحبه لخالتك؟ قال: لا والله جعلني الله فداءك، قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم، قال: فوضع يده عليَّ، وقال: اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه، فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء)).

وهذا الموقف الحكيم العظيم مما يؤكد على الدعاة إلى الله ﷻ أن يعتنوا بالرفق والإحسان إلى الناس، ولا سيما من يُرغِّب في استئلافهم؛ ليدخلوا في الإسلام، أو ليزيد إيمانهم، ويثبتوا على إسلامهم.

وكما بيّن لنا الرسول ﷺ الرفق بفعله بيّنه لنا بقوله، وأمرنا بالرفق في الأمر كله، فعن عائشة > قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال: رسول الله ﷺ: ((مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله، فقلت: يا رسول الله أولم تسمع ما قالوا، قال: رسول الله ﷺ قد قلت:

وعليكم، وقال ﷺ: يا عائشة إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه)).

وقال ﷺ: ((إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه))، وبين ﷺ أن من حُرم الرفق فقد حرم الخير، قال ﷺ: ((من يُحرم الرفق يحرم الخير)).

وعن أبي الدرداء > عن النبي ﷺ قال: ((من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من الخير، ومن حُرم حظه من الرفق فقد حُرم حظه من الخير))، وعنه > يبلغ به قال: ((من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الخير، وليس شيء أثقل في الميزان من الخلق الحسن)).

وعن عائشة > أن النبي ﷺ قال لها: ((إنه من يعطى حظه من الرفق، فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة، وصلة الرحم، وحسن الخلق، وحسن الجوار يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار)).

فقد عظَّم النبي ﷺ شأن الرفق في الأمور كلها، وبيَّن ذلك بفعله وقوله بيانًا شافيًا كافيًا، لكي تعمل أمته بالرفق في أمورها كلها، وخاصة الدعاة إلى الله ﷻ، فإنهم أولى الناس بالرفق في دعوتهم، وفي جميع تصرفاتهم وأحوالهم.

وهذه الأحاديث السابقة تبين فضل الرفق والحث على التخلق به، وبغيره من الأخلاق الحسنة، وذم العنف، وذم من تخلق به، وقد حذَّر النبي ﷺ من العنف وعن التشديد على أمته ﷺ، فعن عائشة > قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: ((اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم، فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم، فارفق به))، وكان ﷺ إذا أرسل أحدًا من أصحابه في بعض أموره أمرهم بالتيسير ونهاهم عن التنفير.

فعن أبي موسى > قال: "كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أموره قال: ((بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا))، وقال ﷺ لأبي موسى الأشعري ومعاذ { حينما بعثهما إلى اليمن: ((يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا))، وعن أنس بن مالك > قال: قال رسول الله ﷺ: ((يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا)).

في هذه الأحاديث الأمر بالتيسير والنهي عن التنفير، وقد جمع النبي ﷺ في هذه الألفاظ بين الشيء وضده؛ لأن الإنسان قد يفعل التيسير في وقت والتعسير في وقت، ويبشر في وقت وينفر في وقت آخر، فلو اقتصر على ((يسروا)) لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات، وعسر في معظم الحالات، فإذا قال: ((ولا تعسروا)) انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب.

وكذا يُقال في ((يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا))؛ لأنهما قد يتطاوعان في وقت ويختلفان في وقت، وقد يتطاوعان في شيء، ويختلفان في شيء.

والنبي ﷺ قد حثّ في هذه الأحاديث وفي غيرها على التبشير بفضل الله وعظيم ثوابه، وجزيل عطائه، وسعة رحمته، ونهى عن التنفير بذكر التخويف، وأنواع الوعيد محضًا، من غير ضمها إلى التبشير.

وهذا فيه تأليف لمن قرب إسلامه وترك التشديد عليه، وكذلك ممن قارب البلوغ من الصبيان، ومن بلغ، ومن تاب من المعاصي كلهم ينبغي أن يُتدرج معهم، ويتلطف بهم في أنواع الطاعات قليلًا قليلًا، وقد كانت أمور الإسلام في التكليف على التدريج، فمتى يُسر على الداخل في الطاعة أو المريد للدخول فيها، سهلت

عليه وكانت عاقبته غالبًا الازدياد منها، ومتى عسرت عليه أوشك ألا يدخل فيها، وإن دخل أوشك ألا يدوم.

وهكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج؛ ولهذا كان النبي ﷺ يتخول أصحابه بالموعظة في الأيام؛ كراهة السآمة عليهم، فصلوات الله وسلامه عليه، فقد دلَّ أمته على كل خير، وحذرهم من كل شر، ودعا على من شق على أمته، ودعا لمن رفق بهم كما تقدم في حديث عائشة، وهذا من أبلغ الزواجر عن المشقة على الناس، وأعظم الحس على الرفق بهم.

سابعًا: موقفه ﷺ مع من شفع في ترك إقامة الحد: قد كان النبي ﷺ أعدل البشر في جميع أموره وأحكامه، ومما يُضرب به المثل في عدله إلى يوم القيامة قصة المخزومية التي سرقت، فقطع يدها بعد أن شفع فيها أسامة، ولكن الرسول ﷺ لم يحابِ في ذلك، ولم يقبل الشفاعة في حد من حدود الله تعالى، فعن عائشة > أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ، فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ، فأتي بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ، فقال: ((أتشفع في حد من حدود الله))، فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ فاختطب، فأثنى على الله بما هو أهله، فقال: ((أما بعد: أيها الناس إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها، قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتيني فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ.

إما العدل خلاف الجور، وقد أمر الله ﻷ به في القول والحكم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، ولا شك أن هذا الموقف الحكيم وغيره من مواقفه ﷺ مما يوجب على الدعاة تطبيقها أسوة به ﷺ.

ثامنًا: موقفه ﷺ الحكيم في الكرم والجود: عن أنس > قال: ((ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة))، وهذا الموقف الحكيم العظيم يدل على عظم سخاء النبي ﷺ وغزارة جوده، وكان ﷺ يعطي العطاء؛ ابتغاء مرضاة الله ﻷ وترغيبًا للناس في الإسلام، وتأليفًا لقلوبهم، وقد يظهر الرجل إسلامه أولًا للدنيا، ثم بفضل الله تعالى، ثم بفضل النبي ﷺ ونور الإسلام لا يلبث إلا قليلًا حتى ينشرح صدره للإسلام بحقيقة الإيمان، ويتمكن من قلبه؛ فيكون حينئذٍ أحب إليه من الدنيا وما فيها، ولهذا شواهد كثيرة:

منها ما رواه مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ غزا غزوة الفتح، فتح مكة، ثم خرج ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحنين، فنصر الله دينه والمسلمين، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائة من الغنم، ثم مائة ثم مائة، قال صفوان: "والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي، قال أنس > : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا، وما عليها، وإذا رأى ﷺ الرجل ضعيف الإيمان، فقد كان ﷺ يجزل له العطاء، قال ﷺ: ((إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه؛ خشية أن يكبَّ في النار على وجهه))، ولذلك كان ﷺ يعطي رجالًا من قريش المائة من الإبل.

ومن مواقفه الحكيمة العظيمة في ذلك ما فعله ﷺ مع المرأة المشركة صاحبة المزادتين، فإنه ﷺ بعد أن أسقى أصحابه من مزادتيها، فرجعت المزادتان أشد ملاءة منها حين ابتدئ فيها، قال لأصحابه: ((أجمعوا لها، فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة، حتى جمعوا لها طعامًا كثيرًا فجعلوه في ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها، فقال لها: اذهبي فأطعمي هذا عيالك، تعلمين والله ما رزقناك من مائك شيئًا، ولكن الله هو الذي أسقانا)).

وفي القصة أنها رجعت إلى قومها، فقالت: لقيت أسحر الناس، أو هو نبي كما زعموا؟ فهدى الله ذلك الصرم، والصرم: أبيات مجتمعة من الناس بتلك المرأة، فأسلمت، وأسلموا.

وفي رواية: "فكان المسلمون بعد ذلك يغيرون على من حولها من المشركين، ولا يصيبون الصرم الذي هي منه، فقالت يومًا لقومها: ما أرى أن هؤلاء القوم يدعونكم عمدًا، فهل لكم في الإسلام، فأطاعوها فدخلوا في الإسلام".

فقد كان سبب إسلام هذه المرأة أمران:

الأمر الأول: ما رأته من أخذ النبي ﷺ وأصحابه من مزادتيها، ولم ينقص ذلك من مائها شيئًا، وهذا من معجزات النبي ﷺ التي تدل على صدق رسالته.

الأمر الثاني: كرم النبي ﷺ حينما أمر أصحابه أن يجمعوا لها، فجمعوا لها طعامًا كثيرًا، أما قومها فقد أسلموا على يديها؛ لأن المسلمين ساروا يراعون قومها بإقرار النبي ﷺ على سبيل الاستئلاف لهم، حتى كان ذلك سببًا لإسلامهم.

وهذه الأمثلة التي سقتها ما هي إلا قطرة من بحر من كرم النبي ﷺ، فما أحوجنا، وما أولى جميع الدعاة إلى الله ﷻ إلى الاقتداء بالنبي ﷺ، والاقتباس من نوره، وهديه في دعوته، وفي أموره كلها.

كيفية الاستفادة من المنهج الفردي في مجال الدعوة الإسلامية

كيفية الاستفادة من المنهج الفردي في مجال الدعوة الإسلامية:

أولًا: التخطيط والتنظيم: بعض الدعاة إلى الله ممن عندهم نشاط في المواعظ والخطب، يبذلون جهودًا كبيرة، ولكن هذه الجهود في الغالب لا تثمر، وذلك لفقدان التخطيط والتنظيم، فالواجب على الداعية أن يركز على الأفراد الأكثر قابلية للدعوة، وخاصة الذين يُرجى من وراء دعوتهم نصرة دين الله ﷻ، وللداعية أسوة في رسول الله ﷺ حيث أنه ﷺ لم ينتهِ فترة الدعوة السرية في مكة إلا وقد دخلت الدعوة إلى كل القبائل المشهورة في مكة، فأسلم من كل عشيرة بعض أفرادها.

إن الدعوة تحتاج إلى بعض الأفراد الذين لديهم القدرة على القيادة والتخطيط، فيجب على الداعية أن يعمل جاهدًا على كسب هؤلاء الأفراد؛ لكي تستفيد منهم الدعوة، ولهذا كان رسول الله ﷺ حريصًا على إسلام عمر بن الخطاب، وكان يدعو الله أن يعزَّ الإسلام بأحد العمرين، حتى قال ابن مسعود > فيما رواه عنه البخاري: "ما زلنا أعزة من أسلم عمر" إلا أنه لا ينبغي ترك الأفراد المحبين للدعوة، والملتفين حولها، والإعراض عنهم بهذه الحجة، بل يجب إعطاؤهم نصيبهم من الدعوة".

ثانيًا: كذلك لا بد من التعرف على الصفات الشخصية للأفراد: "يجب على الداعية أن يتعرف على صفات المدعوين؛ إذ أن لكل فرد منهم صفات حسنة، وصفات سيئة، وتختلف هذه الصفات من فرد إلى آخر"، فالداعية الناجح هو الذي يستطيع أن يحول هذه الصفات إلى صفات خير تخدم الدعوة إلى الله، فمثلًا هناك من الناس من عنده قوة الإقناع قبل أن يهديه الله، أن يكون من دعاة الأحزاب الهدامة، فيمكن ثقل هذه الموهبة بعد هدايته، فيصير هذا الفرد من الدعاة المبرزين، ولهذا يقول نبينا ﷺ: ((الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)).

والأمثلة لهذا الجانب كثيرة، منها على سبيل المثال أن عمر بن الخطاب > كان يتصف قبل إسلامه بالشجاعة، فلما أسلم > استفاد المسلمون من شجاعته حتى أنهم خرجوا، وأعلنوا تحديهم للمشركين.

ثالثًا: البدء بالأقربين: إن لنا في نبينا ﷺ الأسوة الحسنة، حيث أمره ربه -تبارك وتعالى- أن ينذر عشيرته الأقربين، فقال سبحانه: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وفي حديث عائشة > أنها قالت: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ قام رسول الله ﷺ فقال: ((يا فاطمة بنت محمد، يا صفية بنت عبد المطلب، يا بني عبد المطلب لا أملك لكم من الله شيئًا، سلوني من مالي ما شئتم))، وذكر صاحب (أسد الغابة) أنه لما أسلم الطفيل بن عمرو الطوسي > قال لرسول الله ﷺ: "إني امرؤ مطاع في قومي، وأنا راجع إليهم، وأدعوهم إلى الإسلام، فلما رجع إلى قومه دعا أباه إلى الإسلام فأسلم، ثم دعا امرأته إلى الإسلام فأسلمت"، والأمثلة لهذا كثيرة.

فالداعية يحتاج إلى من يقوم بجانبه ويناصره ويعينه، وذلك لأن الإنسان بمفرده لا يستطيع أن يحقق ما يحققه ومعه إخوانه، فيجب على الداعية أن يبدأ بذوي قرابته

الأقرب فالأقرب، حتى توجد له منعة ونصرة، ثم لا يهمه بعد ذلك إن لم يُستجب له، ومن العيب أن يترك الداعية أهل بيته وأقاربه دون تبصيرهم بدين الله ﷻ.

رابعًا: التدرج في الدعوة: يجب على الداعية ألا يحاول تغيير المدعو دفعة واحدة؛ لأن ذلك مخالف لسنة الله، ومخالف لمنهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام، وهذا لا يمنع وجود القابلية عند بعض الأفراد على التحول دفعة واحدة، فمن كان عنده الاستعداد للتغيير دفعة واحدة من دون أن يؤثر سلبًا على نفسه؛ فلا يجوز التواني في ذلك.

أما من كان لا يقبل التحول إلا بالتدرج، فيجب تقديم الأهم في دعوته، وذلك لأنه قد تؤثر سرعة التحول في حقه سلبًا، فلربما عاد إلى جاهليته، ولهذا نجد أن الإسلام أعطى هذه المسألة حقها، فتجد أنه في العهد المكي ركز على جانب العقيدة مثلًا، ثم بعد فترة أمر بالصوم، ثم بالزكاة، ثم بالحج، وهكذا.

ونجد أن الله تعالى لم يحرك الخمر دفعة واحدة، بل تدرج في ذلك، فأول الأمر نزل، وكان قبل التحريم قول تعالى: ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ ﴾ [النحل: ٦٧]، ثم أنزل قوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم أنزل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء: ٤٣]، ثم النهاية قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠].

فينبغي للداعية أن يتدرج مع المدعو حتى لا ينفر من كثرة التكاليف، وهنا ينبغي أن أنبِّه إلى أنه لا يجوز للداعية أن يشارك المدعو في بعض الأمور التي ربما تكون

محرمة، بحجة التدرج في الدعوة مع المدعو؛ بل إذا سكت الداعية عن بعض الأمور التي لا يزال يرتكبها المدعو، فيجب عليه أن يعتزلها هو بنفسه.

خامسًا: المتابعة: إن الدعوة الفردية تتطلب من الداعية جهدًا ليس بالقليل خاصة في المدن الكبيرة، فينبغي للداعية أن يهيئ نفسه حتى تعطي دعوته الثمرة المرجوة، فالمتابعة أمر مهم في الدعوة الفردية؛ وذلك نظرًا لأن كثيرًا من المدعوين يتأثرون بالدعوة، فيبدءون بالاستقامة، فإن لم يجدوا من الداعية التعهد؛ فتروا لأن البيئة التي يعيشون فيها لا تساعدهم على الاستقامة، بل تتحول إلى حرب شعواء ضد هذا العائد إلى الله، فربما أحاط به قرناء السوء حتى يعيدوه إلى ما كان من الفساد والانحراف؛ لهذا كان لزامًا على الداعية أن يتعاهد ثمرة دعوته، وأن يجعل لهذا الفرد أصدقاء صالحين يحيطون به؛ حتى لا تتخطفه الأيدي الآثمة المجرمة.

ومن الوسائل النافعة أن يصطحب هذا المدعو إلى حلقات العلم والمواعظ والرحلات:

سادسًا: إيجاد البيئة الصالحة للمدعو: كما ذكرنا سابقًا أن البيئة التي يعيشها المدعو لا تساعده على الاستقامة؛ لذلك لا بد من إيجاد البيئة الصالحة له فيُبعد عن جلساء السوء، وينقل إلى الجلساء الصالحين، ففي (صحيح مسلم) من حديث أبي سعيد الخدري < ((أن النبي ﷺ ذكر رجلًا من بني إسرائيل قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم أتى راهبًا وهو يتعبد فسأله هل لي من توبة؟ فإني قتلت تسعة وتسعين نفسًا، فقال له: ليس لك توبة، فقتله فأكمل به المائة، ثم دُل على عالم فسأله قائلًا: إني قتلت مائة نفس فهل لي من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينك وبين التوبة، انطلق إلى أرض كذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى، فاعبد الله معهم))،

ونهاه أن يعود إلى أرضه معللًا ذلك بأنها أرض سوء، فهذا العالم الرباني لم يكتفِ بتوصية السائل إلى التوبة فقط، بل أمره أن يغير البيئة التي كان يُفعل فيها المعصية وأن يجالس الصالحين.

فعلى الداعية أن يأخذ درسًا من هذا الحديث، ويعمل جاهدًا على نقل المدعو من البيئة السيئة إلى البيئة الصالحة التي تعينه على الطاعة، وعلى الذين يحيطون بهذا الفرد أن يحسنوا التعامل معه، فيهدون له الشريط النافع، والكتاب الجيد، ولا يهدرون أوقاتهم، ووقت المدعو في التجول في الشوارع والجلوس في المقاهي، كما يفعل كثير من الشباب، فإن هذا التائب يكون عنده الاستعداد النفسي التام للتوجيه، فلتُستغل هذه الفترة.

سابعًا: الاقتصاد في الموعظة: مما ينبغي على الداعية في حال زيارته للمدعو ألا تنتهي زيارته بدون موعظة، وينبغي أن تكون هذه الموعظة مختصرة ومركزة، ففي (صحيح البخاري) من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ كان يخولهم في الموعظة كراهة السآمة عليهم.

هذا وإذا كان لنا أن نقول شيئًا في هذا المجال، فإننا نوصي ونقترح ما يلي:

أولًا: عمل دراسة شاملة ومستوعبة لكل أساليب ووسائل الدعوة إلى الله تعالى على نحو ما قدمنا في الدعوة الفردية.

ثانيًا: تدعيم هذه الدراسة الواقعية التطبيقية، ولا سيما هذه الصور المستقاة من حياة الصحابة }.

ثالثًا: الاستفادة من المناخ الصالح، مناخ الأخوة الصحيحة بين الدعاة الصادقين، وهو من أهم المؤثرات في نفوس الأفراد الجدد، فهذا المناخ النقي الذي تسوده آداب الأخوة في الله، وتحكمه آداب وأخلاق وسلوكيات ديننا الحنيف، يتميز

بمميزات لا توجد في أي مناخ آخر، يمكن أن يعيشه الفرد في المجتمع، وما عاش فرد في هذا المناخ ولو لفترات قصيرة، إلا وأحس بالفارق الشاسع بينه وبين أي تجمع أو مجتمع آخر، ولو أحسن الداعية، وزملاؤه الاستفادة من هذا المناخ الصالح في تربية، وتنمية، والارتقاء بالمدعوين؛ لكان تأثيره عظيمًا، ومن أهم ما يوجد في هذا المناخ التعامل السهل الصريح غير المتكلف، سهولة تكوين صداقات قوية رغم اختلاف ظروف الأفراد، التآلف، والتزاور والمعايشة العملية بين الأفراد رغم الفوارق الاجتماعية والمادية والعلمية وغيرها.

رابعًا: الحرص على المشاركات الاجتماعية بين أفراد هذا المناخ، والتي يتضح فيها صدق المشاعر والتفاعل، وأنها ليست مجرد مجاملات.

خامسًا: المشاركة المعنوية، والمادية، والتكافل بينهم في الأحداث والطوارئ، كذلك المصاحبة والمشاركة في أداء الطاعات والعبادات، وجميع الأعمال، والتشجيع الجماعي عليها؛ مما يساعد على تعود الفرد عليها، واكتسابه صفات ومميزات، وسلوكيات إيجابية بفعل تواجده في هذا المناخ.

المنهج الجماعي

عناصر الدرس

العنـــــــصر الأول	:	تعريف الدعوة الجماعية وخطواتها	٣٣٧
العنــــصر الثـــاني	:	تطبيقات على الدعوة الجماعية من القرآن والسنة	٣٤٤
العنــــصر الثــالــث	:	كيفية الاستفادة من المنهج الجماعي في مجال الدعوة الإسلامية	٣٥١

تعريف الدعوة الجماعية وخطواتها

"المنهج الجماعي":

وهو الدعوة العامة، ونعني بها: ما كان الخطاب فيها موجهًا إلى جماعة من الناس بقصد إبلاغهم الدين والتأثير فيهم، وقد تكون من فرد أو من جماعة، وذلك مثل المحاضرة التي يقوم بإلقائها فرد والمتلقي جماعة، وأوضح ما يبين ذلك خطبة الجمعة، أو من جماعة إلى جماعة أكبر منها، مثل: الندوات التي يشترك فيها عدد ما، ويكون المتلقي جماعة من الناس في مكان واحد، أو عن طريق وسائل الإعلام كتلك التي تُبثُّ عن طريق الإذاعة والتليفزيون.

وأنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام- قاموا بهذا النوع من الدعوة إضافة إلى المرحلة السابقة، وهي الدعوة الفردية، وذلك لأنهم واجهوا بدعوتهم الجماهير الكثيرة المتباينة المشارب والأهواء، المختلفة الثقافة، كما أن الحكماء والمجددون يُعتبرون من أصحاب الدعوة العامة التي يكون الخطاب فيها من شخص إلى جمهور من الناس.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال ﷻ: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، وذلك رحمة من الله بعباده وتفضلًا منه، وكرمًا حتى لا يكون لهم حجة أو عذر. قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

والدعوة العامة تحتاج إلى استعداد وإعداد، استعداد من حيث القدرة على إعطاء الناس الجديد والمفيد، وجذبهم إليه بطرق الجذب المعروفة، والتي من أبرزها صدق النية والحديث، وإشعارهم بالحرص عليهم، وأنهم إن لم يسمعوا ويَعُوا قول الله -جل وعلا، وقول رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى سوف يكونون نهبًا للشياطين، وإعدادًا من حيث المادة العلمية، وأعني بها ما ورد في الكتاب العزيز، والسنة المطهرة من أوامر، ونواهٍ وترغيب وترهيب، مع مراعاة حاجات الناس وقدراتهم، وظروفهم المحيطة بهم من سلم وحرب، وقوة وضعف، وعلم وجهل إلى غير ذلك.

أما إذا كان الحديث لغير المسلمين، فإنه يحتاج إلى إعداد آخر وأسلوب آخر يعتمد فيه الداعية على بيان محاسن الإسلام، وبيان الحكمة من خلق الله ﷻ لهذا الكون وما فيه، وإيضاح حقيقة العبودية، وأنه لا يوجد في هذا الكون الشاسع العظيم من يستحق أن يُعبد إلى الذي خلق وصور، وأحيا وأمات، خالق هذا الكون، ومدبر شأنه رب العالمين خالق كل شيء، ومليك كل شيء، القادر ذو الجلال والإكرام.

أما عن خطواتها، فإنه ليس الحديث مع فرد أو أفراد قليلون كالحديث مع جمهور من الناس، وعليه فلا بد فيها:

أولًا: حسن الاختيار: ونعني بحسن الاختيار أن يكون الداعية حكيمًا في تناول الجوانب المهمة فيما يتعلق بالدعوة والمدعو، أما من حيث الدعوة، فعليه أن يهتم أولًا وأخيرًا بالاعتقاد وبيان عقيدة الإسلام الصحيحة، ومعالجة أحوال الناس؛ وفقًا لمقتضيات الحاجة، فالجهال بأمور الدين لهم أسلوب، وأصحاب البدع والخرافات لهم أسلوب، والمتقدم في السن له أسلوب وهكذا، كل حسب وضعه الذي يراه الداعي المسلم.

أما من حيث المدعو فقد قيل: خاطبوا الناس على قدر عقولهم، كما أن على الداعية المسلم أن يراعي من حيث حسن الاختيار الأمور التالية:

١. اختيار الموضوع.

٢. اختيار الألفاظ والعبارات.

٣. اختيار الوقت المناسب.

٤. اختيار المكان المناسب.

وكل فقرة من هذه الفقرات تستطيع أن تتحدث عنها في موضوع مستقل، إلا أن ثقتي في ثقافة إخواني المشتغلين بالدعوة واهتمامهم بكل ما من شأنه أن يقوي ويدعم موقف الداعية، حتى يصل بالدعوة إلى الله إلى ما يتمناه كل مسلم غيور جعلتني استعرض هذه الفقرات الأربع باختصار أرجو ألا يكون مخلًّا:

أولًا: اختيار الموضوع: على الداعية المسلم أن يحرص على اختيار موضوعاته؛ بحيث يجد المدعو فيها ما يريده، أو بعضًا مما يريده؛ لأن اختيار الداعية، وانتقاءه للمادة التي يريد أن يبلغها للمتلقي من أهم عوامل النجاح والقبول، النجاح بالنسبة للداعية، والقبول بالنسبة للمدعو؛ لأن المدعو إذا وجد أن هذه المادة تضيف إلى ثقافته شيئًا؛ فإنه يحرص عليها.

لذا نورد أمثلة من المواضيع التي يمكن -إن شاء الله- أن تضيف جديدًا للمستمع، أركان الإسلام أركان الإيمان، معاني البر، معاني التوحيد، الكفر، الصبر، النفاق، مظاهر الإحسان.. إلى آخره.

ثانيا: اختيار الألفاظ والعبارات: وهذا الجانب له دور كبير جدًّا في فهم المتلقي للحديث الملقى عليه، فبقدر سهولة الألفاظ وبساطة العبارات ووضوحها بقدر ما

يكون الحديث واضحًا مفهومًا، ولا يخفى على الداعية بأن لكل طبقة من طبقات المتلقين ما يُناسبها ويناسب ثقافتها من ألفاظ وعبارات، فعلى الداعية المسلم ملاحظة ذلك لأهميته.

ثالثًا: اختيار الوقت المناسب: وفي هذه المناسبة أذكر أمرًا حدث في مسجد النبي ﷺ، وكان ذلك في عام ألف وثلاثمائة سبعة وثمانين هجرية، وفي شهر رمضان المبارك، وبالتحديد في ليلة السابع والعشرين من شهر القرآن؛ ففي مثل هذه الليلة كان من العادة أن يلقي الشيخ عبد العزيز بن صالح إمام وخطيب المسجد النبوي الشريف كلمة على المصلين بعد التسليمة الثانية من صلاة القيام، وكل من استمع إلى تلك الموعظة يعلم ما لها من تأثير عظيم في نفوس المصلين، فالمكان المسجد النبوي الشريف، والزمان السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك، والمتحدث داعية، وإمام للمسجد النبوي الشريف لأكثر من أربعة عقود من الزمن.

وبعد أن انتهت الصلاة -أي: صلاة القيام- وأخذ الناس ينصرفون إلى بيوتهم لتناول وجبة السحور، في هذا الوقت وقف أحد الإخوان المشتغلين بالدعوة يلقي كلمة في المسجد النبوي الشريف، وأذكر أنه وقف وحيدًا، بل إن بعض الناس لامه على ذلك؛ لأن الوقت غير مناسب، ووقعت بينه وبين بعضهم مشادة كلامية.

صحيح أن الداعية كان يريد خيرًا ويدعو إلى خير، لكنه لم يوفق في اختيار الوقت المناسب؛ لأن الناس قد قضوا أكثر من ثلاث ساعات في الصلاة، والاستماع للموعظة السنوية التي كان يلقيها إمام المسجد النبوي أثابه الله، أي: أنهم لا يوجد لديهم استعداد لما ذكرت سابقًا من ظروفهم؛ لهذا فإن اختيار

الوقت المناسب والزمان المناسب، وكلمة مناسبة فضفاضة تتسع لمعاني كثيرة، فعلى أخي الداعية ملاحظة هذا الأمر باهتمام.

رابعًا: اختيار المكان المناسب: لا شك أن للمكان أثر على المتلقين، مما ينعكس على عملية التلقي والاستيعاب، سواء أكان ذلك سلبًا أو إيجابًا، فعلى الداعية الانتباه لهذا الأمر.

ثانيًا: حسن الأداء: لما كان الداعية المسلم حريصًا على إيصال ما يريد من خير وفلاح لمجموع المتلقين، فإنه يتحتم عليه أن يحسن أداء ما يريد إيصاله إليهم، وحسن الأداء كلمة واسعة جامعة، فأكثر عمل المتحدث يندرج تحت هذا الباب.

وسنتناول بعضًا من النقاط التي ينبغي للداعية أن يلاحظها، ويتقيد بها عند اتصاله بجمهوره المدعوين؛ لأنها من آداب الدعوة بصفة عامة، والدعوة الجماعية بصفة خاصة، وهذه النقاط هي:

أولًا: أن يبدأ باسم الله: إن ابتداء المتحدث بذكر اسم الله الرحمن الرحيم في بداية حديثه ما هو التماس لمعونة الله ﷻ وتوفيقه، فهي تتضمن ثلاثة من أسماء الله ﷻ، وهي الله ﷿ ثم اسم الجلالة الرحمن، ثم اسم الجلالة الرحيم ﷿، وتقدس لا إله إلا هو ولا رب سواه، وفي البدء بها خير كثير، وبركة وتوفيق، وفي الوقت نفسه مخالفة لمن خالف المسلمين ممن يفتتحون أقوالهم وأعمالهم بكلمات ليس فيها ذكر الله، والداعية إنما يدعو إلى الله، فليبدأ حديثه باسم الله الذي بيده مقاليد كل شيء ﷻ عما يصفون، وهي شعار الإسلام تبدأ بها عندما تُقرأ سور الذكر الحكيم جميعها، عدا سورة التوبة، ولله الفضل والمنة، فلا تنسَ -أخي الداعية- أن تبدأ بها حديثك ولقاءك مع المدعوين.

ثانيًا: إتقان تلاوة آيات الذكر الحكيم: لا أعلم كيف يسمح لنفسه أن يواجه الناس من يلحن في آيات القرآن، ولا يحسن تلاوة آيات الذكر الحكيم.

واعلم -أخي الداعية- أن اللحن في القرآن الكريم ينقسم إلى قسمين: لحن جلي، ولحن خفي:

القسم الأول اللحن الجلي: هو الخطأ الذي يطرأ أثناء القراءة على لفظ الآية القرآنية، فيخل بمعناها إخلالًا يؤدِّي إلى تغيير المعنى المراد منها، يشترك في معرفته علماء هذا الفن وعامة الناس سواء، أدى ذلك إلى فساد المعنى أو لم يؤدِّ ذلك، مثل تبديل حرف بآخر، أو حركة بأخرى، ومن اللحن الجلي أيضًا ترك المدود الطبيعية، والوقف القبيح الذي يكون فيه فساد المعنى جليًّا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "لا ينبغي لطلبة العلم الصلاة خلف من لا يقيم الفاتحة، ويقع في اللحن الجلي؛ بحيث يغير حرفًا أو حركة".

القسم الثاني اللحن الخفي: فهو الخطأ الذي يتعلق بكمال إتقان النطق لا بتصحيحه، فلا يدركه إلا أهل الفن، ويخفى على العامة مثل: ضبط مقادير المدود، فعلى الداعية المسلم أن يتنبه لهذا الأمر، ويجتهد في تعلم التلاوة الصحيحة لكتاب الله العزيز، وكيف يكون موقف الداعية أمام الناس عندما يكتشفون أنه لا يحسن قراءة القرآن الكريم، أرجو أن يلاحظ هذا الأمر جميع من يريد الاشتغال بالدعوة إلى الله، فيبادر إلى إتقان التلاوة لآي الذكر الحكيم، بل مطلوب من الداعية أن يحفظ القرآن كله، أو معظمه، أو على الأقل يتقن الآيات التي يريد إيرادها في حديثه للناس.

ثالثًا: حسن إيراد الحديث الشريف: معلوم بالضرورة أن الحديث النبوي الشريف السنة مطهرة، المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد كتاب الله ﷻ، والعناية بالحديث النبوي واجب على كل مسلم، فعلى الداعية العناية والاهتمام بحديث رسول الله ﷺ بالتأكد من لفظ الحديث، ومن روايته حتى لا يقع في الكذب على رسول الله ﷺ، والقول بلا علم؛ فبعض الدعاة هداهم الله يسمع

الحديث فيعجبه معناه، واستنادًا لهذا الإعجاب يطرحه دائمًا، ويستشهد به من غير أن يقف عليه، ويتثبت من روايته ولفظه، ويأخذه الناس منه، وينتشر بينهم؛ لأنهم يثقون بداعيتهم، وربما يكون من الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة، فمن آداب الدعوة الجماعية أن يحذر الداعية الوقوع في مثل هذا، وأن يهتم بحديث رسول الله ﷺ المصدر الثاني بعد كتاب الله الكريم.

رابعًا: التشويق وبراعة الاستهلال: ومن حسن الأداء أن يكون المؤدي، وهو الداعية حسن الأداء، والأداء يتضمن جوانب عديدة منها: التشويق، ونعني به قدرة الداعية على جعل الحديث مشوقًا؛ بحيث يستمر المدعو معه من أوله إلى آخره، لما يرى ويجد فيه من جودة تجذبه إليه، وإلى الاستمرار معه بكل اهتمام، وهذا لا يكون إلا باهتمام الداعية بموضوع الحديث، والوقوف على فنون الخطابة في الأدب العربي، وقبله في الأدب النبوي والبلاغة المحمدية.

وهذا يحتاج إلى مران كثيرة ودراية جيدة لهذا الفن من فنون الأدب الإسلامي؛ فمتى استطاع الداعية أن يستثير اهتمام المدعوين، فإنه قد استحوذ على مشاعرهم، وتمكن من جذبهم إليه.

كما أن براعة استهلاله الحديث معهم له دور هام في جذب المتلقين، وإثارة اهتمامهم، والتمكن من تهيئتهم لما سوف يكون بعد الاستهلال، وهو ما نسميها مرحلة عرض الموضوع المراد عرضه للمدعوين وبيانه لهم على أن مرحلة التمهيد للموضوع تكون بأشكال كثيرة: فهي أحيانًا عبارة عن قصة لها علاقة بالموضوع، أو موقف من المواقف التي تشدُّ الانتباه، أو قراءة لنص من النصوص، على أن اهتمام الداعية بدعوته وإخلاصه لها، ومتابعته لأحوال مجتمعه المسلم خير معين له في طريق الدعوة الشاق الطويل.

خامسًا: الوقار وحسن السمت: ومن حسن الأداء الوقار، وحسن السمت، أي: على الداعية أثناء الحديث ألا يكثر من الحركات والالتفاتات، بل عليه أن

يكون معتدلًا في ذلك كله، وقورًا، ومظهره العام له دور في الوقار؛ فيحسن بالداعية الاعتدال في الملابس، والاهتمام بالنظافة، وحسن المظهر، شريطة ألا يكون في ذلك ما يخالف مألوف المدعوين.

كما يحسن بالداعية أن يراعي في جانب حسن الأداء عدم الإطالة على الجمهور، وتقسيم موضوع الحديث إلى عناصر واضحة، وعدم الإسراع في الإلقاء، مع ملاحظة اتزان النبرات أي: نبرات الصوت، ومعايشة واقع الجمهور مع ملاقاة الناس بوجه منطلق، ورحابة صدر مع تركيز على ما يهمهم، وينفعهم في دنياهم وآخرتهم.

الحيطة: ونعني بها أن يحتاط الداعية لجميع الظروف والمواقف، وهذا يتطلب منه أن يكون يقظًا حسن التصرف والتخلص في نفس الوقت، خاصة عندما يُفاجأ بسؤال من مغرض، أو متحيز فيحسن بالداعية أن يتعلم كيف يخرج، ويتخلص من المواقف المحرجة؛ بحيث لا يتأثر منه أحد أو يسيء إلى أحد المدعوين؛ ليظهر معرفته بما أعده له من مكر فيما عُرض عليه من أسئلة محرجة، وهذا يتطلب رباطة جأش، وهدوء نفس؛ لأن الانفعال في مثل هذه المواقف قد يؤدي إلى ضرر بالدعوة والداعية.

تطبيقات على الدعوة الجماعية من القرآن والسنة

تطبيقات ذلك من القرآن والسنة:

بعد ثلاث سنين من الدعوة الفردية إذا برسول الله ﷺ يجهر بالدعوة بتوجيه من الله -تبارك وتعالى- في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] وكان ما كان من الاضطهاد والتضييق، خرج رسول الله ﷺ من مكة يدعو الناس في المواسم

بعكاز، ومجنة، وذي المجاز، وفي أي مكان من تجمعاتهم يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلِّغ رسالات ربه، ولهم الجنة، فلا يجد أحدًا ينصره، ولا يجيبه حتى أنه ليسأل عن القبائل في مواسم الحج قبيلة قبيلة، ويقول: ((يا أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتدين لكم بها العجم، فإذا آمنتم كنتم ملوكًا في الجنة))، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب، حتى أن بعضهم ليرد عليه أقبح الرد، ويؤذونه ويقولون: أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك، وهو يدعوهم إلى الله، ويقول: ((اللهم لو شئت لم يكونوا هكذا)).

روى ابن إسحاق وغيره عن ربيعة بن عباد قال: "إني لغلام شاب مع أبي بمنى، ورسول الله ﷺ يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: ((يا بني فلان إني رسول الله إليكم آمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به))، وخلفه رجل أحول وضيء له غديرتان، عليه حلة عدنية، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من قوله، وما دعا إليه قال ذلك الرجل: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفائكم من الجن من بني مالك بن أقيش، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه، ولا تسمعوا منه، فقلت لأبي: من هذا الذي يتبعه ويرد عليه ما يقول؟ قال: هذا عمه أبو لهب"، وفي رواية: ((قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه، ويقول: أيها الناس لا تطيعوه فإنه كذاب)).

وهكذا استمر رسول الله ﷺ يعرض نفسه في موسم الحج من كل سنة على القبائل الوافدين إلى بيت الله الحرام، يتلوا عليهم القرآن، ويعرض عليهم الإسلام، كما كان يخرج إلى القبائل العربية في الأسواق وغيرها، حتى في الطرقات لا يسألهم مع

ذلك إلا أن يؤوه ويمنعوه، وكان يقول: لا أكره أحدًا منكم على شيء من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه إنما أريد أن تحرزوني مما يُراد لي من القتل؛ حتى أبلغ رسالة ربي، وحتى يقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء فلم يقبله أحد، وما يأتي أحدًا من القبائل إلا قال: قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلًا يصلحنا، وقد أفسد قومه ولفظوه، وبعضهم كان يقول: أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا، ونتابذ العرب، ألحق بقومك فلا حاجة لنا بك. وفي رواية كان يقول: ((ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشًا منعوني أن أبلغ كلام ربي)).

ومع هذا كله، فقد استمر على هذا المنهج منذ أُمر بالجهر بالدعوة إلى أن أذن الله له بالهجرة، وذلك عشر سنين، أو إحدى عشرة سنة حتى امتلأت نفسه ﷺ كمدًا وأسًى؛ لعدم قبول دعوته ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ [فاطر: ٨].

طلائع المسلمين أو الأنصار: ولما لم يستجب للدعوة المحمدية أحد من القبائل العربية، بل ولم يمنعوه من قومه حتى يبلغ رسالة ربه، خرج رسول الله ﷺ كعادته في الموسم لدعوة الناس إلى الله، ولعرض نفسه وحمايته، فساقه الله إلى نفر من الأنصار، وهم من الخزرج لما أراد الله بهم من الخير، كان قد لقيهم من قبل، فعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن؛ فصدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم، ثم انصرفوا إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا، وكان عددهم ستة نفر.

قال ابن إسحاق وغيره: ((فلما أراد الله إظهار دينه، وإعزاز نبيه، وإنجاز وعده له، خرج في الموسم الذي لقيه فيه الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم؛ فبين هو عند العقبة لقي رهطًا من الخزرج وهم ستة نفر أراد الله بهم خيرًا، فقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال:

أمن من موالي اليهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١] الآيات الثلاث، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، وغير ذلك من الآيات، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا يُسبقنكم إليه، وأجابوه فيما دعاهم إليه، وطلب منهم النبي ﷺ أن يمنعوه، فقالوا: إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، وسنعرض الأمر على عشائرنا))، وموعدك الموسم القادم، فلما قدموا المدينة دعوا أقوامهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ، وذكروا لهم ما طلبه النبي ﷺ من المنع.

بيعة العقبة الأولى:

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلًا عشرة من الخزرج، واثنان من الأوس، وعلى رأسهم أسعد بن زرارة، فلقوا النبي ﷺ عند العقبة، فبايعوه على نحو بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفترض عليهم الحرب، قال ابن كثير: "والمقصود أن هؤلاء الاثنا عشر -الإثنا عشر رجلًا- شهدوا الموسم عامئذ، وعزموا على الاجتماع برسول الله ﷺ، فلقوه بالعقبة، فبايعوه عندها بيعة النساء، وهي العقبة الأولى".

نص البيعة:

روى ابن إسحاق بسنده عن طريق الصنابحي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: "كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثنا عشر رجلًا، فبايعنا رسول الله ﷺ

على بيعة النساء، وذلك قد قبل أن تفترض الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئًا، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم؛ فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله ﷻ إن شاء عذب وإن شاء غفر".

وقد روى هذا الحديث الإمام البخاري بعدة ألفاظ من طريق أبي إدريس الخولاني وغيره، في عدة مواضع، أن عبادة بن الصامت > من الذين شهدوا بدرًا، ومن أصحاب ليلة العقبة، ((إن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا)) الحديث.

وفيه ((فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له))، ومن طريق أبي الأشعث: ((أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئًا))، وقد عقد البخاري بابًا مستقلًا سمَّاه باب بيعة النساء، رواه ابن عباس عن النبي ﷺ، ثم ذكر تحته حديث عبادة وغيره، ورواه الإمام أحمد في مسنده.

وأما الأنصار التقوا برسول الله ﷺ عندها ثلاث مرات: الأولى ستة، والثانية اثنا عشر، والثالثة سبعون، وقد استنبط صاحب التفسير السياسي للسيرة من نص البيعة الأولى ثلاثة أمور:

الأول: الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد، ونبذ ما سواه.

الثاني: الدعوة إلى الاستقامة في السلوك.

الثالث: الدعوة إلى الأخذ بالحق المتدفق على لسان الرسول ﷺ من قرآن وسنة.

ومدار الإسلام على هذه الأمور الثلاثة، وقال الإمام أبو زهرة: "ونرى أن هذه المبايعة كانت لبيان بعض التكليفات الإسلامية التي لا اختلاف فيها، وما كانت

للإيواء والنصرة؛ لأن النبي ﷺ لم يكن قد قرر الهجرة إليهم، ولم يكن قد جاءه الأمر بذلك أو الإيحاء به، ولأنه لا يأخذ تعهُّد النصرة قبل عهد الإيمان، وما كانت هذه التسمية فيما نحسب في وقت البيعة إنما كانت لمشابهتها لما في آية مبايعة النساء في الممتحنة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾ [الممتحنة: ١٢]".

هذا وقد أطال الحافظ في الكلام على حديث عبادة حسبما أشرنا بما فيه الكفاية، والذي يهمنا الأمور الثلاثة المأخوذة منه هي أهم معالم المجتمع الإسلامي الذي بُعث رسول الله ﷺ لإنشائه، وليست مهمته أن يلقن الناس كلمة الشهادة، ثم يتركهم يرددونها بأفواههم، وهم عاكفون على انحرافاتهم، وبغيهم، ومفاسدهم.

صحيح أن الإنسان يصدق عليه اسم المسلم إذا صدَّق بالشهادتين، وأحل الحلال وحرم الحرام، وصدق بالفرائض؛ لأن ذلك هو المفتاح والوسيلة لإقامة المجتمع الإسلامي، وتحقيق نُظمه ومبادئه، وجعل الحاكمية لله تعالى وحده في كل الأمور؛ فحينما وُجد الإيمان بالله وحده وبرسالة نبيه محمد ﷺ لا بد أن يتبعه الإيمان بحاكمية الله تعالى، وضرورة اتباع شريعته ودستوره.

إرسال البعوث إلى طيبة: لما بايع رجال العقبة الأولى من الأوس والخزرج، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم لم يكتفِ الرسول ﷺ بإسلامهم، وأخذ البيعة منهم، بل بعث داعية أو أكثر ليفقه من أسلم في الدين، وليدعوا من لم يسلم إلى الإسلام، فمن هو ذا الداعية أو الدعاة الذين بعثهم الرسول ﷺ إلى طيبة الطيبة؛ كي تتوسع رقعة الإسلام، قيل مصعب بن عمير، وقيل ابن أم مكتوم، وقيل أرسلهما معًا.

ولكل فريق دليله، وقد كثر الخلاف في كتب السيرة وغيرها حول هذا، والمشهور أن الداعية المبعوث إلى طيبة هو مصعب بن عمير؛ لأنه أسلم على يده رئيس الخزرج سعد بن عبادة وأسيد بن حضير، وجميع بني عبد الأشهل وغيرهم، مصعب هو أحد خريجي مدرسة دار الأرقم، المدرسة الجامعة الأولى التي كان مديرها ومعلمها صاحب الرسالة الخاتمة محمد ﷺ، وقد أمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، وكان يصلي بهم؛ لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض.

من نتائج دعوة مصعب:

نجح مصعب أيما نجاح في نشر الإسلام، وجمع الناس عليه، وساعده على ذلك أسعد بن زرارة أحد رجال العقبة الأولى؛ حيث نزل عنده، وقد استطاع أن يتخطى الصعاب التي توجد دائمًا في طريق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة؛ حتى أنه كان ليأتيه رئيس القبيلة، وحربته في يده يريد قتله، فيخاطبه بأسلوبه الهادئ الحكيم، أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره، فيقعد فيسمع منه فيرجع إلى أصحابه، وقد أسلم، فيدعو قومه إلى الإسلام، وإن أبو فكلاهم عليه حرام حتى يؤمنوا بالله ورسوله.

وهذا ما فعله سيد الخزرج سعد بن عبادة؛ فانتشر الإسلام في المدينة حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا القليل.

فلا تحسبن مصعب كأولئك المرتزقة من المبشرين الذين دسهم الاستعمار الغربي بين يدي زحفه على الشرق، فترى الواحد منهم يقع تحت سرير مريض، فيقول له: هذه القارورة تقدمها لك العذراء، وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح، وربما

فتح مدرسة ظاهرها الثقافة المجردة، أو ملجأ ظاهره البر الخالص، ثم لوَّى زمام الناشئة من حيث لا يدرون، ومال بهم حيث يريد.

هذا ضرب من التلصص الروحي، يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين، والذين يمثلون هذه المشاعر يجدون الجرأة على عملهم من الدول التي تبعث بهم، فإذا رأيت إصرارهم ومغامراتهم، فلا تنسَ القوى التي تُساند ظهورهم في البر والبحر والجو.

أما مصعب فكان من ورائه نبي مضطهد، ورسالة معتبرة ضد القانون السائد، وما كان يملك من وسائل الإغراء ما يطمع طلاب الدنيا ونهَّازي الفرص، كل ما لديه ثروة من الكياسة والذكاء قبسها من معلم الدعوة الإسلامية، وحامل لوائها محمد ﷺ، وإخلاص لله جعله يضحي بماله، وحياته، وجاهه في سبيل عقيدته، والدعوة إليها، ثم هذا القرآن الذي يتأنق في تلاوته، ويتخير من روائعه ما يغزو به الألباب، فإذا الأفئدة ترق له، وتتفتح لهذه الدعوة الخالدة.

كيفية الاستفادة من المنهج الجماعي في مجال الدعوة الإسلامية

إن العالم اليوم محروم من أهم مقومات الحضارة الصحيحة، المتمثلة في الرقي الروحي والعبودية الحقة لله رب العالمين؛ لأن التقدم في مجالات الحياة المختلفة لا يحل للبشرية مشكلاتها الروحية التي تكاثرت عليها، وسببت لها الشقاء والدمار، والمتمثلة في حقيقتها في البعد عن خالقها ﷻ وانتحال مذاهب وآراء شيطانية صاغتها عقول بشرية خبيثة، لا تريد للبشرية سعادة، أو حرية؛ إذ السعادة الحقة والحرية الحقيقية في تمسك العبد بحبل الله المتين، والسير على صراطه المستقيم، وصرف العبادة له وحده جل وعلا، وتحرير النفس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد وخالقهم ﷻ.

إن هذا التدهور الرهيب في نواحي الحياة المختلفة، وذلك الضياع القاتل، والبعد عن دين الله ﷻ، الذي يعاني منه الإنسان، بل تعاني منه البشرية هذه الأيام يدعونا إلى التفكر والتأمل في مصير هذا الكون، وهذا الكائن الذي استطاع أن يسخر بفضل من الله كل ما في الكون؛ ليشبع رغباته وشهواته، وفي الوقت نفسه فشل فشلًا ذريعًا في إيجاد حل يحقق له السعادة الروحية، وينقذه من ذلك الفراغ القاتل لخصائصه الإنسانية.

وهذا القلق الذي يقضي عليه شيئًا فشيئًا إن ذلك كله يجعل دُعاة الإسلام يشمرون عن سواعد الجد؛ لإبلاغ هذا الدين إلى أولئك المكدودين المنهكين من آثار هذه الحضارة المادية، فالله الله يا دعاة الإسلام، الله الله في دعوتكم، الله الله في هذه الأمانة التي شرفكم الله بها، وسعدتم بحملها بعد نبيكم الكريم الذي بعثه الله رحمة للعالمين.

إن العالم اليوم على شفا هاوية، وليس له إلا الإسلام دين الله القويم، وليس للإسلام بعد الله إلا دعاته الذين يعلمون علم اليقين أن حمل الأمانة يحتاج إلى رجال أشداء أقوياء في إيمانهم، أقوياء في بلاغهم وتبشيرهم بهذا الدين العظيم.

والحال هذه لا بد من تضافر الجهود، واتحاد الصفوف وجمع كلمة الدعاة في العالم الإسلامي؛ ليقوموا بهذا الواجب المنوط بهم، وهذا شرف عظيم، ومرتبة لا يرقى إليها إلا من وفقه الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

إن الدعوة الجماعية مسئولية عظيمة، وأمانة جسيمة حملتها أمة محمد ﷺ التي شرفها الله بها؛ إذ يقول تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فعلى هذه الأمة أن تقف وقفة متأنية لتراجع حساباتها، وتنظر في حال أمتها، وحال العالم من حولها، ماذا حلَّ بهم بسبب القصور الذي حدث، والضعف الذي ألمَّ بالدعاة، فلنتق الله في دعوتنا، ولنتذكر أن رب العزة والجلال غني عنا، وأنه القاهر فوق عباده، وأنه ذو القوة المتين.

وعلى ذلك لا بد للداعية إذا أراد الخروج إلى أي بلد من أن يتعرف عليها معرفة شاملة لعقائدها، وتقاليدها، وسلوكها، وعاداتها، واتجاهاتها أفرادًا وجماعات؛ ليكون على بصيرة من أمره، وليعرف من أين تُؤكل الكتف، فإذا درسها دراسة شاملة، وعرف الأبواب والمنافذ التي يستطيع الدخول منها لدعوة الأفراد أو الجماعات؛ دخل منها، وعليه البدء بالأهم فالمهم، وبالأصل قبل الفرع.

منهج التربية

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	مفهوم التربية في الإسلام، وخطوات المنهج التربوي	٣٥٧
العنصر الثاني	:	تطبيقات المنهج التربوي من الكتاب والسنة	٣٥٩
العنصر الثالث	:	التربية بالقصة	٣٦١

مفهوم التربية في الإسلام، وخطوات المنهج التربوي

منهج التربية:

مفهومه: إن التربية جزء لا يتجزأ من الإسلام، فالتربية هي تنمية فكر الإنسان، وتنظيم سلوكه وعواطفه على أساس الدين الإسلامي، وبقصد تحقيق أهداف الإسلام في حياة الفرد والجماعة.

إذن الارتباط بين التربية والإسلام وثيقة حتى أن التربية لا تكون صحيحة النتائج إلا إذا بُنيت قواعدها على الأسس والتشريعات الإلهية؛ لأن التربية تطبيق للشرع الذي أمر الله به الإنسان من أجل تنظيم سلوكه والارتقاء به عن درجة البهيمية، ورفع مستوى الجماعة بحيث يكون مجتمعًا مثاليًّا كما أراده الله سبحانه، إضافةً إلى أنه سبحانه إنما أرسل رسوله ﷺ لتزكية النفوس وكمالها، كما بين ذلك في كتابه الكريم فقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

أما خطوات المنهج التربوي، فهي كثيرة ومتشعبة، أذكر منها:

أولا: التدرج في الدعوة:

لما كانت النفس البشرية تتمسك بما ألفت، وتتعز بما ورثت، كان نقل الناس إلى الصواب وهدايتهم إلى الحق أمر شاق يحتاج إلى جهد موصول، وتلطف وإصرار، إن بعض الدعاة يريدون للمرضى أن يشربوا الدواء دفعةً واحدةً لا كما حدده الطبيب تدرجًا، ولو فعل المرضى ذلك لهلكوا؛ لذلك نهجت الدعوة في

تقرير الأحكام واستئصال الموروثات مسلك التدريج، كما هي سنة الله في تنجيم نزول القرآن الذي نزَلَ مفرقًا حسب الحوادث والملابسات، ولم ينزل جملةً واحدةً.

روى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ عندما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: ((إنك تأتي قوم من أهل الكتاب، فادعوهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم وتُرد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنها ليست بينها وبين الله حجاب)).

ولما جاء وفد ثقيف إلى النبي ﷺ قبل منهم الشهادتين والصلاة، وحط عنهم الزكاة والجهاد مؤقتًا؛ حتى يألفوها. روى الإمام أحمد في مسنده أن النبي ﷺ قال: ((سيقبلون الجهاد ويخرجون الزكاة إذا انشرحت صدورهم إلى الإسلام)) وهذا ما قد كان.

كذلك سلك الإسلام في تحريم الخمر والربا، والقضاء على الرق مسلك التدريج، ولم يحرمها طفرة واحدة، فجاء إلى الخمر -مثلًا- فأشار أولًا إشارةً خفيفةً إلى أن من نعم الله ما تتخذون منه مادة للسكر، والغواية: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ﴾ [النحل: ٦٧]، ثم بين لهم بعد ذلك أن فيها نفعًا وضرًّا، وأن الضر فيها أكبر من النفع، فقال سبحانه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثم ترك للعقل يفكر ويوازن ليدرك بنفسه أن ما كثُر ضرره على نفعه جدير بتركه، ثم حرمت قبل الصلاة حتى لا يهزي الإنسان فيها بعد أن أخطأ أحد المسلمين في الصلاة؛ نتيجة السكر، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

ولما كانت مواقيت الصلاة متقاربة لا تحتمل السكر والصحو، كان ذلك تمهيدًا للمرحلة الأخيرة وهي التحريم النهائي، ولما أدركوا خطرها أخيرًا، وقالوا: "اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا". نزل التحريم النهائي بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١]. فقالوا عقبها: "انتهينا يا رب".

تطبيقات المنهج التربوي من الكتاب والسنة

تطبيقات المنهج التربوي من الكتاب والسنة:

أولًا: الاتصال بالله:

جاء الإسلام ليربط النفس البشرية بالله أولًا في كل اللحظات والساعات؛ حتى يكون ذلك أساس فكرها، ومنهجَ حياتها، وأما من عدى الله سبحانه، فهو لا يملك من أمره نفسه شيئًا:

الله قل وذرى الوجود وما حوى ❖ فالكل إن حققت طيف خيال

ومن ثم أخذ يثير في النفس آيات إبداع الله وقدرته في الكون التي ليست لها حدود، ولا عليها قيود، وأخذ يفتح عينها على هذه الآيات؛ حتى تتصل بالخالق، وتحبه، وتخشاه، وأخذ يعقد بينها وبين الكون لقاءً مثيرًا تنكشف لها فيها عظمة الخالق سبحانه، فتنطلق نشطةً مبهورةً تسبح باسم الله.

من هذه الصور:

- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

- وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

- وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩)﴾ [النحل: ٧٨، ٧٩].

- وقوله سبحانه: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾ [الطارق: ٥ - ١٠].

وقوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠)﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

وهكذا من كل ما يوقظ المشاعر ويهز الوجدان، بعيدًا عن إغراق الفلاسفة، وجدل المناطقة، ومتاهات ما وراء الطبيعة.

التربيـــــة بالقـــــصة

القصة لغةً:

الأمر والحديث، وقد اقتصَّ الحديث: رواه على وجهه، وقص عليه الخبر قصصًا، فالاسم أيضًا القصص، والقصص -بكسر القاف- جمع القصة التي تُكتب، وجاء في (المصباح): قصصت الخبرَ: حدَّثت به على وجهه، والاسم القصص -بفتحتين- وقصصت الأثر: تتبعته، والقصة -بكسر القاف-: الشأن والأمر.

القصة شرعًا:

مجموعة من الأخبار الحقيقية عن حوادث وقعت في الماضي، فيها من العبر والنكت، والعجائب التي ليست في غيرها، أو هي: مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة.

وعرفها بعض الباحثين: أنها كلام حسن في لفظه ومعناه مشتمل على أحداث حقيقية سابقة، ومتضمن على ما يهدي إلى الدين، ويرشد إلى الخير.

وعلى ضوء ما تقدم يُمكن أن نعرفها على أنها: الإخبار عن أحداث حقيقية سابقة بكلام حسن الألفاظ، صِيغ بأسلوب بديع مشوق جذاب، وقد احتوى على العبر والحكم والعجائب، يهدي السامع بسحره للنفوس إلى الدين، ويرشد إلى الخير وفضائل الأعمال.

ولا يخفَى ما في القصة من سحر يسحر النفوس ويؤثر عليها، ولا أحدَ يعرف على وجه التحديد كيف يتم ذلك؟ أهو انبعاث الخيال يتابع مشاهدَ القصة من موقف إلى موقف، ومن تصرف إلى شعور؟ أم هو المشاركة الوجدانية لأشخاص القصة، وما تثيره في النفس من مشاعر؟ أم هو انفعال النفس بالمواقف حين يتخيل الأنسان نفسه داخل الحوادث؟

ومهما كان الأمر هذا أو ذاك، فلا شك أن قارئ القصة وسامعها لا يملك أن يقف موقفًا سلبيًّا من شخوصها وحوادثها، فهو على وعي منه أو غير وعي يدس نفسه على مسرح الحوادث، ويتخيل أنه كان في هذا الموقف أو ذاك، ويروح يوازن بين نفسه، وبين أبطال القصة فيوافق بعضهم، وينكر على بعض، ويعجب ببعض.

والمربي الناجح هو الذي يستطيع أن ينتقي من القصص والحوادث والأخبار، ويصوغها صياغةً جيدةً مشوقةً؛ ليشغل انفعال العاطفة، ومسار الانتباه في عرض القصة لدى السامع، حتى إذا تفاعل روحيًّا، وتفتح ذهنيًّا صَبت في مشاعره وأحاسيسه، وأعمال قلبه من معين العبرة وسلسبيل القصة، ما يجعله خاشعًا مخبتًا قد تهيأ، واستعد لاستقبال التوجيه المطلوب.

وللقصة في التربية الإسلامية وظيفة تربوية مهمة لا يحققها لون آخر من ألوان من الأداء اللغوي، ذلك أنها تمتاز بميزات جعلت لها آثارًا نفسيةً وتربويةً بليغةً، بعيدة المدى على مر الزمان؛ لما تثيره من حرارة العاطفة، ومن حيوية وحركية في النفس، تدفع الإنسان إلى تغيير سلوكه، وتجديد عزيمته حَسْب إيماءات القصة وتوجيهها وخاتمتها والعبر منها؛ لأن استخدام طريقة القصة، والتربية تساعد على إيضاح وتفسير وتذليل ما يصادف المربي من صعوبات وتعقيدات في الحقائق والمعلومات المراد توصيلها إلى المربين.

ولأن القصة تؤثر في النفس إذا وضعت في قالب عاطفي مثير لا سيما إذا كانت ذات مغزى نبيل، فتحرك الدوافعَ الخيرة في الإنسان، وتطرد النزعات الشريرة منه، فهي تجعل القارئ أو السامع يتأثر بما يقرأ أو يسمع، فيميل إلى الخير وينفذه، ويمتعض من الشر فيبتعد عنه.

وقد أدرك الرسول ﷺ الميل الفطري إلى القصة، أدرك ما لها من تأثير ساحر على القلوب، فاستغلها؛ لتكون وسيلةً من وسائل التربية والتقويم، وأراد ﷺ من خلال القصة بناءَ شخصياتٍ تلاميذه على أسس سليمة وصحيحة وَفق النماذج المثالية التي تدور عليها أحداث القصة، وأن يزرع في نفوسهم فضائل الخير بأنواعها، وأن يرتقي بعقولهم ومداركهم، ووعيهم إلى الصورة المثالية التي يرتضيها لهم، وأن تتم صياغة مقومات شخصياتهم وسلوكهم نقيةً نظيفةً من الأخلاق السيئة، والطِّباع المنحرفة، والتصورات الخاطئة التي تتحلى بها الشخصيات الشريرة في القصة.

ولقد دلت التجربة على أن من أشد المواعظ الدينية نفاذًا إلى القلوب ما عُرض في أسلوب قصصي يحمل على المشاركة الوجدانية للأشخاص، والتأثير بالأحداث، والانفعال بالموقف.

وهذه نماذج من قصصه ﷺ:

القصة الأولى: ما روى الإمام البخاري عن أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((كان رجل من بني إسرائيل يقال له: جريج، يصلي، فجاءته أمه فدعته فأبى أن يجيبها، فقال: أجيبها أو أصلي؟ ثم أتته فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته، فقالت امرأة: لأفتنن جريجًا، فتعرضت له، فكلمته فأبى، فأتت راعيًا فأمكنته من نفسها، فولدت

غلامًا، فقالت: هو من جريج، فأتوه، وكسروا صومعته، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلَّى، ثم أتى الغلامَ، فقال: مَن أبوك يا غلام؟ فقال: الرَّاعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب!! قال: لا، إلا من طين)).

من الفوائد التربوية لهذه القصة:

الفائدة الأولى: أنه لفت نظر السامعين إلى جواز التعمق بالطاعات والاستزادة منها، وأن جريجًا كان مشغولًا بصلاته لا يحب فراقها، حيث ورد في رواية أخرى للبخاري: ((أنها نادته ثلاث مرات، وفي كل مرة يقول: يا ربي، أمي وصلاتي؟!)). وفي هذا إشعار للمؤيدين بأن كثرة الصلاة تورث حلاوة الاستغراق بها، بحيث جعلته يفضل استمراره بالصلاة على إجابة أمه مع علمه بواجب برها.

الفائدة الثانية: أن من فقه العابد أن يوازن بين طاعته لوالدته وعبادته، فبإمكان جريج إجابة أمه دون فوت الصلاة، وقد ذهب بعض الشافعية إلى جواز قطع الصلاة مطلقًا؛ لإجابة نداء الأم، حتى ولو كانت فرضًا. وقال النووي: إنها دعت عليه فأجيبت؛ لأنه كان يمكنه أن يخفف ويجيبها.

وورد أيضًا أن رسول الله ﷺ جاءه رجل، فقال: جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوي يبكيان، فقال ﷺ: ((ارجعْ عليهما، فأضحكهما كما أبكيتهما)).

فمن فقه المسلم الملتزم أن يوازن بين احتياج الوالدين والأهل، وبين متطلبات العبادة حتى ولو كانت جهادًا في سبيل الله، ولا يغلب جانب العبادة والتفرغ للعمل للإسلام على بقية الجوانب الأخرى.

الفائدة الثالثة: فيه أيضًا الرفق بالتابع إذا جرى منه ما يقتضي التأديب؛ لأن أم جريج مع غضبها منه لم تدعو عليه إلا بما دعت به خاصةً، ولولا طلبها الرفق به

لدعت بوقوع الفاحشة أو القتل، ويبدو أن أم جريج كانت ذكيةً بحيث أرادت أن تكون العقوبة من جنس العمل، فدعت عليه بالنظر في وجه المومسات، وهو أبغض شيئًا للعابد؛ نتيجة امتناعه عن النظر إلى وجه أمه، والله أعلم.

الفائدة الرابعة: وفيه دعوة إلى قوة اليقين بالله والثقة به تعالى خاصةً؛ قياسًا بحالة جريج المذكورة وصحة رجائه؛ لأنه استنطق المولودَ مع كون العادة أنه لا ينطق، ولولا صحةُ رجائِهِ وتيقنه بنطقه ما استنطقه.

الفائدة الخامسة: وفيه أن صاحب الصدق مع الله لا تضره الفتن، وأن الله تعالى يعصمه منها، وأن الشيطان لا سبيلَ له إليه، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

الفائدة السادسة: وفي هذا الحديث بيان أن الله تعالى يجعل لأوليائه عند ابتلائهم مخارجَ، وإنما يتأخر ذلك عن بعضهم في بعض الأوقات؛ تهذيبًا وزيادةً لهم في الثواب، وهذه الموعظة تربية للمؤمنين بأن الله تعالى معهم، وهو ناصرهم ومؤيدُهم ومولاهم، حتى لا يتسرب إلى نفوسهم اليأس، ويستحوذ عليهم القنوط، فليس شيء أقرب إلى المستحيل من أن ينطق مولود رضيع ليشهد ببراءة متهم، وها هو قد نطق، فعلام إذن يستحوذ اليأس والقنوط على بعض المسلمين مع أن الله تعالى لا يتخلف عن نصرة الصادقين منهم؟!

الفائدة السابعة: وفي هذا توجيه إلى السامعين بالفزع عند الأمور المهمة إلى الله تعالى من خلال الصلاة، وطلب عونه وفرجه، وفيه ربط بين ما كان يفعله رسول الله ﷺ حيث كان إذا حزَبه أمر صلى، وبين خطر جريج الذي لجأ إلى الصلاة والدعاء؛ طالبًا تأييدَ الله تعالى.

الفائدة الثامنة: وفيه إشارة خفيفة إلى مكر النساء، واستعداد بعضهن للإغواء والفتنة، وإلصاق التهم بالأبرياء، مما يستدعي الابتعاد عن مواطن الشبهة والفتن، وقطع دابرها.

هذه أهم الجوانب التربوية المستفادَة من هذه القصة التي أراد الرسول ﷺ توصيلها إلى أذهان السامعين من خلال روايتها لهم.

القصة الثانية: يقص علينا رسول الله ﷺ قصة أخرى، رواها البخاري: عن عبد الله بن عمر } قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

((انطلق ثلاثة رهط ممن كانوا قبلكم حتى آووا المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا، فنأى بي في طلب شيئًا يومًا، فلم أرح عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى بَرَقَ الفجر، فاستيقظا، فشربَا غبوقَهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاءَ وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج)).

قال النبي ﷺ: ((وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم كانت أحب الناس إليَّ، فأردْتُها عن نفسها فامتنعت مني، حتى ألَمَّت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه، فتحرجتُ من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليَّ، وتركت الذهبَ الذي أعطيتُها،

اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاءَ وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها)).

قال النبي ﷺ: ((قال الثالث: اللهم استأجرت أجراءَ، فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذَهَب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبد الله، أدِّ إلي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله، لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه، فلم يترك منه شيئًا، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاءَ وجهك، فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون)).

من الفوائد التربوية لهذه القصة:

الفائدة الأولى: أنه عمَّق في نفوس الجميع استحباب الدعاء عند الكرب، كيف لا! وقد رَأَوْا عناية الله الفائقة تتدخل كي تنقذ ثلاثةً من موت محقق دون تدخل أحد.

الفائدة الثانية: زاد الجميع إيمانًا ويقينًا أن الله تعالى قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه، ويفرج عنه الكربَ.

الفائدة الثالثة: عَمَّق في نفوس الجميع فضلَ الإخلاص في العمل، والحرص عليه بما رأوا من ثمراته العاجلة.

الفائدة الرابعة: أوجد رغبةً شديدةً في القيام بفضائل الأعمال كبر الوالدين، وخدمتهما وإيثارهما على الولد والأهل، وتحمل المشقة لأجلهما، ومكانة العِفة والانكفاف عن الحرام مع القدرة، وفضل أداء الأمانة، وعدم أكل أموال الناس بالباطل.

القصة الثالثة: وعندما يريد رسول الله ﷺ أن يذكِّر الناس بنعم الله وفضله عليهم، ويحثهم على شكره وعدم كفرانه، وعندما يريد أن يحذرهم ما أهلك أكثر الناس، وأوقعهم في الهاوية وهو حب المال، وعدم أداء حقه، يقص عليهم حديث الأبرص والأقرع والأعمى، فيقول فيما يرويه البخاري عن أبي هريرة > أن رسول الله ﷺ قال:

((إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص، وأقرع، وأعمى، بدا لله عز وجل أن يبتليهم، فبعث إليهم ملَكًا فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني الناس، قال: فمسحه فذهب عنه، فأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، فقال: أي مال أحب إليك؟ قال: الإبل أو قال: البقر -هو شك في ذلك- إن الأبرص والأقرع، قال أحدهما: الإبل، وقال الآخر: البقر، فأعطي ناقة عشراء، فقال: يبارك لك فيها، وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك، قال: شعر حسن، ويذهب عني هذا، قد قذرني الناس، فقال: فمسحه فذهب وأعطي شَعْرًا حسنًا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: البقر، قال: فأعطاه بقرة حاملًا، وقال: يبارك الله لك فيها، وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إليَّ بصري، فأبصر به الناسَ، قال: فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطاه شاةً والِدًا، فأنتج هذا، وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين تقطعت بي الحبال، فلا بلاغَ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيرًا أتبلغ به في سفري، فقال له: إن الحقوق كثيرة، فقال:

كأني أعرفك، ألم تكن أبرصًا، يقذرك الناس، فقيرًا فأعطاك الله؟ فقال: لقد ورثت كابرًا عن كابر، فقال: إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلى ما كنتَ. فأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقاله ما قال لهذا، فرد عليه مثلما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنتَ. وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، وتقطعت بي الحبال، فلا بلاغ اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرَك شاةً أتبلغ بها في سفري، قال له: قد كنت أعمى فرد الله بصري، وفقيرًا فقد أغناني، فخذ ما شئتَ، فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذتَه لله، فقال: أمسك مالَك، فإن ما ابتُليتم، فقد رضي الله عنك وسخِطَ على صاحبيك)).

من الفوائد التربوية لهذه القصة:

الفائدة الأولى: أن الرسول ﷺ أعطى صورةً واضحةً للحالة التي كان عليها الثلاثة، حيث كانوا يعيشون حالةً نفسيةً متعبةً؛ بسبب المرض الذي استقذرهم الناس من أجله، ونفروا منهم بسببه، وبسبب الفقر الذي ابتلوا به، وزاد من سوء حالتهم النفسية المتدنية، مما جعلهم مثار عطف وشفقة تستدعي تقديم العون والمساعدة من قِبل المطلع على حالتهم هذه. ثم أعطى بعدها صورة للحالة الجيدة التي أصبحوا بها من حسن المنظر والهيئة، إلى كثرة الأموال التي مَنَّ الله تعالى بها عليهم.

إن هاتين الصورتين المتضادتين تجعلان السامع يشعر بعظم فضل الله تعالى، وامتنانه على هؤلاء الثلاثة، ثم يبدأ يتخيل مقدار شكر هؤلاء لله تعالى، وقد ارتسمت في مخيلته أعمال البر والإحسان إلى المحتاجين التي سيقومون بها عرفانًا للجميل، ومواساةً لبني جنسهم الذين يعانون من ألم الفقر الذي قد شاطروهم

إياهم يومًا ما، فإذا بالصورة تأتي مغايرة تمامًا للمتوقع؛ جحود ونكران ومكابرة، بُخل وشُح.

إن هذه القصة أحدثت في نفوس السامعين حالة من الإشمئزاز، والبغض والكراهية للموقف المشين لهؤلاء الجاحدين، تركت كل واحد منهم يعقد مقارنة بينه وبينهم، يستعيذ بعدها أن يتصرف مثلهم مهما كانت الأسباب، كما أن الموقف المحمود للأعمى الشاكر ترك أثرًا طيبًا في نفوس الجميع، جعل كل واحد يتمنى أن يقف موقفَه هذا يومًا ما.

وفي القصة تحذير من كفران النعم، والترغيب في شكرها، والاعتراف بها، وحمد الله عليها، والحث على الرفق بالضعفاء وإكرامهم، وتبليغهم مآربهم، وفيها زجر عن البخل؛ لأنه حمل صاحبه على الكذب، وعلى جحد نعمة الله تعالى.

الفائدة الثانية: إن الرسول ﷺ اختار هذه القصة؛ لأن موضوعها يمكن أن يتكرر على مدار الزمان، فأراد بذكرها تحذيرَ السامعين عاقبةَ جحود فضل الله، وأراد أن تكون عبرةً حيةً بين أيديهم يتذكرونها كل حين.

الفائدة الثالثة: أنه أراد من خلالها ترسيخ الاعتقاد بأن الغِنى والفقر من الله تعالى، لا عَلاقة لإرادة الإنسان بها، مما يستدعي تواضع الأغنياء وشكرهم، واحتمال الفقراء وصبرهم.

القصة الرابعة: روى الإمام البخاري عن أبي هريرة > قال: قال النبي ﷺ: ((اشترى رجل من رجلًا عقارًا له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار جرةً فيها ذهب، فقال الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني، إنما اشتريتُ منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها،

فتحاكمَا إلى رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه، وتصدقَا)).

الفائدة الأولى: لقد كان رسول الله ﷺ -والله أعلم- معجبًا بموقف البائع والمشتري اللذين اختصمَا لا في أيهما أحق بالذهب، لكن في أن كل واحد يرى أن صاحبه أحق به منه، وهذا موقف مثالي فريد نادر التكرار، لا من حيث جحود المشتري للذهب والاستثمار به، بل في دفعه عن نفسه بعد أن أثبته له البائع، ولقد أراد من المسلمين التأسي بهذا الموقف النبيل في هذه القصة، وأن أي موقف يريد أن يقفه السامع لها سواء من المشتري أو من البائع، فهو محمود عليه، ومأثرة له.

الفائدة الثانية: كما وإن هذه القصة فيها درس للجميع في أداء حقوق الناس وترك الطمع فيها، وإن أي سامع لهذه القصة، وإن كان فيه أدنى خير لا يرضى لنفسه أن يبخس الناس إن لم يستطع أن يتأسى بهما.

القصة الخامسة: روى الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر { أن رسول الله ﷺ قال: ((عُذبت امرأة في هِرة سجنتها حتى ماتت فدخلت النار، لا هي أطعمتها، ولا سقتها إذ حبستَها، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض)).

إن الغرض الذي أورد البخاري من أجله هذا الحديث يتضمن عدة أمور تربوية؛ منها:

أولا: تنمية جانب الخوف والرهبة عند المطلوب تربيتهم تجاه حقوق بني جنسهم، فإذا كان دخول النار بسبب إجاعة قطة حتى ماتت، فكيف بإزهاق أرواح ظلمًا.

ثانيًا: ويدخل تحت هذا الباب كل عمل يفضي إلى التسبب في إجاعة أو موت أحد، فالاحتكار والاستحواذ على أموال الآخرين ظلمًا وسجن العائل ظلمًا.

ثالثا: وأراد ﷺ -والله أعلم- من المسلمين عدم احتقار أي ذنب مهما صَغُر، والمراقبة الدقيقة لكل تصرف يتصرفونه.

القصة السادسة: مقابل قصة المرأة التي دخلت النار في هرة هناك رجل دخل الجنةَ في كلب، والقصة كما رواها البخاري عن أبي هريرة > أن الرسول ﷺ قال: ((بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلبُ من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بِفِيه، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، فقالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجرًا؟ قال: في كل ذات كبد رطبة أجر)).

والأهداف التربوية والتوجيهية المستفادة من إيراد هذه القصة كثيرة؛ منها:

أولًا: الحث على الإحسان إلى الناس مهما كان شأن ذلك الإحسان، بعد أن تبين أن الإحسان إلى كلب قد أدخل بغيًّا الجنة.

ثانيًا: الحث على الرحمة والشفقة تجاه الآخرين، وتنمية شعور الإحساس إزاءَ معاناتهم ومصاعبهم التي يتعرضون لها في هذه الحياة الدنيا، كما شعر هذا الرجل بمعاناة الكلب من العطش.

ثالثًا: الاهتمام بأعمال الخير مهما صغرت، وعدم احتكار أي عمل منها.

وقصة الهرة والكلب صورتان متضادان لعمل الخير وعمل الشر، كلا العملين يبدوان للناظر بسيطين، إلا أنه مع بساطتهما فقد أدخل أحدُهما صاحبه الجنةَ، وأدخل الآخر صاحبه النارَ.

القصة السابعة: قصة السحابة المأمورة بسقية حديقة رجل صالح، عن أبي هريرة > عن النبي ﷺ قال: ((بين رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتًا في سَحابة: اسق حديقةَ فلان، فتنحى ذلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا

شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان، بالاسم الذي في السحابة، فقال له: يا عبد الله، لِمَ تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هو ماؤه يقول: اسقِ حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذا قلت هذا، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثًا، وأرد فيها ثلثه)).

الدروس المستفادة من القصة:

أولًا: تيسير الأرزاق بسبب الصدقات:

تتعدد في القرآن الكريم أحاديث النبي ﷺ الوصايا بالصدقة، والحث على الاهتمام بها، وفي إطار هذه الوصايا تؤكد الآيات والأحاديث على أن الصدقة لا تنتقص من المال شيئًا، بل على العكس تبارك فيه، وتكون سببًا في وجود خلف لها بعد خروجها.

وفي الإشارة إلى هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩]، ويقول ﷺ: ((ما من يوم يصبح العباد فيه إلا مَلَكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكًا تلفا)).

وإذا كانت الصدقة إنفاقًا من الشخص لبعض ماله، فإن النقص المادي الظاهري في المال شيء ملموس، فكيف يمكن أن نوفق بين هذا الشيء وبين نفي رسول الله ﷺ إنقاص المال بالصدقة؟ ويرى العلماء النقص الحاصل بسبب الصدقة ينجبر بأحد صورتين:

الأولى: إيجاد البركة في المال، ودفع المضرات عنه، فينجبر النقص الظاهر بالبركة الحقيقية.

الثانية: أن الثواب المرتب على الصدقة في الآخرة، والذي يضاعَف إلى أضعاف كثيرة يجبر أيَّ نقص في المال.

ثانيا: فضل الإنفاق على الأهل:

تدل الصدقة على أن الرجل كان يتعامل مع ما يخرج من الأرض باستثناء الجزء الذي يعود فيها بإنفاقه في جهتين، وهما التصدق بالثلث -وقد بينا فضل ذلك- وإنفاق الثلث الباقي على عياله، وفي هذا التصرف وسَوْقه ﷺ له مساق المدح، ما يدل على أن المرء مأجور فيما ينفقه على عياله.

ثالثًا: وفي مباشرة الرجل عمله بيده في الحديقة: ما يدل على فضل كسب المرء من عمل يده، وفي الحديث: ((ما أكل أحدٌ طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود # كان يأكل من عمل يده)).

وإنما كان الأكل من عمل اليد خيرًا مما عداه؛ لعدة أسباب:

الأول: أن فيه إيصال النفع للمكتسب ولغيره.

الثاني: أن فيه تعففًا عن ذل السؤال.

الثالث: أن فيه قطعًا للبطالة، والتي تؤدي إلى الفراغ والفضول مما يضيع حياة المرء سدًى.

الرابع: أن فيه استغلالًا لخيرات الله المبثوثة في الأرض، والتي لولا العملُ لضاعت الفائدة منها.

ولأن كانت هذه الفائدة في حق عامة الناس ومنهم الدعاة، فإن للدعاة في هذا الدرس فائدة تخصُّهم، وهي أن كلمة الحق التي يُطالَبون بتبليغها للناس لن تكون ذاتَ أثر فعال ما لم يصحبها استغناء عن الناس، ولا يكون ذلك إلا بالاكتساب والأكل من عمل اليد.

تابع: منهج التربية

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	استكمال الحديث عن التربية بالقصة	٣٧٧
العنصر الثاني	:	التربية بضرب الأمثال والتشبيه، والتربية العملية	٣٨١
العنصر الثالث	:	معالم من هدي النبي ﷺ في الدعوة إلى الله	٣٨٦
العنصر الرابع	:	كيفية الاستفادة من منهج التربية، وما يجب مراعاته أو التحرز منه	٣٨٨

استكمال الحديث عن التربية بالقصة

القصة الثامنة: روى الإمام البخاري عن صهيب > أن رسول الله ﷺ قال:

((كان مَلِكًا فيمن قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فأبعث إليَّ غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا، فكان بطريقه إذا سلك راهبًا، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجِبَ، فكان إذا أتى الساحر ضربه فَشَكَا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيتَ الساحر فقل: حبسني أهلي، وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر، فبينما هو كذلك إذا أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها، ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، وقد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإذا ابتليت فلا تدل عليَّ.

وكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص، ويداوي الناس من سائر الأدواء، فسمع جليس للملك كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما هنالك أجمع لك إن أنت شفيتني، فقال: إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله دعوتُ اللهَ فشفاك، فآمن بالله فشفاه الله، فأتى الملكَ، فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك: مَن رَدَّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل، فقال: إني لا أشفي أحدًا إنما يشفي الله، فأخذه فلم

يزل يعذبه حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجعْ عن دينك فأبَى، ودعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه.

ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه. فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئتَ، فرجف بهم الجبل، فسقطوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفرٍ من أصحابه، فقال: اذهبوا به فاحملوه في قَرْقور فتوسطوا به البحرَ، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة، فغرِقوا وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله.

فقال للملك: إنك ليس بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: تجمع الناس في صعيد واحد وتصلبني على جذع، ثم خُذْ سهمًا من كِناتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: بسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلتَ ذلك قتلتني، فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على جذع ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهمَ في كبِد القوس، ثم قال: بسم الله رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صَدْغه، فوضع يده في صدغه في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنَّا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام.

فأتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر قد وقع، نزل بك حذرك، ثم آمن الناس، فأمر بالأخدود في أفواه السكك، فخدت وأضرم النيران، وقال: مَن لَمْ يرجع عن دينه، فأحملوه فيها، أو قيل له: اقتحم، ففعلوا حتى جاءت امرأة، ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه، اصبري، فإنك على الحق)).

من الفوائد التربوية المستفادة من هذه القصة :

أولًا : جعل الرسول ﷺ محور القصة يدور حول ملك ، وساحر ، وراهب ، وغلام ، وبطانة للملك ، وشعب مغلوب على أمره ، فشد أنظار الجميع إلى الأدوار التي سيقوم بها كل بدوره.

ثانيًا : أعطى الرسول ﷺ صورةً حيةً للواقع الحقيقي الذي تدور فيه أحداث القصة ، فالملك والساحر والشعب والبطانة جميعهم كفرة بالله تعالى ، ومشركون به ، ما عدا الراهب الذي قد اعتزل في صومعته متخفيًا يتعبَّد اللهَ تعالى فيها ، مما جعل جميع المستمعين يستبعدون إمكانية تغير هذا المجتمع ، مع هروب حامل العقيدة الصحيحة ، وهو الراهب بنفسه ، وعدم قيامه بواجب الدعوة إلى الله تعالى المطلوب من أمثاله عادةً ، مع وجود حالة الرعب والخوف التي فرضها الملك وزبانيته على الشعب المقهور ، ولم يكتفِ بذلك ، بل ادعى الألوهية وعبَّد الناس له من دون الله رب العالمين.

ثالثًا : أن الملك قد استعان لتثبيت ملكه بالسحرة والدجالين ؛ حتى يزيد من إضلال الناس واستعبادهم.

رابعًا : من المتوقع أن يكون الغلام الذي وقع عليه الاختيار ذا شخصية قوية ، ونباهة عالية تليق بالدور الذي سيؤهله في المستقبل ؛ ليكون ساحرًا للملك. وأنه اختير غلامًا حتى يمكن إضلاله ، وإغواؤه بسهولة ، ولقتل المعاني الخيرة فيه ، وهو لا يزال صغيرًا ، وأن تكون تربيته على عين الملك.

خامسًا : ينقل الرسول ﷺ الجميع نقلةً سريعةً إلى حدث هام لم يُتوقع ، ألا وهو إيمان الغلام بالله الواحد الأحد على يد الراهب ، ويتحول الغلام إلى داعية إلى

الله تعالى، فيُسلم بدعوته أحد جلساء الملك المقربين، وتبدأ حالة جديدة من الابتلاء بعد معرفة الملك بذلك يُقتل فيها الراهب وجليس الملك بعد أن رفضوا العودة إلى الكفر.

سادسًا: من الفوائد التربوية: أن الراهب كان لديه حِس دعوي كان سببًا في إسلام الغلام، وأنه استخدم الحكمةَ في توجيهه، فأجاز له الكذب على الساحر وعلى أهله؛ حفاظًا على اللبنات الأولى في البناء؛ خشيةَ أن تُعرف قبل اكتمالها، فتؤد.

وفي هذه إشارة من رسول الله ﷺ إلى العُبَّاد ألَّا يعتزلوا بعيدًا عن مجتمعاتهم، ويَدَعوها للفسقة وأهل الشهوات، وإنما عليهم أن يتفاعلوا فيها ويقوموا بدورهم في إصلاحها.

سابعًا: إن موقف جليس الملك والراهب من الملك، وإصرارهم على العقيدة، وثباتهم على الإيمان رغم المصير الأليم الذي لاقوه، لهو أكبر درس للسامعين في دفعهم نحو تقديم المزيد لهذا الدين الذي كثر أعدائه، وقل أصدقائه وناصروه.

ثامنًا: إن قوة إيمان الغلام، وإصراره على الدعوة إلى الله على الرغم من معرفته بما سيحصل له وتضحيته بهذه الدنيا وبالقرب من الملك وإغراءته، لهو مثل سامٍ يتأسى به فتياننا وشبابنا، وأن تقديمه حياته رخيصة كي يؤمن الناس، لهو أبلغ عظة لهؤلاء المتقاعسين المتخاذلين الذين رضوا بالذل والهوان والخنوع لأجل لعاعة من الدنيا، بل لأجل أدنى سلامة لأنفسهم، على الرغم من حاجة هذا الدين إلى بذلهم وعطائهم.

تاسعًا: إن إسلام شعب بأكمله رغم قيوده المثقلة، ورغم تحريقه في النار، ليبعث الأمل في نفوس الدعاة، والموجهين ويبعد عنهم دواعي اليأس والقنوط، حين تبطئ عليهم استجابة شعوبهم، ويتأخر عنهم نصر الله تعالى.

وهناك أحاديث كثيرة تضمنت قصصًا تربويةً هادفةً يمكن الرجوع إليها، والاستفادة منها.

التربية بضرب الأمثال والتشبيه، والتربية العملية

ثالثًا: التربية بضرب الأمثال والتشبيه، والتي منها التربية الروحية:

١. روى الإمام البخاري عن أبي هريرة > أنه سمع رسول الله ﷺ قال: ((أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول ذلك؟ يبقى من درنه؟ قالوا: لا يبقى من دَرَنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا)).

وجه التمثيل أن المرء يُدَنس بالأقذار المحسوسة في بدنه، وثيابه ويطهره الماء الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد من أقذار الذنوب حتى لا يبقى له ذنب إلا أسقطته، شرط أن تجتنب الكبائر؛ لقوله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ [النساء: ٣١]، وفي هذا توجيه للاهتمام بالصلوات الخمس، والمحافظة على القيام بها، مما سيؤدي إلى تقوية الصلة بالله تعالى، وخشيته ومراقبته.

٢. روى الإمام البخاري عن أبي موسى > قال: قال النبي ﷺ: ((مَثَلُ الذي يذكر ربه والذي لا يذكره، كمثل الحي والميت)).

وجه التمثيل: أن الذي لا يذكر الله تعالى مثل الرجل الميت، والذي يذكره مثل الرجل الحي؛ لأن الذكر فيه حياة للقلوب والأرواح فهو غذاؤها تحيا به، وتموت بانقطاعه عنه.

وفي هذا الحديث تحذير من الغفلة، ونسيان الله تعالى الذي يميت القلب والروح، وحَث على فضل الذكر؛ لأنه حياة للقلوب والأرواح.

٣. في قوله ﷺ: ((والله ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدُكم أصبعَه في اليم، فلينظر بِمَ يرجع؟)) إنه شبه قيمة الحياة الدنيا بما فيها من أموال، وكنوز وقصور وعمارة في الآخرة بالماء الذي يرجع مع أصبع أحدنا إذا أدخله الماء، وفي هذا تقريب للمعنى الحقيقي لكثير من الآيات والأحاديث التي ذمت الدنيا، ورغبت في الآخرة، فمهما كانت النفوس ضعيفةً منهمكةً في جمع حطام الدنيا، فإن هذا التشبيه الرائع لا بد أن يحدث فيها هزة قوية، توقظها من غفلتها وإنكبابها على الشهوات؛ لتضعها على الاعتدال الذي يرضى الله تعالى به.

من فوائد هذا الحديث:

إضافة لإيقاظ القلب من الغفلة، وشد النفس نحو الآخرة، فإنه يميت الطمع عند المرء، ويدفعه إلى الزهد وبذل الأموال في أمور الخير، ويقتل فيه أمراضَ النفس كالبخل والحسد والحرص وغيرها.

٤. عن أبي عثمان قال: كنت مع سلمان تحت شجرة، فأخذ غصنًا منها يابس، فهزَّه حتى تحات ورقه، ثم قال: يا أبا عثمان، ألا تسألني لِمَ أفعل هذا؟ قلت: ولِمَ تفعل؟ قال: هكذا فعل رسول الله ﷺ وأنا معه تحت الشجرة، فأخذ منها غصنًا يابسًا، فهزه حتى تحات ورقه، فقال: يا سلمان، ألا تسألني لم أفعل هذا؟ قلت: ولم تفعل؟ قال: ((إن المسلم إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم صلى الصلوات الخمس تحاتت خطاياه كما تحاتت هذا الورق))". وقال: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

والفائدة هنا من ضرب المثل: أن رسول الله ﷺ استخدم غصن الشجرة كوسيلة إيضاح لذهاب السيئات عن الإنسان المواظب على الوضوء والصلاة، وعدم رجوعها إليه كما تتساقط الأوراق اليابسة من غصن الشجرة ثم لا تعود إليه.

وفي هذا تحريك للعواطف والوجدان، وإثارة النفس للتخلص من الذنوب والخطايا بإكثار الوضوء والصلاة، مما سيتسبب في تقوية الجانب الروحي لدى الفرد.

٥. عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: ((تابعوا بين الحج والعمرة، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة)).

وفي الحديث شبه رسول الله ﷺ دور الحج والعمرة في إزالة الذنوب والفقر عن المسلم، كدور كير الحداد الذي يزيل الشوائب العالقة بالحديد والذهب والفضة بشدة حرارته.

ووجه الشبه هنا: أن في إزالة خبث الحديد والذهب والفضة مشقةً وتعبًا بسبب التعرض لحرارة الكير، وروائحه الخبيثة، لكن في ذلك نفع، وهو تنقية الذهب والفضة وكسب المال، كذا الحج والعمرة فمن مشاقها التعب والحَر، لكن نفعها التطهر من الذنوب حتى يعود المسلمُ وليس عليه ذنب، وقد فتح الله عليه باب رزق أغناه من الفقر.

وذكر الفقر هنا يأتي في مكانه المناسب؛ لأن في الحج والعمرة تكاليف مادية قد تقف عائقًا أمام الكثيرين؛ خوفًا من نقص أموالهم وزيادة إنفاقهم، أَمَا وإن الحج والعمرة سبب في دفع الفقر وجلب الغنى، فما عاد هناك عائق يمنعهم.

وفي الحج والعمرة تنقية للنفس، وترويض لها على تحمل المشاق، والتعود على الطاعة والاستقامة، والتقرب من الله تعالى.

٦. عن ابن عباس } قال: قال رسول الله ﷺ ((إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب)).

إن تشبيه الرسول ﷺ الذي ليس في جوفه شيء من القرآن بالبيت الخرب، يجعل كل امرئ مسلم أمام خيار صعب، فهو إما أن يحفظ شيئًا من كتاب الله، أو هو بيت خرب خاوٍ خالٍ من كل أحد، مأوى للهوام والدواب والشياطين.

إن القرآن الكريم يعمِّر جوف الإنسان وقلبه ويصلح نفسه، وهو بمثابة نور يشع في داخله، فيضيء جنبات روحه حتى يمتلئ جوفه حكمةً ونورًا، وعلمًا وإيمانًا، أمَّا إذا خلا جوف الإنسان من القرآن الكريم فسَدَ قلبه وخبثت نفسه، فتمردت عليه وعم الظلام داخله، وضاقت الروح ذرعًا بالجسد، فهزلت روحه وفرغ جوفه، وعم الجهل والهم، والغم داخله، فخرب، وأصبح مأوًى للوساوس، والهواجس والنزعات الشيطانية.

رابعًا: التربية العملية:

كما اتخذت الدعوة طريق التربية الدينية، والممارسة العملية منهجًا لبناء الرجال، وصناعة الأبطال؛ وذلك حتى تمتزج الأحكام والشعائر باللحم والدم، وتخالط ينابيع الإيمان من قلوب الناس، فتتحول إلى سلوك حميد، وعمل مجيد لا مجرد تعاليم نظرية أو شعارات براقة لا تؤثر في المجتمع، وما بهتت صورة الدين في حياتنا إلا يوم أن تحولت مادة الدين في مدارسنا وجماعاتنا إلى مادة لحشو الأذهان، وأداء الامتحان، لا للتطبيق والالتزام بها في الحياة.

والعلم بلا تربية شر يُستعاذ بالله منه، ومن أقوال الرسول ﷺ: ((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع)) وكل ما نحن فيه من شرور إنما هو بعض نتائج العلم المجرد عن التربية.

وإن منهج الرسول ﷺ كان المثل الأعلى في تكوين الإنسانية بأسمى صفاتها، فهو ﷺ كان إذا أراد التصدق -مثلًا- في سبيل الله كان لا يعقد محاضرةً لذلك تستغرق الساعات، وإنما كان إنفاقه ﷺ وبذله المال سخيًّا طريقًا لتعليم المسلمين وتربيتهم.

وفي ضوء هذه الظروف كان يقول ﷺ: ((ما من مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا طيبًا، إلا كان الله آخذها بيمينه، فيربيها كما يربي أحدكم فصيله، حتى تبلغ التمرة مثل أحد)) وكذلك الشأن في الوضوء والصلاة والجهاد، وغير ذلك من العبادات، كانت مباشرته ﷺ وإقامته لها منهجًا لجمع المسلمين عليها، وعلى ضوء ما يؤدون كانت تعالج الأفكار الخاطئة، وتكمل المعلومات الناقصة، وتُساق التوجيهات النبوية الكريمة.

وكانت طريقة السلف أنهم كلما علموا شيئًا أو عرَفوه عملوا به في أنفسهم، لا ينتقلون إلى غيره إلا وهم عاملون بما عرفوا من قبل.

عن عطاء بن السائب وغيره قال: حدثنا الذين كانوا يقرءوننا عثمان بن عفان، عبد الله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: -أي: الصحابة-: "فتعلمنا القرآن والعلم".

ومعنى هذا: أن الصحابي من هؤلاء كان يتلقى من القرآن عشر آيات بعد عشر آيات بحيث لا ينتقل إلى العشر الثانية إلا بعد أن يكون حفظ الأولى بإتقان، ثم

مرَّن نفسه وجوارحه على العمل بما فيها من أحكام وآداب وأهداف وتوجيهات حتى يصبح ذلك خلقًا له وسجيةً، وكان لذلك أثره في تهذيب النفس، وتقويم الخلق، وفي إقامة الحق وربط سلطانه في الأرض.

فالنبي ﷺ كان لا يهتم بحشد المعلومات في أذهان الصحابة فقط، وإنما يهتم بتلقينهم المبادئ الصحيحة، والحقائق الناصعة، ويطالبهم بأن يتخلقوا بكل ما فيها من سمو وأدب، ثم يُنقِلهم إلى غيرها، وهكذا واحدةً واحدةً، حتى تم للنبي ﷺ بناء الجماعة المسلمة، وإعدادها لحمل أمانة العقيدة في الأرض.

معالم من هدي النبي ﷺ في الدعوة إلى الله

وإذا كان الرسول ﷺ هو الذي نقل الناس من الظلمات إلى النور بهذه الدعوة الخاتمة، فإننا نختم هذا الباب بطرف يسير من أسلوب الرسول ﷺ ومنهجه في الدعوة إلى الإسلام، قاصدين من وراء ذلك أن يستفيد الدعاة، ويتعلموا من توجيهاته ﷺ الذي كانت بلاغته في الأداء مضرب الأمثال.

وإليك معالم من هدي النبي ﷺ في الدعوة إلى الله ﷻ.

١. كان ﷺ يلقي الموعظة بأناة وتوأدة، لا يسرع ولا يتعجل، وإنما يتمهل، ويتأنى حتى يتمكن السامع من أن يلاحق كلامه استيعابًا وفهمًا.

تقول السيدة عائشة: ((كان رسول الله ﷺ يحدثنا الحديث لو عُدَّه العاد لأحصاه، ليس في كلامه فضول ولا تقصير، كما كان يكرر الكلمة الهامة ثلاثًا؛ لتسمَع منه وتؤخذ عنه))، وكان مع ذلك يؤثر الإيجاز، ويحب جوامع الكلم حتى لا تتوزع الأفهام وراء الإطالة المملة، أو تغرق الإذهان في طوفان من

العبارات لا تستطيع أن تلاحقها أو تتابعها؛ ولذلك كان ﷺ يتعهد إصحابه بالموعظة بين الحين والحين؛ حتى لا تمل قلوبهم أو يتطرق إليها السأمة، تمامًا كما يبذل الماء للعطشان الذي يحتاج إليه.

وفي (صحيح مسلم): ((كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة؛ مخافةَ السآمة علينا)).

٢. كان ﷺ يسبق أصحابه إلى العمل بما يدعوهم إليه ويأمرهم به، فإذا دعاهم للتقشف -مثلًا- ورئي المسلمون وقد شدُّوا على بطونهم حجرًا، يكشف عن بطن النبي ﷺ فإذا هو قد شد حجرين، فكان ﷺ مثلًا حيًّا متحركًا للمبادئ التي يدعو الناس إليها، والقرآن الذي يؤمن به؛ ولذلك انجذبت إليه الأفئدة، واجتمعت عليه القلوب؛ لأن طبيعة البشر أنهم لا يثقون في شخص إلا إذا وجدوا في حالته وسيرته مثالًا لِمَا ينصحهم به ويدعوهم إليه.

ولذلك فإن آفة الأمم في القديم والحديث يكمن في فقد الأسوة، والقدوة في العلماء والحكام، وذلك الفاصل الضخم بين قول كل منهما وعمله حتى ضج الناس بالشكوى ممن يحسنون التمثيل والكلام، ويسيئون الفعل والالتزام.

إن النبي ﷺ رفض أن يمنح نفسه امتيازًا خاصًّا لنفسه أو لأهل بيته، ولم يجامل أولاده أو أزواجه على حساب الشعب، عكس ما يحدث اليوم، ولما طلب أزواجه ﷺ التوسعة عليهن من متاع الدنيا الحلال أبى النبي ﷺ ونزلت آيات التخيير: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨- ٢٩].

وتورمت يد ابنته فاطمة > وهي تطحن على الرحى، واشتكى صدر زوجها علي > من كثرة حَمْل قربة الماء، فلما سمع بقدوم سبي إلى المدينة ذهب إلى النبي ﷺ يطلبان منه خادمًا يعينهما على الحياة، فرفض النبي ﷺ أن يعطيهما، وقال: ((والله لا أعطيكما وأدع أهلَ الصُّفوة تطوى بطونهم من الجوع، لا أجد ما أنفق عليهم، ألا أخبركما بخير من ذلك؟ تسبحان الله وتحمدانه دُبر كل صلاة)).

ولذلك انعقدت القلوب على محبته ﷺ وتفانت النفوس في الاقتداء به ﷺ فأين ذلك مما نراه اليوم من فروق في هذه الحياة، وامتيازات لا حصرَ لها تمنح للمتربعين على القمة في المجتمع؟

كيفية الاستفادة من منهج التربية، وما يجب مراعاته أو التحرز منه

كيف يستفيد الداعية من منهج التربية في مجال الدعوة؟

فمن العلوم الإنسانية التي ينبغي للداعية أن يلم بها علم التربية الذي أصبح له أثره وخطره في الحياة التعليمية بمختلف مراحلها وشتى ميادينها وأنواعها، لا صَبْغها بصبغات مختلفة حسب فلسفة التربية، ومنطلقها ووجهتها، وبخاصة في التربية مدارس واتجاهات تتباعد أحيانًا من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار من التفريط إلى الإفراط، وشيء آخر يجعل للتربية أهمية خاصة بالنظر إلى الداعية، ذلك أن الدعوة كالتربية كلتاهما تسعى إلى التأثير في فكر الإنسان وانفعاله ونزوعه؛ بُغيةَ الارتقاء بمفاهيمه وأخلاقه وسلوكه، والداعية كالمربي في ذلك، وإن كان لكل منهما وسائل ينفرد بها أو يتفوق فيها على صاحبه.

وكثيرًا ما يكون الداعية مربيًّا والمربي داعيًا، ومن ثم كان لا بد للداعية من الاستفادة بعلوم التربية وخبرات المربين، وتجاربهم العديدة المتنوعة في مجالات تعليم الكبار والصغار، والانتفاع بالأصيل الجيد من أصول التربية وطرائقها في حُسن توجيه المخاطبين، وإيصال المعرفة إليهم، وكيف يمكن التأثير في عقولهم وعواطفهم، وإثارة حوافز الخير في أنفسهم، ومطاردة نوازع الشر بين جنوبهم، مع وجوب الاحتراز من النزعات الهدامة والشطحات المتطرفة في الفلسفات التربوية الحديثة والمعاصرة، والاستنارة بما سطرته الأقلام الإسلامية في هذا المجال، مثل:

١. (فلسفة التربية الإسلامية) للدكتور عمر التومي الشيباني.

٢. (في أصول التربية الإسلامية) للدكتور عبد الغني عبود.

٣. (من الأصول التربوية في الإسلام) للدكتور عبد الفتاح جلال.

٤. (منهج القرآن في التربية) للأستاذ محمد شديد.

٥. (منهج التربية الإسلامية) للأستاذ محمد قطب.

٦. (نحو التربية الإسلامية الحرة) للأستاذ أبي الحسن الندوي.

هناك أخطاء يجب التحرز منها، وأمور يجب مراعاتها:

أولًا: على الداعي أن يتحرى قصده حين دعوة غيره، فيقصد بدعوته وجه الله، يقول الإمام الشافعي: "وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم على ألَّا يُنسب إليَّ حرف منه" ويقول: "ما ناظرت أحدًا قط على الغلبة، وودت إذا ناظرت أحدًا أن يظهر الحق على يديه".

وعن أبي يوسف -رحمه الله تعالى- قال: "يا قوم، أَريدوا بعلمكم الله، فإني لم أجلس مجلسًا قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلسًا قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أفتضح".

ثانيًا: أن يتخلق الداعي بالمحاسن والأخلاق الكريمة، ويتحلى بالحلم والصبر، وطلاقة الوجه والورع، واجتناب الضحك حين الدعوة، والحذر من الحسد والرياء والإعجاب، واحتقار الناس وإن كانوا دونه.

ثالثًا: ألا يستنكف الداعي من التعلم ممن هو دونه في سن أو نسب أو شهرة أو دين أو في علم آخر، ولا يستحي عن السؤال عما لم يعلم، ولا يتعاظم على المتعلمين، قال سعيد بن جبير > : "لا يزال الرجل عالمًا بالعلم ما تعلَّم، فإذا ترك العلم، وظن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده، فهو أجهلُ ما يكون".

رابعًا: على الداعي حين يتعامل مع الناس أن تكون قاعدته أن الأصل في المسلم العدالة والجرح لا يكون إلا للفاسق أو الكافر، ويكون أساس التعامل ظاهر السلوك، ولا شأن له بالباطن، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١].

خامسًا: أن يحترم مَن له سبق في الدعوة إلى الله، وأن ينزل الناس منازلهم مع الأخذ في الاعتبار أن العبرة لمن ثبت على الطريق، فقيمة السبق في الثبات ومواصلة الطريق.

سادسًا: أن يعلم الداعي أن الغاية هي اللهُ، فالوصول لتحقيق العبودية لله سبحانه هي الهدف الأسمى، ولذلك فإن الجماعة وسيلة، والحكومة وسيلة، وجميع ما يدعو إليه من تنظيم صفوف المسلمين، وتحقيق وحدتهم وسائل لتحقيق الأهداف وليست غاية بذاتها.

سابعًا: ألا يزيد من الخلاف بين الجماعات العاملة في حَقْل الدعوة الإسلامية بإظهار استعلائه بجماعته عن باقي الجماعات، فالجميع على ثغرة من ثغر الإسلام.

ثامنًا: على الداعي أن يفرق بين الإسلام والمسلمين، فالإسلام منزَّه لا يدان، والمسلمون قد يقتربون من الإسلام تطبيقًا أو يبتعدون عنه، فالمسلمون معرضون للإدانة والخطأ وليس الإسلام، فالخلط بين المبدأ والتطبيق، وبين القاعدة والمثال، وبين الإسلام والمسلمين، جهل قد يولد الكمال الزائف عند بعض الدعاة، أو يعطي الفرصة لتشويه الإسلام بسبب واقع المسلمين، فيلقي أعداء الإسلام الشبهات لتشكيك المسلمين، فيجب على الداعي أن يوضح ذلك للمدعوين؛ ليحذروا هذه الخديعة.

تاسعًا: على الداعي أن يبدأ دعوته حيث انتهى فهم المدعو، وليس من حيث انتهى فهم الداعي نفسه؛ ليأخذ بيد المدعو نحو الفهم الكامل للإسلام.

عاشرًا: ابدأ بأقرب الناس لك، ومن هو لديه استعداد للاستجابة ثم الذي يليه، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

الحادي عشر: ألا ينظر إلى العصاة والبغاة نظرةَ اليائس من إصلاحهم، فيحكم عليهم مسبقًا بعدم الاستجابة، وينسى أن الله يقلب القلوبَ والأبصارَ كما يقلب الليل والنهار. قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦].

الثاني عشر: ألا يضع شروطًا يجب أن تتوفر في المدعو لكي يدعوه، فإذا افتقد شرطًا حكم عليه بعدم الصلاح، ولا يوجهه إلا حسب ما يحمل من قدرات، ويستغل إمكانياته مهما كانت ضئيلةً لصالح الدعوة، وكل ميسر لِمَا خلق له.

الثالث عشر: ألا يتعامل الداعي مع طبقة معينة من الطبقات، ويهمل دعوةَ الباقين، فيتعامل مع المثقفين مثلًا ويهمل البسطاءَ، أو مع المتعلمين ويهمل الجهلاء، أو مع الموظفين ويترك العمال، وينسى أن دعوته للناس كافةً.

الرابع عشر: ألَّا يستهين بدعوة الصبي والصغير، وينسى أن أطفال اليوم هم رجالُ الغد.

الخامس عشر: ألَّا تهتم بالرجال وتهمل النساءَ، فإن النساء شقائق الرجال، والدعوة لهما لا يفرق بين أحدهما.

السادس عشر: ألا تستهين بالكلمة الطيبة تقولها ولا تبخل بها، ولا تنسى أن للقلوب مفاتيح لا يعلمها إلَّا الله، فربما كانت كلمتك الطيبة مفتاح قلب قاس، فيهديه الله على يديك، فذلك خير لك من حُمر النعم.

السابع عشر: أن تتقبل الناس على ما هم عليه من إبراز جانب الإحسان فيهم، وترغبهم للحق الذي تدعوهم إليه.

الثامن عشر: ألا تُسفِّهْ عملًا قام به مَن تدعوه، ولو كان حقيرًا، بل تثني عليه وتشجعه.

التاسع عشر: أن تكلفه ما يطيق، ولا تحاول إشعاره بعجز فيما يوكل إليه من عمل، بل كلفه ببعض الأعمال البسيطة؛ حتى يشعر بأنه قد أدى عملًا نافعًا، ثم تدرج معه في التكاليف.

العشرون: تشجيعه على أن يسأل عن كل ما يعتمل في نفسه ولو كان محرجًا ففي هذا خير كثير، ومعرفة لنواحي النقص والكمال عنده.

الحادي والعشرون: لا تحاول أن تسخر من العصاة من أصحاب المراكز العالية، أو ترميهم بفسق، وأنزل الناسَ منازلَهم، فإن القلوب جُبِلت على حب مَن أحسن إليها، وبغض مَن أساء إليها. هذا، والله ولي التوفيق.

قائمة المراجع العامة

١. (**مناهج الدعوة وأساليبها**)

علي جريشة ، دار الوفاء للطباعة والنشر ، ١٩٨٦م

٢. (**مناهج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**)

فاروق عبد المجيد السامرائي ، جدة ، مكتبة الوفاء ، ١٩٨٧م

٣. (**منهج الدعوة إلى الله**)

جلال البشار ، القاهرة ، حنون للطباعة والنشر ، ١٩٩٩م

٤. (**الدعاة إلى الله في القرآن الكريم ومناهجهم**)

محمد طلعت أبو صير ، القاهرة ، المطبعة العربية الحديثة ، ١٩٨٦م

٥. (**الدعوة قواعد وأصول**)

جمعة أمين عبد العزيز ، الإسكندرية ، دار الدعوة ، ١٤٠٨هـ

٦. (**منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله**)

محمد سرور زين العابدين ، دار الأرقم للنشر والتوزيع ، ١٩٨٨م

٧. (**مناهج البحث عند مفكري الإسلام**)

علي سامي النشار ، مصر ، دار المعارف ، ١٩٦٥م

٨. (**مناهج الجدل في القرآن الكريم**)

زاهر عواض الألمعي ، مطابع الفرزدق ، ١٤٠٤هـ

٩. (**منهج النقد في علوم الحديث**)

نور الدين عتر ، دار الفكر ، ١٩٩٧م

١٠. (**الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف**)

يوسف القرضاوي، كتاب الأمة، قطر، طبعة رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٩٨٢م

١١. (**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**)

محمد ابن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار الجيل، ١٩٩١م

١٢. (**الجانب العاطفي في الإسلام**)

محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، ١٩٧٠م

١٣. (**التفكير فريضة إسلامية**)

عباس محمود العقاد، المكتبة العصرية، ١٩٨٦م

١٤. (**المناهج المعاصرة**)

الدمرداش عبد المجيد سرحان، مكتبة الفلاح، ١٩٨٥م

١٥. (**الدعوة الإسلامية بين الفردية والجماعة**)

سليمان ناصر مرزوق، دار المنار، ١٩٨٥م

١٦. (**المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية**)

طه جابر العلواني وآخرون، طبعة المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٨١م

١٧. (**مناهج التربية الإسلامية**)

ماجد عرسان الكيلاني، بيروت، مؤسسة الريان، ١٩٩٨م

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2010